الفصل الأول

الجزء الأول

-1-

مفخوذة

في البلدة التي ما إن يعود نهرها للونه المائي حتّى يكرّ راجعًا للونه الدموي ، تجمّع جسده من أشتات الأرض كما تتجمع العوامل المؤدية للصلصال. بقي (المتجمّع) في تلك البلدة النهرية ممددًا . نصف جسده السفلي غارقٌ في نهر الفرات ونصف جسده العلوي يشارف على الغرق .. وجهه للسماء .. الشمس تلسعه .. في ذاته هدوء كهدوء المحيط الهادئ و في الخارج اضطراب كاضطراب الأطلسي ...

تتقدم شابة محمّلة برعب العالم ، بملابس ممزقة لا تكاد تستر عورتها ، وتقف مرعوبة مُظهرة ما بين فخذيها لوجه الممدد !

سيوف .. رماح .. منجنيق .. أناس يقتلون .. يُذبحون .. دماء تلّون النهر بالأحمر .. ترتعب .. تعبر عن رعبها بالتبول .. يتلطخ وجهه برشات بولها .. تنفتح عيناه .. بعد استغراقه في نوم أهل الكهف ...

يفزعان .. تفر .. تجري .. رشات من ماء النهر دفعه قارب هائج يمخر عبابه صوب وجهه

.. يتنقى وجهه !

- " ما الذي يحدث؟ "

- " الكل ضد الحياة مع الموت . الكل ضد الشمس مع الظلام .. الكل ضد النظام مع الفوضى ."

يرتبك لهول المنظر ككل مواطن قديم ..

- " ما الذي يحدث؟ "

لا أحد لديه حنجرة حتى يرد ؛ حناجرهم قطعت .. تنهمر عليه الحراب من كل حدب .. يخلع جلده من شدّة الخوف .. و يجري في نفس الاتجاه التي جرت إليه الشابة ذات الثوب المفخوذ .

اختبأت المفخوذة بين شجرتين ترتويان تلقائيًا من ماء النهر .. يختبئ هو أيضا بين الشجرتين .. ليس وحده بل هي أيضا مختبئة !

بادلها بنظرات مريبة . . بكت ..

- " لا تذبحني .. لا تذبحني ! "

- " أذبحك ما هذه الكلمة التي لا تُستخدم إلا مع المواشي ...هل أنتِ ماشية وأنا من سيذبحك؟ "

- " لا ..أنا إنسانة. "

- " ما دمت كذلك فلا ذبح إلا للمواشي. "

- " خوش. "

- " خوش ..ما تعني ؟! "

- " مطمئنة .. "

- " حسنا ..واصلي اطمئنانك و أخبريني ما الذي يجري؟ "

- " باوع .. "

- " باوع ..هل أنتِ عربية؟! "

- " أقسم لو كنا في حال آخر لرددت لك إهانتك ..تطعنني في لساني العربي ! "

- " سامحك الله وهل ما ينطق به لسانك يمت بصلة للغة العربية ؟! "

- " معتوه وأعمًى أنت.. يبدو أنك غريب.. لست من التتار؛ لأن ملامح وجهك تشبه شخصًا لم يفق من النوم منذ أمد بعيد ! "

- " لا أدري من أنا ، وكيف جئت إلى هنا . ما أتذكره - وبغير وضوح - أني نمت من شدة التعب قبل يوم أو يزيد ؛ لكن كيف وصلت هنا لا أدري ؟! "

- " سكران.. "

- " سكران ؛ تعني ... "

- " مخمور. "

- " الخمر لا يتعاطاه سوى اليهود وأنا لست يهوديًا ! "

- " لست تتاريًا و لا يهوديًا ولا تعرف سبب وجودك في بلادي التي تغتسل بـ الدماء ، من المؤكد أنك قاعدة. "

- " قاعدة ..اسم مؤنث. "

و تقترب الرماح .. تلمع السيوف .. يفر من بقي حيًا.. تطاردهم المناجيق .. يخبت ضجيج المكان .. ينطفئ كموقد انتهى فحمه.

- " نجونا من القتل ! "

- " أي قتل وماذا يحدث؟ "

- " العراقيون يقتل بعضهم بعض والتتاريون يقتلون البعض الأخير ..الأمر معقد يا ..... ما اسمك ؟! "

- " أنا ... عاجز لم أعد أتذكر اسمي "

- " نعم أنت يا صاحب الملمح الشبيه بكهف متعرج ! "

- " كهف ...آه ..اسمي.. "

- " الحرب أنستك اسمك .. يحدث أن يفقد البعض عقله لكن أن يفقد اسمه يبدو غريبا ..سأسميك كهنوف تصغير لكهف ! "

- " كهنوف! "

- " تشبيه بليغ لملامح وجهك ! "

- " كهنوف ، التتار، اليهود ، العراق كلمات غريبة ، وغرباء يذبحون بعضهم ، والأغرب شابة ترتدي ما يُظهر فخذيها .. كأني في حلم . "

- " كأنك نهضت من نومة طويلة ...تشبه نومة أهل الكهف "

- " و من هم أهل الكهف؟ "

- " بشر ظهروا قبل بناء الكعبة بمليون عام ظلوا مستغرقين في نوم عميق منذ العصر الجليدي الثاني وحتى نهاية العصر الأحفوري. "

- " لا ..لا اعتقد بأني منهم إذ اشعر بقربي لتراب هذا المكان . للمرة الخامسة ، ما الذي يحدث؟ "

- " التتار اجتاحوا العراق منتهزين فرصة انشغالنا بحرب بعضنا البعض . كل شباب العراق إما قتل ، أو صلب ، أو أصبح معاقا ، أو على مشارف أن يقتل إما بالسيف أو بالأمراض ! "

- " هذه البلاد التي تبدو بنهرها ، والمزروعات المنتشرة حول نهرها تعاني من كل هذا. "

- " وأكثر . لقد متنا آلاف المرات . و هذا النهر لم يعد طيبًا ؛ لأنه اختلط بنا .و المزروعات لم تعد صالحة لأنها ارتوت من دمائنا ، صارت جالبة للأمراض والأ وبئة .. "

وتتسلل دمعة ، تسقط الدمعة أرضًا .يُحدث سقوطها فرقعة ، يتنبّه عصفور للصوت ، يزقزق ، يلفت انتباه شخص ملقًى على مسافة قريبة منهما و قد قطعت يداه ..

يتأوه .. يقترب منه كهنوف .. يصدمه هول المنظر ..

- " ماء .. أنقذني ! "

تجري الشابة بعيدًا .. يترك المصاب و يلاحقها..

- " انتظري ..لا بد أن الشيطان سكن هذه البلاد وجعلها غدافًا .. "

تختفي الشابة .. تبتلعها حفرة بعمق لا متناهٍ ..

الموت يأتي مهما فرّ الإنسان منه .. !!

- " وداعًا يا مفخوذة ...وداعًا "

يدمع ، تسقط لعمق الحفرة بفرقعة لا تُلفت انتباه أحد .

لقد ماتت وكفى ، كما هذه البلاد ، لا حياة هنا ، لا أمل .. " سافِر " ..

وافر .. افر إلى ما لا نهاية !

يتردد صدًى بداخله ...

-2-

الوعيُ شفاء

قد تقذفنا الصراعات إلى متاهات ، والمتاهات تقودنا إلى أزقة معتمة ؛ لا تحيا فيها سوى العقارب والأفاعي ؛ لكنّ ثمة نبضة حيّة تسري في الجسد لتضيء الدروب بالنور تتمثل في الأمل !

قد تنسف الحروب كل أمل لنا بقليل من الهواء و الشمس و الحرية .. قد تسحق كل حبة ذرة تصلح لأن تتجمع في قطعة خبز .. لكن ثمة من يدرك و يعِ أن الحروب ليست نهاية العالم بل نهاية المتحاربين .

قد تغادرنا أبهى الكلمات " محبة ، سلام ، نور ، حياة ، ... " و من وداع ؛ لكن ذلك لا

يعني الاستعداد لتأبينها في حفل تحضره أحقر الكلمات ؛ لأن الكلمة مثل الهواء تلوثها مؤقت و طهارتها مؤكدة بضمانة ربانية لا جدال حولها .

ليس ثمة شيء أكثر ضمانًا من الهواء النقي و الحرية المصحوبة بالوعي و الخبز المطعم بالسمسم ...

يظهر خيال الشابة مثل إعصار

- " موعد تأكيد تلك الضمان مؤجل بقرار بشري ..والى أجل غير مسمّى !

يذوي ذلك الصدى بعيدًا في أعماق المدى ، ويعاود ذلك السؤال بإلحاح أكثر من ذي قبل

" من أنا ؟ وما الذي أفعله هنا؟ ومن أيّ عالم جئتُ؟ هل لروحي الهائمة علاقة بهذا العالم ، أم تراها ما زالت هائمة تبحث عن مرافئ تتسقط منابعها فلا تجد ؟

بلا قرار هوت روحي ، الكل ينظر لي بجزع ، وأنا ما زلت تائها في بحور حيرتي ..!

وأولئك الأقوام المتصارعون، أتراهم من البشر، أم من البهائم ؟

ثقافة بهائمية تتباهى بالنور و لا نور، إسفافُ تخبط ، تغوط هنا وهناك، وأنا مَن أنا؟

ولماذا أتيت إلى هنا؟ "

إنسان حائر يبحث عن مسمى فلا يجد . أيّ جُرمٍ قادني إلى هنا؟ لم أعد أتذكر شيئاً سوى ذلك الصدى المنبعث من عمق المجهول (الوعي شفاء) حقيقة لا ينكرها أحدٌ ، فما بالها تتردد على مسامعي كطاحونة في ليلة عاصفة ..

أصوات هنا وهناك ، مَن هم و ما يريدون؟

صَبيّة عابثة تبحث في تعرجات وجهك عن ملاذ ، تتأملك ثم تفرّ صارخةً ، تقهقه هنا وهناك ثم تختفي الأصوات ، تبحث عيناك عنهم، تجول في المكان فلا تجد إ لا أشلاءهم مبعثرةً في بِركةٍ من الدماء ؛ لتغرق روحك في بركةٍ من الوحل ، تتحسّسُ جسدك ، تدهش ، تغوص يدك في بطنك المبقورة ، تصرخ ثم تغيب عن الوعي، وتعاودك نفس العبارة من المجهول (الوعي شفاء) ..

تقرر الرحيل .. البحث عن بلد آمن .

الجزء الثاني

-1-

من عصور اللوز و العسل

لا زال واقفًا على رصيف الشارع الرئيسي يتفقد وجوه المارة ،غارقًا في كومة من الذكريات الطازجة : وجه الفتاة المحمر و فمها المفضوح بالجوع و الحزن ، الجريح الذي غيبته بطن الكهف دون أن تبلل وجهه الشاحب قطرات السماء التائهة ، المقذوفات المجنونة الحارقة و التي غطت وجه القرية، أشياء كثيرة ضيعها مرور العمر المحمل بالوجع دهورًا فشطبت ظل الإنسانية العاري كطوية الآ دمي الأول على الأرض و تركت مجرى النهر مفتوحًا للندبات و الكوارث.

مرت فتاة عشرينية في عينيها زرقة بحر أعدم للتو ، مرّرَت عينيها الزرقاوين على وجهه و شعره و جسده ، و سالت من فمها قهقهة كأميرات الكوفة المدللات ، رنينها صلبَ ذاكرته كقطع النقود الذهبية و هي تتساقط بسخاء على بلاط ملكي ساحر. ثم عبرت الشارع نحو ممر فرعي ضيق مرصوف بالإسمنت و الحجر ، يربض في منتصفه سوق شعبي لأبناء النجف . كاد يفقد قلبه لوهله و هو يتتبع خطاها الهادئة المشتعلة . قفزت عيناه خلف وشاحها - الملفوف حول رقبتها - المذهّب بخيوط متموجة ، و ثوبها البغدادي الحريري بأكمامه وأطرافه الواسعة ؛ زين سواده بوحدات زخرفية من خيوط الذهب وبأشكال و رسومات لنباتات كأنها تسحّبت للتو من مهرجانات الفرح العراقية . مسح كهنوف جبينه منتشيًا لهذه اللوحة الهاربة من عصور اللوز و العسل و فراشات الجنة.

-2-

نفس البؤس

غابت في الزقاق و ظل بصره معلقًا على المدخل يُمَنِّي نفسه بأن يشع طيفها ثانية ... بعد أقل من نصف الساعة ، دوى انفجار عنيف في الجوار و هرع المارة و هرعت سيارات الإسعاف . كانت رائحة البارود تعج الشارع ، و أعمدة الدخان تحجب شمس الظهيرة الحارقة . في لحظة كهاته ، فقد كهنوف وعيه وقتها و غابت ذاكرته عند عربة بائع شطائر الفلافل الذي دسّ يده في صندوق الخبز الزجاجي و لم تخرج بعدئذٍ.

في طوارئ المستشفى ، ظلت الأسِرّة و الدهاليز ممتلئة بالجرحى و القتلى من الأ

طفال و النساء و الرجال ، و عادت سيارات الإسعاف مجددًا ؛ لنقل جثامين و أش لاء ضحايا التفجير الذي استهدف سوقًا شعبيًا للشيعة بسيارتين مفخختين .

أنين الجرحى و صراخ الأطفال و النساء ملأ َ أذنيه ، و كسّر قلبه ؛ فأفاق بعينين نصف مغمضتين و في حلقهِ بقايا غصة و أنين شاحب . لفّ الممرض ذراعه بـ الشاش المغموس باليود و مسح بقايا الدماء على صدره و رقبته و وجهه و ساقيه قائلًا : الحمد لله إصابَتك متوسطة ، لقد نجوت و تستطيع أن تعود بعد ثلا ثةِ أيام لتفقد الخيط و تنظيف الجرح .

في الأسبوع الخامس ، غادر كهنوف العراق مع عشرات الأسَر المهاجرة من العراق عبر حدودها مع سوريا ، أولئك الفارّين من شِباك الموت ، تلقفتهم الحافلات بحثًا عن ملاذ آمن و عدالة فقدت طريقها و صوابها و إنسانيتها.

كانت مناطق غرب بغداد قد شهدت ظهور إصابات بمرض " الكوليرا " و حدوث وفيات ؛ نتيجة نقص المياه - القادمة من دول الجوار - الصالحة للاستهلاك الآ دمي .

في محطة الباصات ، وقف كهنوف حاملًا ذراعه المصاب رابطًا إيّاه برباط من الشاش الأبيض حول عنقه و جعَلَه متدليًا من على كتفه . يتحسس ذراعه و يودع حقيبته التي تحمل نفس البؤس على وجهه ، و التي انتهى من شحنها في صندوق الحافلة الجانبي .

صعد كهنوف الحافلة و أخذ مقعدًا جوار النافذة و مدّ بصره حيث المدينة التي أحبها و التي استنفذت مخزونه من الخوف و الهلع و الارتباك و الوجع .. كان ككل مرة ؛ يحمل روحه استعدادًا لفقدانها أيّ لحظة . و بجواره جلسَ رجل أربعيني أنيقٌ ؛ حفرَت حوافر القهر وجهه الوقور ؛ رغم سماحة القسمات . عاد كهنوف من شروده و تنفس الصعداء و هو ينظر مبتسمًا جاره الأربعيني في المقعد و قد أدهشته ملابسه المزينة بخطوط عريضة سوداء ، و قهوائية مصنوعة من الصوف الأصلي الفاخر الناعم ، و التي عرفَ لاحقًا أنها تسمى بالسعدونية .. كانت ملامح الرجل وهيئته تدل على قدومه من " أبو غريب " فارًّا من موت لحق بزوجته و ولديه غرب بغداد المُبْتلاة بالكوليرا و الموت. كما أخبر الرجلُ كهنوفَ وهو يسرد له قصته قبل توقف الحافلة عند أول حاجز للجماعات المسلحة ؛ التي تعج بها ممرات و معابر الرحيل و منحدراته الوعرة . نزل جميع الركاب من الحافلة بناء على طلب قائد الجماعة الملثمين و المدججين بالأسلحة و القنابل .. نزل كهنوف مرعوبًا . أكثر ما كان يقلقه في الرحلة ذراعه المصاب و الذي يخوله مثارًا للتساؤلات و الشكوك في كل محطة سيطلب منهم فيها إخلاء الحافلة و الترجل تحت حرارة الشمس الملتهبة لأكثر من نصف ساعة بذريعة الدواعي الأ منية لهذه الجماعات .!

-3-

موتٌ رحيم

أشعة الشمس الحارقة و لهيب الأرض التي شوهتها سنون الحرب اللعينة ، و أعـ لام سوداء مزقت العلاقات الإنسانية ؛ توزع الإذن بطحن الأبرياء و تشريدهم ، نصبت فوق براميل و على جوانب و تباب الطريق الطويل .. يقف رجل إلى جوار براميل المسلحين يرتدي الزي العسكري المموه ؛ أو ما يعرَف بالزي الأفغاني ، و البعض الآخر يلبس كنزة سوداء و سروال ترابي اللون ، تختبئ وجوههم خلف وشاحات سوداء ملفوفة حول ذاتها بعناية ؛ بحيث لا يظهر منها سوى أعينٍ متقدة تشعرك بأن الآخرة على بعد فرسخ منك أو ربما أقل .. صعد أحد الملثمين الحافلة يتفقدها و يبحث عن شيء ما ، و آخرون يتفحصون وجوه الركاب الواقفين على مقربة من الحافلة في سطر مستقيم و منتظم كما طُلب منهم مثبتين أعينهم على الأرض .

أخذ المسلحين هوياتهم الشخصية و جوازات سفرهم و شرعوا يتفحصونها .. عدّل كهنوف طريقة وقفته بالعًا ريقه بصعوبة بعد أن دوت صفعة على وجه أحد الركاب :

" أنت شيعي . اليس كذلك ، هويتك تقول هذا ؟! هيا قف جانبًا ، ستأتي معنا.! "

لم يشعر كهنوف بشيء و تجاهَل التفاعل مع صوتَ سائق الحافلة قبل بدء الرحلة عبر مكبر الصوت اليدوي متوسلا ً : " أرجو من الركاب المسيحيين أن يعودوا أدراجهم حفاظًا على سلامتهم و أرواحهم ."

أغمض كهنوف عينيه فزعًا و هو يتخيل مصير الراكب المسيحي الذي عصبت الجماعة المسلحة عينيه و ربطت ذراعيه خلف ظهره و اقتادته إلى مصير ما حسبَ ظنون كل فرد في الحافة ؛ إذ لا شيء بمعالمَ واضحة هنا ..!!

على طول الرحلة ظل الموت متربصًا يتلقف العابرين و يفصل ثيابًا على مقاساتهم و أعمارهم .. على جانبي الحدود العراقية السورية أيضًا انتشرت القرى الحدودية المتاخمة للبلدات السورية التي تتداخل فيها الأسَر و العوائل تداخلًا وثيقًا ، و يبدو تنقل الأهالي على جانبي الحدود ، كما لو كانوا ضمن مدينة واحدة ، إلا أن هذه الحدود تبقى مضطربة و مقلقة بسبب تدفق الجماعات المسلحة و الأسلحة عبرها .

أثناء رحلة كهنوف المعقدة و المليئة بالمخاطر ابتداءً من بغداد ، مرور ًا بكربلاء و النحيب عبر الصحراء الشاسعة وصولًا إلى الحدود السورية ما يقارب العشر ساعات من سيناريوهات الخوف و الرعب و الإرهاب . كان الربعُ الأخير بالنسبة ل . كهنوف الأكثر رعبًا وإرهابًا و وحشية ؛ في الأنبار حيث تتواجد التنظيمات

المسلحة بفجاجة. حدث فيها تفتيشًا قاسيًا ودقيقًا للمسافرين و هوياتهم الشخصية ؛ دفعَ الكثير منهم ثمن شكوكٍ عابرة لتلك الجماعات المسلحة و كلفتهم حياتهم .

في سوريا و بعد عبور معبر " القائم / البو كمال " في الأنبار شاهد كهنوف القبور العائمة على الأرض و التي ابتكرتها تلك التنظيمات و الجماعات المسلحة مديرةً خلالها طاحونة الموت التي لا ترحم ، على أرض من صفيح ناري .

وقف كهنوف يمسح العرق المتصبب على جبينه محاولًا اسكات ارتعاشات قلبه مخفيًا ذراعه التي عذبته طوال الرحلة ، و نفسه ما زالت تحدثه بأن كل شيء سيكون على ما يرام و أن لا شيء سيحدث أكثر مما شاهده و ذاقه خلال سفره المجازفة هذا ، عبر معابر الموت الواسعة . كان يتذكر دائمًا المثل العراقي الذي ط الما ردده أصدقاءه العراقيين و آمنوا به " المبلل لا يخاف المطر" .

صار كهنوف لا يخاف الموت لأنه حتمي وملقى على قارعات الطرق . الموت الرحيم الذي كان يُمَنِّي به الجميع نفسه ؛ هو رصاصةٌ تخترق الجسد و تهديه موتًا مرفهًا ...

شاهد كهنوف ذراعه وحيدًا في العراء ، و عشرات الأجساد الدافئة التي لم تجف الدماء منها بعد . بلا رؤوس و لا أطراف أو ملامح . و وحدها كانت السكاكين تلمع في الصحراء بانتظار ضحايا جدد.

* * *

الفصل الثاني

-1-

منفذ الوليد

رياح دمشقية .. عاد إليه إكسير الحياة بعدما تيبس فمه.. فر من الشتات باتجاه الغرب يبحث عن عرش الشمس ربما.. و ربما عن أرضٍ يفهمها ...

تعثرت خطاه على الأرض غير الممهدة فوق العشب اليابس . كاد أن يدهس زهرة عطشى ، توقف حين سمع صوتها .. عاتبته .. همست في أذنه :

. " لا تتعجل فالوقت لا يعني لك شيئا. "

سقاها بعضًا من دمعه و مضى . بالقرب من المكان صوتُ طائر يئن .. بحث عن مصدر الصوت ليجد حمامة بيضاء مكسورة الجناح .. صنع لجناحها ضمادة من طين .. مسحت دمعها و ابتسمت .. طارت محلقة في السماء ترقب خطاه .

عند منفذ (الوليد) الحدودي مع سوريا وقف محمولًا بمواسم عشق دمشقي.. ما الذي يعنيه منفذٌ حدوديٌ لرجل لا يملك ما يثبت اسمه !

لبس وجهًا شبيهًا بدلو بئر قديم .. وقف في طابور طويل من الأجساد الملونة .. أمامه رجال يرتدون زيّاً موحدًا يُدعَونَ بالجنود .

يحاول عبثًا أن يتذكر ما الذي تعنيه هذه الكلمة.. صورة ما في مخيلته الداكنة تحاول البزوغ و تفشل .

جاء دوره للكشف عن هويته .. لا يعلم عمَ يبحثون !. وقف متبلدًا ؛ لا يقوى على شيء .. اشتاطت عينا الواقف أمامه و ازدادت احمرارًا.

تتفجر من فمه حمم بركانية خُيِّل له أنها ستخرس لسان كهنوف لسبع سنوات قادمة . هبطت الحمامة ذاتها لتربت بمنقارها على كتفه متراقصة كالبهلوان .. تتنقل من كتف جندي إلى كتف الآخر نظروا إليها و تقهقهوا ضحكًا مذهولين .. في الوقت الذي كان فيه قد مضى .

فر شاردًا يتقفز فوق الصخور التي احتدّت سكاكينها ؛ لتتخضب قدميه بدمٍ معسول .

عند نهر (العاصي) توقف باحثًا عن وجهه المموج على سطحه .. ألقى بجسده في عمق الماء ثم أخذ يبحث عن نفسه فيه .. عبثًا يحاول أن يجد ذاته .

-2-

نعم .. إنه هو

خرج يعتصره الجوع و الألم .. نظر حوله ليجد شجرة عجفاء تشبهه .. ألقى بثقله على جذعها العجوز متضرعاً إلى اللّه أن يطعمه .. بعينيين نصف مغمضتين استل من الشجرة خيطاً يرتق به جلده الممزق .. تدلى من أغصان الشجرة كائن صغير سرعان ما تضخم .. برز له فك كبير و ناب شبيه بخنجر عتيق .

دوت من جوفه صرخة جائع .. تلا " و فديناه بذبحٍ عظيم " .

بخفة المحترف غرز خنجره في عنقه و طرحه أرضًا .. أشعل النيران .. رائحة الشواء تبعث في روحه نشوة قديمة .. قطف الذراع و بدأ يلتهم بنهم جائعٍ لم يعرف الشواء منذ أن قُطِرَت بطنه .. حين أحس بالشبع استطال عنقه حتى

اصطدم بسحابة عابرة شاكرًا نعمة السماء .

فجأةً ، صوت جلبة غمر المكان .. وجد نفسه محاطاً بمجموعة من الغرباء يجللهم السواد .. لا يظهر سوى أعينهم التي يتطاير منها الشرر و مخالب شديدة الا تساخ ! .. أخذوا يقلبون البقايا فوق الجمر .. ظن لوهلة أن الجوع هو من قادهم إليه .. أفزعه صراخ أحدهم حين اتهمه بالجرم العظيم و أكل المحرمات . تم وصمه بالكفر و وجب إقامة الحد عليه و القصاص بذبحه .. عصبوا عينيه و لووا ذراعيه بحبل غليظ ؛ قيدوهما إلى ظهره .. سار على وقع خطاهم يدفعونه بقوة أمامهم دون رحمة .

صوت الذبح يجلجل في أذنيه ليتكرر من أفواه من يقتادونه .. أصواتهم تزيد الظلمة رعبًا .. صعدوا به على ظهر مركبة تسابق الرياح ليجتاز مسافة لا يعلمها .. ساقوه إلى ساحة رملية .. علا صوت يناجي السماء يتلو البيان .. ألقوا به على الأ رض و صوت عواء يتعالى بالنصر .. تجمهروا حوله بنصف دائرة يتراقصون على وقع الموت باستنكار لفعلته الشنعاء .. فضوا غشاء عينيه ؛ و انداح الرعب في صدره حين رأى لمعة أعينهم تتلصصه .. يستحلفهم بالله ما الذي حدث ؟! برك أحدهم بقوة فوق جسده المسجى بالتراب دون أن يجيبه .. أغمض كهنوف عينيه و غاب عن الوعي حين لامس عنقه نصلٌ صدئ .

في أجزاء من لحظة ، اخترقت الأجواء قذائف عدة ليصبح ما حوله كرة مشتعلة من النيران . و لما استفاق لم يعد يدري أين هو ! كان قد انسلخ عنه .. هو ذا فوق الغيمة السوداء تمكن من رؤية نفسه من تحت نتفها الصغيرة .. جسداً مسجى تحت بؤرة الغيظ . من حوله أشلاء مبعثرة .. اصطدمت الغيمة بوجه الحقيقة ، فهوى عائدًا إلى نفسه . شعر برعشة التوحد تهزه و وخز ينتشر في كامل جسده إضافة إلى استذكاره أمرَ ذراعه المفقودة .. أصوات مختلطة تكاد تمزق طبلة أذنه .. دماء متجلطة التصقت بمقلته يكورها بين إصبعيه .. البكاء لديه مجرد صوت و نصفُ دمع ؛ فالتجلطات حول عينه اليمنى تمنعه من أن يمارس عادة الأ طفال بشكل كامل وقت الخوف ؛ لذا صار مسخًا بعين واحدة .

لا يزال الدخان يتصاعد من بعض الأشلاء المحترقة .. دماءٌ امتزجت بالرمال و سواد الاحتراق .. أخذت تبقبق كعجينة مصهورة في طور التشكل .. شعر بوخز شديد في عضده .. اشتق بقية من راية سوداء نصف محترقة ضمد بها جرحه .. صوت خافت يستغيث به .. اقترب من مصدر الصوت .. أحدهم لا تزال فيه بقية من روح .. النصل ملقى بجواره صرخ :

" إنه هو ...نعم هو ".

تردد صوت بداخله و قد رأى جمهرة ذئاب تلتهم بعض الأجساد .. نظر إلى تلك الأ عين الكثيرة اللامعة و هي تزيد من حدتها .. أخذت ترمقه بنوازع الافتراس .. أكد لنفسه أن لا وقت للانتقام فهي من ستقوم بالمهمة .. غادر المكان لاهثًا يجر

أنفاسه .. الرياح تزمجر بصوت مخيف .. أشجار تيبست أغصانها ترسم قوة تلا حم أزلي مع أحجار الجبال المتساقطة .. أحس برغبة في الجلوس مسنداً ظهره إلى حضن صخرة جوفاء .. طاف بذاكرته وجع المدينة الذي ملأ قلبه رعبًا .. عاد يتحسس عينه .. ذراعه .. قلبه الذي ينزف شوقاً لماضيه .. اتكأ على صبره محتضنًا كل يرقات الأمنيات و كله أملٌ بأن يصرنَ دودًا ذات يوم .

-3-

على باب دمشق

استعاد قوته مواصلًا مسيره إلى دمشق في طريق بحثه عن السلام .. تتقفز خطاه على صخور الجبل نحو الأعلى .. تراءت له قرية جدباء .. أكواخ متراصة بـ القرب من بعضها .. مر يسأل أهلها الطعام .. أصابهم الرعب حين شاهدوه .. تذكر الصبية أوصاف معلمهم للمسيخ الدجال ، و هنا صرخوا :

." المسيخ .. المسيخ الدجال "

اختبأ المارة خلف البنيان يتأملونه بحذر و هم وجلون .. خرجت امرأة مسنة بثوب كفن .. ناولته صرةً فتات يابس و معطف و نظارة سوداء يخفي خلفها عاهته .. لم يكترث كهنوف بجمع المبررات لفعلة تلك العجوز ؛ فالأهداف تتوالى برأسه بحجم مصائب ستسكب على عالم ما .. ظل يرتعش طيلة تلك الليلة .. تعتصره ريحٌ باردة .. خبأ رأسه بين ساقيه .. ملتحفاً مصيره الغامض .. تذكر قول الزهرة و ابتسم .

مع إطلالة صبح جديد ، سار مكملا ً سيره حيث قادته قدماه .. وصل إلى غرفة مطلة على بساتين غناءةٍ ، لها زخارف هندسية و نباتات موزعة بين شقوق الأ حجار و الأخشاب .. الشمسيات الجصية المفرغة .. الخيوط الزخرفية .. ظل متأم لا ً روعة ما يحيط به من جمال .

ظهرت امرأة فاتنة ممشوقة القوام شبه عارية .. ألصقت جسدها بجسده و قالت بغنج :

." هيت لك ! لا يوجد هنا سواي فرب البيت ذهب إلى صيد الغزلان ."

و لما رأت عينه فرت هاربة تستغيث ، أيقنت أن بقية أجزاءه ستتبعها تباعًا .. خرج مذعوراً .. امتطى فرساً وجدها على ضفة نهر (البارد) توسل إليها بحق اللّه أن تسوقه نحو هدفه المنشود .. لم تخيب ظنه حين لامست دمعته غرتها البيضاء .. انطلقت به كالبرق .. عادت إليه روحه التي ذابت في وحل تلك الفتاة و كره الاعتراف بهذا ؛ فمقاييس الرجولة لا تستدعي أن يُشرخ رجل ما بهكذا

عرض .!

شعر بالسعادة حين اشتد ظهره ممسكًا بلجامها كطير يحلق في السماء .. تركته عند مفترق طريق و مضت كأنها مركبة ما من القرون البعدية للقرن الحادي و العشرين ؛ إذ لا مسوغ لفهمها المكان و الزمان سوى هذا .. سار على قدميه مسيرة نصف يوم في زمن لم تعترف به المقاييس .. وجد نفسه حيث المروج الغناءة .. و قد ارتسم الشوق على شفتي الجبل .!!

صدحت العصافير بألوانها القرمزية و رقصت الفراشات محلقة بخفة تحركها الرياح الربيعية .. صوت خرير الماء .. الورود المترامية هنا و هناك .. أشجار النخيل الباسقة تشرئب أعناقها . تقبّل الشمس .. عشبٌ أخضر افترش الأرض ضاحكًا و قد طغى على كل ذرة رمل فيها .

يتدفق قلبه شوقًا إلى دمشق .. قدماه لا تظل الطريق الذي ألفه إليها .. قطف وردة بيضاء عطرة أهداها إلى جوف السماء .. و أغمض النهار إحدى عينيه في خجل ؛ لتفوح رياح دمشقية تأتيه عن قرب .

على باب المدينة لم يجد دمشق التي يعرفها .. خلعت ثوبها الجميل لترتدي ثوب عفن .. تشوه وجهها الحسن ؛ رغم ذلك تناهى إلى سمعه صوت آلة العود وغناء طرب .. يا لها من رياح سرت في بدنه لتداوي قلبه العليل . وصل إلى حيث الصوت .. مقهى تجمع فيه العشرات .. رائحة البن تخالطها رائحة عشق للحياة . جلس على أحد المقاعد مختفياً خلف نظارته.. أحدهم متخوفاً سأل - النادل : " من ذلك الغريب؟! "

. " ربما يكون جاسوسًا أو إرهابيًا ينوي تفجير نفسه بيننا في الحال بما يخفيه في كم المعطف .

خيم الهلع على المقهى .. فر الرواد مذعورين .. كهنوف و قد أحنا رأسه بالتحية للنادل الذي فر هو الآخر هارباً يترقبه عن بعد .. غادر المكان يتجول في الطرقات.. توقف على مشارف سوق (الحميدية) لفت انتباهه. رجل يشكو قلة البيع .. الركود خيم على كل شيء . جميعهم يشكو سوء الوضع.. الإنارة التي لا تأتيهم إلا نادراً.. سار يبحث عن وجهٍ يعرفه.. ربما يجده مرسوماً على وجه أحد المارة .. وصل إلى جولة (بابا توما) جولة طويلة في الحي العريق .. نظر إليه ، فلم تعد أحياء دمشق القديمة كما كانت .

عناصر اللجان يحافظون على حضورهم .. أناشيد كربلائية تصدح في الأجواء .. عمليات تفتيش بدقة متناهية .. شعر أنه وقع في مأزق .. زاغت عينا المفتش إلى خنجره العتيق .. مد كفه و التقطه.. تأمله .. خنجر منقوش بأحرف قديمة .. تفحصه من كل اتجاه .. عاود النظر إليه متسائلا ً بصوت خافت : " من أين لك هذا الخنجر المنحوت بالزخارف و النقوش؟! إنه باهظ الثمن لابد أنك من مهربي

الآثار و لديك غيرها الكثير ."

ابتلع الرعب قلبه حين وضع المفتش كفه على الزناد و قد صوب فوهة المسدس على صدغه. أخذ المفتش الخنجر تاركًا له الإذن أن ينصرف . سار وسط ازدحام المارة باحثاً عن ماضيه .. بسطاء افترشوا الرصيف في كل مكان .. تتركز قرب جسر (الثورة) .. دوي انفجار صاروخ قرب فنادق (المرجة) - التي خلت من زائريها - وسط الحي ضحايا بالعشرات .. هبت فرق الإنقاذ .. أشلاء أطفال و نساء و رجال .. دب الضجيج بين المارة بأن القصف اشتد بين الجيش و المعارضة .. تحسس عينه وذراعه .. متسائلا ً ماذا سيفقد بعد ؟! .. بدت المدينة مليئة بالخوف و الفقر و التعب .. تفتيش و تدقيق مستمر .. ملاحقات أمنية للمطلوبين المندسين بين الأهالي .. القلق يسيل من هامته حتى أخمص قدميه .. الكثير من سكان المدينة يغادرونها .. مرت من أمامه قارئة الفنجان .. تبسمت و قهقهت عاليًا ناظرةً إلى عينه المثقوبة قائلةً :

. " سماؤك ممطرة و طريقك مسدود مسدود " .

شعر بالقلق مدركاً أن الزمن لا يعود إلى الوراء ؛ قرر الرحيل ملتحفاً ستار الليل .. احتضن قلبه و مضى راحلا ً يبحث عن عرش الشمس .

* * *

الفصل الثالث

-1-

بين سَبع

في الساعة السابعة مساءاً .. لسبعٍ خلون .. من الشهر السابع .. من السنة السابعة .. منذ سبعين خريفاً عقب الاجتياح ..

و من سقيفة مستطيلة بثلاثة جدران ، مُوَارَبٌ إليها من آخر الجدار الطويل الممتد من يمين الواقف بالبهو بابُ مخدعٍ خشبيٌ بلوحين مربوطين ببعضهما بدسارين خشبيين عرضيين متوازيين من أعلى و من أسفل ينتظمان لوحي الباب. بدأت مغامرة كهنوف .. وجد نفسه واقفاً أمام السقيفة ، من جهة البهو ..

فجأةً .. و دونما نداء من كهنوف .. أو انتظار .. أو تنصت .. أو أي نية مبيتة لعمل مشين .. بابٌ خشبيٌ دونما مزلاجٍ .. تُوَاربه دَفْعَةٌ قَويّةٌ من القدم اليسرى لِطالعٍ من

مخدعه كأنه بدر التمام ..

هيئةُ شيخٍ صالحٍ يعرفه كهنوف تشبه هيئة الطالع . يملأ الطالع كالبدر الأفق المبين بقامته الأبية .. و طلعته البهية .. و ابتسامته العربية النبية الراضية المرضية .. ابتسامة تجلت عن ثَنْيَتَيْ شَتِيْتٍ عُلْوُيّتين عَريضتين ناصعتي البياض كالثلج .. عمامة خضراء بالية التفّتْ على رأس الطالع ذات (عَدَبَةٍ) تتدلى أماماً إلى صدره بمحاذات الجهة اليسرى من العنق .. قميص نصفي ذو لونٍ قرمزي غامق .. و مئزر يماني شعبي أسود غاية في التواضع و الطيبة و الرضى .. يتقدم الطالع من مخدعه فجأة .. يعبس في وجه كهنوف .. يمسك بخناقه .. يهزه .. يجره إليه حتى يلاصق ساعده الأيمن ساعده .. يخاطب الطالع من مخدعه كهنوفَ معاتباً .. منكراً .. موبّخاً متهكماً .. متوعداً .. يكاد يقفز ، من حدة نبرته ، أسدٌ مكشرٌ عن أنيابه ليفتك بالشيخ الصالح .. مشهد مذهل مرعب يجعل كهنوف يظهر و كأنه قد صُدّ فلا يتجاوز بصره بهو السقيفة داخلاً و لا يرى شيئاً خارجا ..

يقف كهنوف مشدوهاً مذهولاً كتمثالٍ من العاج الممتلئ الثلج .. تعصف به الحيرة لا يدري أيحزن ؟ أم يفرح ؟ .. يبشر ؟ أم ينذر ؟ يندب ؟ أم يخطب ؟ ينعي ؟ أم يطرب ؟

صوت نبويّ وديع و جارح في آن .. حمامة بيضاء وصقر أسحم كأنما هبطا من السماء السابعة ليصطرعا داخل أحشاء كهنوف المزدحمة بخناجر الخوف و ذئاب الجوع و حملان الصبر و يمام الضعف و الهزيمة .. جسد كهنوف يتحول كله إلى عيونٍ مصغية و آذانٍ واعية .. قلبه يتوقف عن الخفقان ليصغي .. عينه تتكشف عن الغشيان لترى .. أذناه المصمومتان من دوي القذائف تنفتحان لتسمعا ..

- " هل هذه هي الحداثة التي أردتموها لي ؟!! " ابتلع كهنوف لسانه .. رد في نفسه دون أن يجترئ حتى على إظهار نية أنه سيرد .. و أنا ما ذنبي .. لا شأن لي .. اختفى الطالع كالبدر فجأة في مخدعه .. جلس متربعاً .. وجهه باتجاه القبلة ..

ظل كهنوف واقفاً كالعمود .. كالتمثال الحجري .. كالخشبة المسنّدة .. كفزّاعة حقل ذرةٍ حمراء مهترئة بعد انقضاء زمن الحصاد بسبعة أشهر .. فجأةً .. تمثّل لـ كهنوف شخص من العصر الأول .. يدافع عنه بالشعر .. يقف وسط السقيفة .. ظهره باتجاه كهنوف و صدره باتجاه القبلة من جهة الجدار المقابل لبهو السقيفة .. و هو يلتفت إلى اليمين باتجاه باب المخدع المفتوح ينشد :

" إنّ الأماني ، و المنى ، والمِنّةْ ★ ★ تنزّلت في آل أحمدنّهْ " .

و ما إن سمع ذلك البهي الطالعُ كالبدر المتربعُ في مخدعه صوتَ الشعر يلتمس العفو و الاعتذار .. حتى سرت من نفسه نفحة عفو ملأت المكان و فكت الأصفاد و حلت العقد و أعادت المفاصل .. دبت الحياة في كهنوف .. وجد كهنوف نفسه ..

شعر أنه تحرر .. ظل برهة ببهو السقيفة دهشاً .. صامتاً .. وحيداً حتى من نفسه .. و كردة فعل من إنسان مقصّر .. ضعيف .. محنق .. جبان .. رعديد .. حاقد من نفسه .. أخّر كهنوف شقه الأيسرَ خارجاً .. و قد أضمر أن يتخذ لنفسه وجهةً يسلكها ظاهرها باتجاه " مكة " و باطنها باتجاه .. هَمّ كهنوف أن يقلع قدمه اليمنى لتلحق بقدمه اليسرى و إذا بالطالع ليلا ً كأنه نهار ٌ يكشف عن طوية كهنوف .. يقف خارجاً بين كهنوف و أول الطريق .. يحجب عنه متجهه .. يقف بينه و بين مشتهاه .. و يصد عنه سعة الأفق فتنطمس عليه معالم أول الطريق .. اليد اليسرى للطالع كالبدر ببنانها الخمس المتفرقة .. و راحتها المبسوطة .. ترتفع في وجه كهنوف .. تحجب الأفق عن عينيه .. لا يرى سواها .. لا يحس غيرها .. تهوي على صدره بضربة موجعة ..

يستيقظ كهنوف فزعاً.. يجد نفسه و قد عادت إليه يده اليمنى المبتورة .. لا يصدق .. يقينه لا يتزعزع .. وجهته الثنائية المزدوجة صارت وجهة وحيدة .. صوب المدينة المنورة .. صوب مكة .. صوب شبه الجزيرة العربية .. صوب الخليج ..

ينهمر سيل من الأسئلة على كهنوف : " ما الذي فعلته حتى يعاتبني ذلك الطالع كـ البدر في تمامه ؟ ما الذي فعلته حتى يبتسم لي و يرضى عني ؟ ما الذي لم أفعله حتى يؤنبني ؟ ما الذي ارتكبته حتى يصدني عن وجهتي ؟ ما الذي سيصير عليه أمر دنياي و آخرتي بعد أن ضربني على صدري ؟ هل سأكون رجل عصري كمن ضُربَ على صدره في العصر الأول ، و دعي له فصار يلقب بـ" حبر الأمة " ! .. هل هو معنى الشجرة الملعونة الذي توصلت إليه ؟ من بحثي " في ضوء الشجرة المقدسة " " لنجم الدين المريري " ؟؟!!!... "

لقد تذكر كهنوف أنه صلى العشاء في تلك الليلة من غير وضوء .. حمله غياب الماء على استحضار التيمم .. هل كان ذلك سبباً كافياً ؟!... هل هي الحداثة وما بعدها ؟ ذلك المشروع الثقافي الاجتماعي الاقتصادي السياسي الديني الذي روج له من روّج فوقف الشيخ الصالح كمؤيد لدعوة الانفتاح على شعوب العالم .. فيما الطرف الآخر من تلك الشعوب ما زال يفضي به الشعور باللامسؤولية لتشويه سمعة " ذلك البهي كالنبي " زوراً وبهتانا خلافاً لما جاء به ولما هو عليه ؟ .. أسئلة ظلت تنهمر على كهنوف .. طوال تلك الليلة .. ليجد نفسه وقد طلع عليه الصباح .. و هو خارج الحدود السورية بين عشرات الآلاف من اللاجئين السوريين الذي شردت بهم الحرب ففروا من بلادهم إلى الأردن ..

-2-

بين سَبع أخَر

في السابعة صباحاً لِسَبْعٍ خلون من الشهر السابع من السنة السابعة منذ سبعين خريفاً من الاجتياح ، وجد كهنوف نفسه .. يتذكر شيئاً مما له علاقة بتلك الرؤيا ؛ فعندما شاهد ما يعانيه اللاجئون .. حيث الذئاب كانت تتعاوى في دواخلهم و المشانق تنصب لأعناقهم من الداخل .. كانت حقولهم قد تحولت سنابلها إلى فزاعات ففر منها الفلاحون.. الأطفال في العراء .. الناس بأقدام مختلفة .. بعضهم بحوافر أثوار والبعض الآخر بحوافر حمير ..

كان قد امتطى صهوة غباره باتجاه نهر الأردن .. طار .. علق في قوادمه جذوره .. ربما لسد الفراغ الذي تركته المفخوذة في نفس كهنوف .. تذكر إذ ذاك أنه كان قد تعرف على فتاة مسيحية .. تنتمي إلى طائفة " الرسليين " التي ظهرت منذ سبعين خريفاً من القرن السابع قبل الميلاد باسم " فجر الألفية " ثم اختارت (شهود يهوه) ..

أعطته الفتاة نسخة من مجلة " استيقظ " " Awake " .. لاحظ أنها أقرب إلى أفق منها إلى استيقظ .. عرضت عليه فكرة الحج إلى كنيسة " القيامة " في إحدى الدول الأوربية حيث تمنح هذه الكنيسة شهادة دكتوراه في الأديان وتضمن غفران القيامة عقب رحلة حج يقطعها المسافر سبعين يوماً مشياً على الأقدام .. حتى يصل إلى الكنيسة المحددة .. كان قد أبدى كهنوف استعداده .. فأعطته عنواناً لأحد ناشطي الحركة على ضفة نهر الأردن ؛ ليتعمد ويحصل على هوية تسهل تنقله بين البلدان ..

لقد كان في رأسه هدف يتلهف إلى تحقيقه وهو الحصول على هوية تسهل له السفر للحصول على مكان آمن يعيش فيه حياته بعيداً عن الحروب و الصراعات ..

تذكر كهنوف حينئذ أبياتاً من ديوان " ترجمة رملية لأعراس الغبار " لصاحبه " المبصر في الزمن الأعمى " :

" إلى سوى هذا الزمان أهفو ★ ★ إليه أضني سرعتي ومهلي

هل أمتطـــي نفاثة إليه ★ ★ و تحت جلدي ناقتي ورحلي

هل أمتطي بغلا ً كنصف حلٍّ ★ ★ قد يمتطي وجهي قذالُ بغلي "

أمام هذا وغيره يبدو أن شبه مستحيلً يراوده .. عبثاً يجاهد .. يكابر لتحقيقه ..

قبيل وصوله إلى نهر الأردن .. استوقفه مشهد مدينة البتراء تذكر وصف " حبيب سروري " لهذه المدينة .. " المدينة المحفورة في صخور سلسلة جبال عالية متراصة . مدينة شبه أسطورية هائلة بنى فيها الأنباط حضارة زاهرة قبل الفي عام أضحت اليوم أبدع عجائب الدنيا السبع بجانب أهرام الجيزة ومعابد الأقصر إن لم تكن أجملها إطلاقا " البتراء " قصور ، معابد ، هياكل ، أضرحة ،

قرابين دير ، أروقة ، أقواس ، متاهات صخرية ، حمامات ، صهاريج ، قاعات احتفال ، أسواق ، صفوف من مدرجات مزخرفة ، بوابات ، ردهات ، شوارع ... كلها محفورة في أحشاء الجبال ! "

صخور وردية تتماوج عليها ألوان متعددة : حمراء ، صفراء ، زرقاء ... البتراء مدينة وردية تسبح في الظلال . يتسلل هنا وهناك شعاع شمسٍ يخترق بعض الشقوق والصخور ليرسم فسيفساء ، لوينات متباينة ، ظلالا ً متماوجة ؛ مع كل ذلك .. لم يجد كهنوف السياح الأجانب ..

لقد شغلهم الوضع الإنساني المزري للاجئين فراحوا يجمعون التبرعات ويقدمون مساعدات المؤن الطبية ، عبوات الدقيق والزيوت ، حليب الأطفال أرتال من الملا بس والأغطية والبطانيات ، المستشفيات المتنقلة .. وبالمقابل .. في الجنوب من البتراء .. قفص حديدي بداخله هيكل عظمي - قيل أنه للعباس بن فرناس حمله الهاربون من الأندلس خوفاً من التنكيل المسيحي في حرب الاسترداد - .. كان تحت الهيكل العظمي من داخل القفص علب فارغة كتب عليها " موبيل " .. بركة من زيت الوقود السائل تغذيها ساقية شبيهة بترعة الماء .. من بعيد شاهد ناراً تقبل وسط تلك الساقية وتقترب بسرعة باتجاه الهيكل لتلتهمه وتحوله إلى رماد ..

تجمعات لأناس تتدلى على صدورهم كائنات شبيهة بالتماسيح للواحد منهم رأسين آدمي يقابلك به .. وذئب يعوي في السماء من خلفه لالتهامك .. كان الناس يتحدثون عن محاكمة العباس بن فرناس بتهمة تجريب الطيران و تبديل خلق الله ، و البعض يعارضهم .. لا يقر بعقوبة الاحراق لأنه لا يعذب بالنار إلا خالق النار وعليه فالذي يحرق هو الله وأن استخدام النار للعذاب مقصور عليه .. والذي يجب هو تطبيق الحدود .. سمع أيضاً عن تأييد الناس هناك لمقتل زعيم حركة القرامطة في اليمن " عمر عيسى " على يد شيخ جهادي لتلفظه بألفاظ " تمس الذات الإلاهية " و قوله أنه ابن الله .. فأعد الشيخ الجهادي وليمة .. دعا فيها الزعيم للحضور وهناك تم اغتياله ..

-3-

لابد مما ليس له بد

وقف كهنوف حائراً أمام تلك التناقضات لهؤلاء الناس .. فبالأمس كانت إحدى القبائل تبتاع بثمن الخبز والأدوية وحليب الأطفال الصواريخ وتتباهى بتسميتها ب" العباس بن فرناس " و تهدد و تتوعد من يسخرون من هويتنا العربية ، و اليوم قبائل تتنازل عن مدنها و حقول نفطها لممالك تحتفظ بهيكل العباس بن فرناس وتستعيدها منها كي تحاكمه بتهمة الطيران و تبديل خلق الله .. شعر

كهنوف بالرعب .. وقبل أن يستوقفه أحدهم ويطلب منه هويته .. تنحى كهنوف جانباً ليشغل المتجمعين .. و يعطي نفسه فرصة .. امتطى كهنوف صهوة غباره .. طار يعلق في قوادمه جذوره .. يسابق الريح .. وصل كهنوف إلى ضفة نهر الأردن .. لسان حاله كان كما قال الشاعر العربي :

" أخا سفرٍ .. جوّابَ أرضٍ .. تقاذفت ★ ★ به فلواتٌ فهو أشعث أغبرُ "

و ما إن شاهد مياه النهر حتى قال في نفسه :

لقد آن لهذا النهر الخالد الذي تعمد به الأنبياء والقسيسون و الرهبان أن يتعمد بأثر غباري .. لقد تطايرتُ عبر متاهات الأزمنة و تشظى الدروب .. و آن الأوان لأن تتعمد ببقاياي البحارُ و المحيطات والغيوم .. الأنهار و الآبار وبرك المياه .. مشاريع الشرب و خزانات التغذية و قِرَب الوضوء .. الأجراس والكنائس ودور العبادات كما كان لكل أصقاع اليابسة أن تتعمد بعرق أسفاري .. ألقى كهنوف بجسده في النهر .. اغتسل ثم خرج والماء يتقاطر من ثيابه وشعر رأسه .. وصل إلى المكان المحدد .. أنهى إجراءات استخراج الهوية .. أطلقوا عليه لقب " المعمود " وأعطوه الهوية ..أخذها بدوره إلى مندوب السفر ليحصل على تذكرة سفر برقم هويته .. أخبره المندوب أن رحلة الحج ستبدأ بعد سبعة أيام و أن التذكرة ستكون جاهزة فترك كل ذلك عند المندوب .. تذكر " كهنوف " كل ذلك .. ثم أخذ يتمتم ..

- " لقد ولدت رحلة الحج هذه ميتة بعد تلك الرؤيا " ..

شعر " كهنوف " باليأس .. مضى لا يعلم له وجهة .. و بينما هو على هذه الحال .. لحظ جلداً شبه مطوي مرمياً في الطريق .. أيقن أن في باطنه كتابة .. تناول الجلد .. فضه .. إذا مكتوب فيه ما يشبه الدعاء على هيئة جديدة .. وعليه توقيع : " القروي الأخير " :

" كلٌ هذا لا يَهُمْ

و الإلهيات من غيرك صُمْ

و الأسى يعمر والفقر يعمْ

و الجهات انتثرت بعثرةً في الريح .. إلا

جهةً واحدةً صارت تؤمْ

جهةً من نور من صلى عليه الله ..

لا نار الأكاسير ..

و لا ماء القياصير .. و لا ..

لفحةٌ تلتهم الأشجارَ من شهوةِ قُمْ " ..

طوى " كهنوف " صحيفة الجلد .. ضمها إلى صدره .. توجه صوب السماء كمن وجد ضالته .. أخذ يردد في نفسه ..

" كل هذا لا يَهُمْ

و الإلهيات من غيركَ صُمْ " ..

طوى كهنوف صحيفة الجلد .. وضعها وسط حزامه كما كان يضع الخنجر بـ الضبط .. ثم أنشأ يرتجل .. على سليقته العربية القديمة :

" فاتني رَحْلُ صليبٍ عارضٍ ★ ★ يا هلالَ الرحلةِ الأنقى هَلُمْ " ..

امتطى " كهنوف " صهوةَ غباره .. اتجه صوبَ فلسطين .. في الحدود طلب منه الحرس هويته أخبرهم أنه بلا هوية .. فأعاده حرس الحدود مع مجموعة من السوريين ..

أيقن " كهنوف " أنه لا أمل في الهجرة غرباً بعد تلك الرؤيا... وكان يبدو مقتنعاً بذلك .. ولكنه كان يتساءل بمرارة :

هل كان بحثه " في ضوء الشجرة المقدسة " لـ" نجم الدين المريري " وما توصل إليه من معنى حول " الشجرة الملعونة " هو ما سبب كل ذلك الفناء وتلك التعاسة له وللعالم ..

مازال يتذكر القس والد الفتاة المسيحية " المسمى " الذي أرشده إلى أن معنى الشجرة الملعونة موجود في القرآن .. وتحديداً في سورة الأعراف " 19 - 22 " .. و أن البحث في ذلك الموضوع لا يتأتى إلا بمقاطعة الآيات .. تمامًا كما كان يفعل " د. محمد شحرور " .. الذي أنكروا عليه بحثه .. إنه يتذكر كيف اشتغل على ذلك البحث .. و أنه بسبب الممارسة الخاطئة لشجرة القرابة المشار إليها ؛ فإن النتيجة كانت مأساوية حيث ارتفعت نسبة الوفيات ... بسبب العامل الوراثي .. في عصر لم يتعلم الإنسان دفن الموتى بعد .. قبل عصر الغراب المبعوث لتعلم دفن الموتى بسبع حقب وسبعة قرون .. تذكر " كهنوف " تلك الصور المرعبة لجثث الناس وا لأطفال البدائيين العصاة منذ آدم الأول .. انتشار الجثث في أرجاء تلك الجنات والعيون .. تحت الأشجار .. فلم يجد الإنسان الصالح منهم أين يستظل .. لم يجد أين يأوي فخرج إلى العراء بحثاً عن المأكل والسكن الآمن...

-4-

زرقاء اليمامة

تماماً كما يحصل اليوم من شجرة السياسة الملعونة التي أخرجت الشعوب من أوطانها .. هكذا .. إذن .. كان المشهد الغرائبي المرعب .. و كلما تعمق " كهنوف " في استحضار الصور و المعاني للإنسان البدائي الأول في مرحلة سكن الغابات .. و لمعاناة الإنسان اليوم .. كلما تمادى في استحضار صور الهلاك والعذاب و اشتدت به الحمى .. وما هي إلا سويعات حتى في غيبوبة ..

ظن المرافقون من ممن كانوا مع كهنوف بأنه قد مات .. بلغوا الحرس بوفاة كهنوف .. استوقف الحرس الشاحنة .. أنزلوا كهنوف ودفنوه هناك في الرمال..

- " كهنوف !!"

سمع " كهنوف " من يناديه باسمه الحقيقي ..

جسد ممدد .. عليه كومة من الرمل .. التفت كهنوف إلى جانبه الأيمن من جهة رأسه .. إذا بصورة رجل معلم من الطراز الأول عليه ثياب بيض غير مخيطة تلتف على جسده العلوي ورأسه .. يتدلى شعره على كتفه الأيمن .. ذو لحية خفيفة ..

عاد " كهنوف " إلى وضعه .. سمع الصوت من خلفه ..

" نحن سوف نأخذ حياتك الآن " ..

شعر كهنوف بقشعريرة تدب في جسده .. شلل يسري في كل أعضائه... يفقد الإ حساس بكل شيء إلا من إحساس الصوت ..عودة الصوت مرة أخرى .. و لكن هذه المرة من الجهة اليسرى من جهة قدميه ..

لكنا سوف نعيدها لك .. كما سنصلح عينك ونزودك بعين ثالثة على جبهتك ترى من خلالها ما سيحدث في المستقبل إلى ما بعد سبعين خريفا .. و في تلك الأ ثناء أخذ الشخص الصالح حفنة من الرمال أنزل عليها الماء من أصابع يده .. عجنها ونفخ فيها إذا هي صقر ينتفض حيا لتوه ..

أحس " كهنوف " بيد الشخص الصالح وهي تلامس وجهه وساقه الأيسر .. فانتفض لتوه معافى ليس به أي مرض .. لقد عادت له عينه المفقودة وصار لديه عين ثالثة على جبهته هي عين زرقاء اليمامة .. قام كهنوف بنصف جسده العلوي .. حسر الرمال إلى نصفه السفلي الممدد . فجأة .. حركة أرضية باطنية أفقية " ←↑↑→ " في القشرة الأرضية الممدد عليها نصفه السفلي .. ترفع

الرمال من تحته على هيئة تل .. نهض كهنوف واقفاً على ظهر التل الرملي .. أخذ التل يمتد باتجاه الضفة الغربية لنهر الأردن .. تماماً كسلم كهربائي من العصر الحجري أو أرضية مطار تسير بالركاب خارجاً على بعد كيلو متر كما كان يحدث في مرحلة سكن الغابات .. يصل الجسر الرملي إلى الضفة الغربية .. على غفلة عن عيون الحراس .. يضع كهنوف قدميه على أرض الضفة ينحسر الجسر الرملي من خلفه دونما ذرة غبار تسقط منه في النهر .. يتوجه كهنوف صوب القدس .. يدخل الكنيسة .. لا يمكث طويلا ً لشوقه إلى المسجد الأقصى .. يدخل المسجد الأقصى .. يجد أناساً تلتف أجسادهم بثياب بيض .. أنصاف أجسادهم العلوية عليها ثياب شبيهة بثياب الأنبياء كما ورد وصفهم في نص " الشجرة المقدسة " ..

يشير أحدهم

- إنه المسيح الدجال ..

- لا .. إسمي الحقيقي كهنوف

- إن له عيناً ثالثة !!! .. هذه مواصفات المسيح الدجال..

أحد القائمين يتدخل مصححاً

- مواصفات المسيح الدجال بعين واحدة وممسوح العين الأخرى ..

ضحك كهنوف وأردف قائلا ً

- تقصدون هذه التي على جبهتي .. لا .. لا .. هذا كشاف أقرأ به المستقبل على بعد سبعين خريفا .. إنها عين زرقاء اليمامة ..

يضحك أحد الأولياء ..

- أخبرنا عن هؤلاء التتريين وعن مصيرنا معهم ..

- في عين جالوت سيهزمون على أيدي عبيد .. وسيهزم العبيد بعدهم على أيدي ملوك صناديد.. وسيهزم الملوك الصناديد على أيدي علوج رعاديد وهذه البلاد ستسلم لليهود المناكيد وهذا الخبر أكيد

أحدهم

- كذبت يا عدو الله فهذا من علم الغيب .. جئت تفسد علينا ديننا ..اصلبوه وحرقوه وانثروا رماده من على قبة الصخرة ..

يصلب كهنوف .. و تحرق جثته .. يجمع رماده في خرقة .. يذر من على قبة الصخرة ..

فجأةً ينتفض من ذرات الرماد طائر عملاق شبيه ب." تركوماكتو " " الظل الأ خير " في " أفتار " يسميه العرب " طائر العنقاء " .. و هو " طائر الفينيق " عند اليونان .. انتفض من ذلك الرماد .. الطائر وعلى ظهره كهنوف توجه صوب الجبال لتتحقق النبوة ويهزم التتار ويسحق المماليك ويمرض الرجل العثماني وتقتسم تركته العربية إربً ا و تسلم فلسطين لليهود ..

* * *

الفصل الرابع

الجزء الأول

-1-

كي يمُرّ كهنوف

هناك عند نقطة التفتيش المقابلة تطل من خلف رمال الأرض المباركة عيون بأهداب مبتلة، تقدم كهنوف خطوات، قدماه تستشعر أن صلابة التراب من تحته، تتشققان ، تتدفق منها دماء التخلق ، و من بين الشقوق تنمو جذور سميكة لا شرقية و لا غربية ، يقع كمن تعثرت قدماه يشتم رائحة التراب ، عبق يأخذه إلى تاريخ سحيق، و بصوت كتيم يردد : آه ما أندر هذه الرائحة ، منك و إليك أيتها الغالية ؛ أي سر فيك يجعل الدنيا برمتها تتصارع فيك و من أجلك ؟.

اغترف حفنة من التراب ، فشعر بحركة في يده شاهد حفنه التراب تبتسم و خيل إليه أنه سمعها تقول : ألا تعلم لماذا ؟ لأني مباركة و مهبط الرسالات و أرض المحشر و قاهرة الغزاة.

يلتقط تذكاري حجرا، يشعر بحرارة تسري بين كفيه و عنقه، يفتح قبضته ، ينظر تذكرته و قد تحول إلى مضغة غامقة لدنة ، تماما كقطعة كبد مسربة بالسواد.

ببرود يفترس ملامحهم ، ألوانهم ، تجتمع على طاولتها قارات العالم القديم و الجديد ، أنوف بعضها مدببة كالخناجر و بعضها مفتحة كأنوف الخنازير، و بعضها مشرعة أبوابها ككهوف " كليمنجارو " ، و بعضها بالكاد يرى، تشكيل غريب يثير

في ذهنه أسئلة سرعان ما تنطفئ إذ تداعت إلى ذاكرته تلك الأوصاف التي كان يرددها على مسامعه فقيه الكتاب كورد يومي . لم يعره اهتمام ًا في حينه .

أخذ أوراقه وعيناه تمسحان المكان و كل ما فيه وعلى شفتيه ابتسامة باهتة.. كانت ابتسامته ممزوجة بالألم لما يقوم به الصهاينة من احتقار و امتهان و قتل للعرب على المعابر و في الحواجز .. خاطب نفسه قائلا : " لماذا توحش الإنسان و أصبح يعشق إراقة دماء بني جنسه ؟ و لماذا ترك المسلمون عدوهم الحقيقي الذي اغتصب مقدساتهم و انتهك حرماتهم و صنعوا لهم عدوا هو أخا لهم في العقيدة و اللغة و التاريخ؟.

يقترب أحدهم و يحدث في عينيه طويلا، و تحدث في وجهه : " لا تتعب نفسك أنهم لا يفكرون وهبهم الله عقولا إلا أنهم لا تستخدمونها

- " لا تهتم لأمرهم يا عزيزي إنهم لا يستحقون الحياة لذا لا تحزن عليهم."

ازداد الرجل حدة و هو يقول : " لكن أخبرني ماذا كنت تعمل في سوريا؟! ، ألق ما بيدكَ ! " بصوت عواصفي .. هم بإلقاء ما في يده ، فوجئ بأن المضغة قد صارت جزء ًا منه ، التصقت المضغة ببطن كفه يشده صاحب الصوت من قميصه ، ما هذا الذي في يدك أيها الإرهابي الملعون؟

- " لا .... لا أعلم .... إنه .... إن .... " ، و بصوت آمر : " خذوه. "

وهناك في الغرفة المظلمة حاولوا نزع ما في يده غزوا مباضعهم ، خناجرهم ، أنوفهم ..علا صوت كهنوف .. بكى .. تحت أنين توسلاته تركوه ، وعلى صلابة عرفتهم استلقى، بات ليلته متأوه ًا يتحسس ألمه التضخم بمرور الوقت الذي لم يعد معلوما لديه .

صوت مزلاج الباب يقشعر بدنه ، و خيط خافت متسرب نحو .. يقترب أحدهم ، يمنع النظر، يصرخ ، يهرول مفزوعا ، يهرع بعيد ًا ، يحضر آخر وآخر ، يعلو الصوت الآمر ثانية : احملوه و ألقوه بعيد ً ا .. يحضرون جسده في شوال كبير ، يدحرجونه بأقدامهم ، يشعر بأنه يرتفع و يرتفع ، يسار به طويلا ، ثم أخير يرتطم بقوة و كأنه ألقي من شاهق .

يعاني وحيد ًا ، ينتصر هذه المرة : يا الله أين أنا؟ يستوي قائم ًا يسحب ثقل كفه، يمشي طويل ًا و هو يردد " ستدفعون الثمن غاليا " .. كان يفكر في التخلص من هذا الشيء النبات الذي يتعاظم كمعاناته ، ينظر حوله : أما من قدوم هنا؟ يا الله !

نعم تلك الحجر المصطلح قد تفي بالغرض، يسوي كفه ، يضرب بقوة ، تسقط المضغة فيس مع دوي ارتطامها ، تتدحرج ، تتكور، تتمشى قطعا متطايرة ، تتناثر ملء المساحة بين وجهه و أول إطلالة لمدينة قريبة .. أشعت كل شظية بنور

أخاذ كان مذهولا و هو يحدق فيها فيرى مآت المدن و آلاف الشوارع و ملايين البشر لكنهم غثاء .. عاد و جلس على تلك الصخرة و هو يفكر باستعادة من فقده من أعراض و وثائق .. زمجر مردد ًا لابد أن يدفعون الثمن لفعلتهم . كو ّ َر قبضته و ضرب بها على تلك الصخرة ؛ انبثقت منها نافورة ماء ببياض الثلج .. شرب و اغتسل، و تناول بعض الفواكه التي نمت و أثارت بالقرب من المكان .

-2-

سويدي ..!!

قرر العودة إلى المنفذ لاستعادة أغراضه .. خطوة خطوتان ثلاث، وجد نفسه في المكان ، أصيب الجميع بحالة رعب يصعب وصفها بينما سقط صاحب الصوت الآ مر مغشي ًا عليه ..علم فيما بعد أنهم عندما علموا بهويته أرسلوا فرقة من الجند للبحث عنه و إعادته.. تقدمت باتجاهه فتاة شقراء ممشوقة القوام ذات شعر طويل ربطته على شكل ذيل الحصان ، ترتدي بدلة أنيقة و تضع عطر ًا جذابًا .. أخذته إلى الدور الثاني للمبنى و أدخلته بهو ًا واسع ًا ؛ في الركن منه مكتب ًا فخم ًا تحيط به مكتبة أنيقة حو َت كتب َا بكل اللغات الحية .. أجلسته على أ ريكة مريحة و بأدب جم ، و ابتسامة ساحرة ع ُرض و بطريقة ما و بقس معين عرضت عليه تواجده بمناطق مختلفة من العراق و سوريا و خاطبته " لا داعي ل لإنكار فقط قل لنا ماذا كنت تفعل هناك و لصالح من تعمل؟ "

أجاب " أنا صحفي و هذا عملي و أنا أطالبكم بإبلاغ السفارة السويدية لترسل مندوبا ليكون حاضرا هذا التحقيق " . لم يكن كهنوف صادقًا بهذا و لكنها مهارته في التلبس بالعقول .. !! نظرت إلية المحققة و هي تبتسم قائلة لا داعي لكل هذا أنت ضيفنا الليلة وغد ًا سيسمح لك بالعبور ...

أخذته بنفسها جناح ٍ فخم بأحد الفنادق قائلة له بغنج و دلال : هنا ستمكث و إن احتجت شيئا أي فأنا موجودة في الخارج ما عليك إلا أن تضغط على هذا الزر.. رغم علمه أنه مراقب إلا أن المكان أعجبه إلى درجة أنه نسى أنه موقوف ومراقب فأخذ حمامًا ساخن ًا و طلب ما يحلو له من المأكل و المشرب . تناول طعامه بنهم غريب ثم شرب قهوته المفضلة على أنغامه المفضلة و هو يقلب بين يديه كتاب ًا في التاريخ .. وأخير ًا ذهب إلى السرير محاول ًا لساعات أن ينام تقلب مرار ًا على فراشه لكن النوم هجره و رفض الاقتراب منه فقط الذكريات كانت حاضرة بقوة تتدفق تباع ًا رغم ًا عنه.. تذكر قراره بالرحيل من سوريا باتجاه فلسطين عبر الأردن تذكر كيف لحق بعدد من الفارين أتون حرب الإخوة ا لأعداء هناك .. تذكر كيف سار معهم لأيام كانوا شيوخ ًا و نساء و أطفالا و فتيات في مقتبل العمر تأمل الجميع و لاحظ حالات الإعياء و الجوع و العطش التي أصابتهم .. تذكر عندما كانوا في استراحة بين الأحراش إذ قدمت سيارتان

سوداوان تحملان رايات سوداء وعلى متنيهما بعض المسلحين الملثمين بلباسهم الأسود. أخذوا يقفزون بحركات سريعة وانتشروا بين الجميع و قاموا بانتقاء بعض الفتيات و أخذوهن إلى سيارتيهم و انطلقوا مسرعين بينما يقول أحدهم هذه توجيهات الأمير أيها الكفرة .. تذكر أن موقفه كان سلبيـ ـًا مما يحدث أمامه ؛ أصابته غصة و دمعت عيناه .

-3-

في الصحراء

في كل تلك الأيام لم يكن هناك سوى لغة الرصاص و الخراب و رائحة الموت و النجيع المراق برخص . كل شيء كان غائبا إلا الخراب و الموت و رائحة البارود و الدم . تنهد بعمق و قال لنفسه لقد تغول الإنسان و أصبح كأنه آلة صنعت للقتل و الخراب و لا شيء غير ذلك . تذكر أنه كان طوال الرحلة يسمع أنين الشجر و صراختها وهي تباد . همس لنفسة ترى لماذا تحول خرير الماء في الجداول إلى عويل و زقزقة العصافير إلى نعيق بوم؟. كيف أصبحت الأزهار جمرا و تحولت الفراشات إلى بارود و شظايا؟ ما الذي حول النحل إلى دبابير؟ و الأمطار إلى حمم؟ كل شيء تغير و أصبح على غير عادته فقصائد الغزل أصبحت تقارير استخباراتية و المرثيات أغان و أهازيج . والأطفال مسوخ و أياد ملطخة بـ الدماء . و الرجال و حوش. نداء الأذان و أصوات أجراس الكنائس تحول إلى رصاص و قذائف و صواريخ و مفخخات. المآذن و القباب و الصلبان تحولت إلى علامات و شواهد قبور .همس تلك كانت رحلة عذاب فقد استمر الجميع بالتحرك لأيام ، ليلا ونهارا . كانوا يسترقون سويعات قليلة من النهار للراحة و النوم و يواصلون سيرهم حيث أن الليل أكثر حركة بالنسبة كما ارتأوا لأسباب تخصهم .

لاحظ كهنوف تعرض النساء والفتيات للتحرش بشكل دائم . كما لاحظ بين الفينة و الأخرى وصول أناس ببدلات أنيقة و سيارات فارهة يندمجون وسط النازحين و يتحدثون بكلام غير مسموع مع بعض كبار السن من الرجال و بعض النساء ولا يغادرون إلا و قد حملوا ما لذ وطاب من اللحم الأنثوي الطازج مقابل حفنة من المال .

أقترب مرة من أحد الشيوخ و فاتحه في الموضوع قائلا : " لماذا تعطون بناتكم لمن لا تعرفون؟ " رد الشيخ : " إننا نزوجهن ."

- " ربما كانوا كبار ـًا في السن ، أو متزوجين أو صغار ـًا لا يستطيعون التعامل مع فتياتكم الصغيرات اللائي مازلن يلعبن مع الأطفال . "

رد الشيخ باقتضاب " إنهم إخواننا و يرغبون في ستر بناتنا و الحافظ عليهن و

حمايتهن من التشرد و حياة المخيمات و ما يحدث فيها من امتهان و اغتصاب . هم حريصون على بناتنا يخافون عليهن من الضياع و ممارسة الرذيلة ."

- " يا رجل قل خبر غير هذا أخواتنا الصوماليات مشردات في أصقاع الأرض منذ أكثر من ثلاثة عقود لم يحرص عليهن أحد من إخوانكم الذين تزعم؛ هم يرغبون ببناتكم كونهن صغيرات و جميلات فقط لا للحفاظ و الستر كما تقول ."

نظر إليه الرجل نظرة ريبة و شك و قال : " يبدو أنك جاسوس أو أنك غير مسلم نحن يا هذا نقتدي برسولنا الذي تزوج عائشة و هي لم تبلغ التاسعة و كنا نمارس هذا النوع من الزواج إلى أن جاء النظام الكافر و منعه بحجة أنه يشكل مخاطر صحية على الفتاة ."

كانت تلك لحظة فارقة بالنسبة له فمنذ تلك اللحظة بدأ الناس يتعاملون معه بشكل مغاير و وجهت إليه العديد من التهم و التي منها أنه علماني و يعمل مخبرا للنظام . وعندما تعرض النازحين لنيران القناصة و قتل منهم الكثير وجهت ل. كهنوف تهمة الخيانة بشكل مباشر و أخذ للتحقيق و تم الاعتداء عليه من قبل كبار السن بقيادة ذلك الشيخ و تعرض للضرب و الركل حتى فقد الإحساس بالألم . و استمر هذا إلى أن فقد الوعي .

بعد فترة غير قليلة أفاق كهنوف و وجد نفسه مرميا في الصحراء بالقرب من طريق متلفع بالسواد يمتد بعيدا و يتلوى كأنه أفعى (الأنكوندا).

عندما أفاق وجد نفسه مدفونا في الرمل .. كان الوقت ضحًى انتصب واقفا ينفض ما تعلق بملابسه و جسمه من رمال ، شعر أنه بأفضل حال .

قال : " هل كنت أحلم ؟ هل كل تلك الركلات و ذلك الضرب كان مجرد حلم ؟! "

تأمل جسمه و حجمه و لونه ؛ كأنه شخصا آخر ، لا يعرفه ، تلفت في المكان و هو يقول من أنا ؟. من فوره قرر التحرك مستعينا بالشمس في تحديد جهة سيره تركها خلفه آملا أن يكون في الاتجاه الصحيح . أيام وليال و هو يتحرك على حافة الطريق الأسفلتي متمنيا أن يأخذه أحد المارة من السائقين لكن تلك الأمنيات ذهبت أدراج الرياح ؛ لندرة السيارات التي تمر ؛ و لأن أحد لا يهتم أصلا . واصل سيره متجنبا مخالطة الناس إلا لضرورة .

-4-

حادثة

قرر أن يسير وحيدا حتى يبلغ مطلبه . طالت الطريق و نفد ما كان يحمل من ماء و زاد .. واصل المسير في ظل حرارة لا تطاق . لكنه صبر و آتى على نفسه

حتى تقرحت قدماه و تيبست شفتاه و أصابه الإعياء و الوهن .

أحس أنه غير قادر على التحرك ؛ فذهب ليسند جسده على جذع شجرة ، نظر إلى التقرحات التي أصابت قدمه .. أحس بألم رهيب يغزو جسده كاملا و مع ذلك حمد الله أنه نجى من رصاصهم طوال الرحلة التي سقط فيها العشرات .. تنفس الصعداء لأنه مازال على قيد الحياة تأمل ذارعة مبتسم ًا و هو يقول: " شيء لا يصدق أن تعود ذراعي من جديد أليس ذلك كافي ًا كي أشعر ب السعادة؟. ".. سمع كلام ًا كالهمس " لا تفقد الأمل أنت بخير وستصل إلى مبتغاك ، إيمانك بما تريد سر قوتك . فقط كن خدوم ًا. "

أفز َعه ذلك الهمس انتفض من مكانه و دار حول جذع الشجرة الذي أخذ يهتز ضاحكا ثم قال : " رحلة طويلة وشاقة فاقبل مصيرك وتزود بالصبر من اللحظة كن غير ما كنت عليه . "

عاد إلى مكانه السابق ، أسند جسده المنهك إلى جذع الشجرة قلق ًا متسائل ًا " هل ما أسمعه حقيقة أم أنني أصبحت أهلوس ُ الأهوال و الإعياء و الجوع و العطش و حرارة الشمس؟! "

تحرك جذع الشجرة و وكزه في ظهره قائل ًا بل حقيقة و إليك الدليل بعد قليل سيتغير كل شيء في حياتك فلا تكن عجول ًا . في تلك اللحظة شاهد جسم ًا غريب ًا وسط السراب على الخط الأسفلتي يقترب منه " لا شيء هناك غير السراب ." جاهدًا يحاول الإجابة على أسئلة ذاته بذاته .. الشيء يزداد قرب ًا منه حتى أصبح واضح ًا أمام عينيه . إنها مركبة مسرعة على الخط القريب منه ، انفرجت ابتسامته بسعة الكون فانتصب واقف ًا و تقدم إلى حافة الطريق المكتنز بالسواد ؛ ليؤشر للقادم عله يأخذه معه. ثوانٍ قليلة ، انفجرت السيارة من مقدمتها انفجار ًا رهيب ًا و أخذت تتقلب باتجاهه ؛ ما دفعه للهروب بعيد ًا متجاهلا ً ما يعانيه من تقرحات و آلام .

انشطرت السيارة إلى قسمين و تبعثرت مع محتوياتها في المكان و ما تبقى منها كان يحترق. كهنوف غير مصدق ما يحدث أمام عينيه .. من شدة الفزع و الإرباك ؛ لك يكلف نفسه عناء البحث عن الأسباب وراء انفجارها و كيف انفجرت ..

بعد أن استعاد رباطة جأشه ، اقترب من الجزء الأمامي للمركبة ، شاهد ثلاث جثث متفحمة تمام ًا لم يستطع النظر إليها ؛ فاستدار و ذهب لمشاهدة الجزء ا لآخر منها .. وجد أشلاء ً ممزقة و محترقة لرجل ثلاثيني كان قد بقي له من العمر مقدار ج ُملة واحدة ، و فعلًا استنزفها بسؤال فارغ ألقاه على كهنوف و لم يترك له ملك الموت فرصة لتلقي الإجابة حتى .. حاول الاقتراب للمساعدة لكن الوقت كان قد فات.

لا شيء سوى رائحة الشواء و صدى ذلك الصوت يتردد مرات و مرات : " من

أنت بحق اللّه؟ " أخذ يتحرك في المكان هناك بقايا أسلحة و ذخائر و حقائب محترقة و أخرى ممزقة كمية من الأطعمة و المشروبات مبعثرة بين الرمال .. قبل أن يبتعد عن المكان وجد حقيبة جلدية لم تصب بأذى كانت مليئة بمئات الآلاف من الدولارات و عدد من الهويات و جوازات السفر لشخص واحد بأسماء مختلفة عربية ، إسلامية غربية .. عاد على المكان و جمع كل ما يستطيع و انطلق بعيدا إلى إحدى العبارات التي تقع تحت الخط الأسفلتي ليرتاح ويتناول شيئا مما وجد من الطعام و الشراب.

قرر أن يبقى هناك بعيد ًا عن أعين الناس المارة من المكان ، و ليراقب المكان جيدًا. وما هي إلا لحظات حتى تجمع عدد من الأطفال الصغار حول بقايا المدم ّ َرة و ما تناثر منها أخذوا يجمعون كل ما يمكن حمله . استنتج كهنوف أن هناك منطقة آهلة بالقرب من المكان فشعر بالطمأنينة. عبثت به روائح الأ طعمة فتناسى ما حوله متناول ًا بعض الطعام و الفاكهة و نام على غفلة .

استيقظ قبيل غروب الشمس لاحظ أن لا أثر لما تبقى من الحطام ، اقترب من المكان وجد أربعة من القبور بجوار بعضها و لا شيء غير القبور. القبور أوحت له بدفن ما غنمه و الذهاب لاستطلاع المكان الذي قدم منه الأطفال . نفذ ذلك بسرعة و انطلق . بعد فترة ليست بالطويلة وجد ما يشبه الأكمة قرر صعودها , و قبل أن يصل إلى القمة شاهد نارًا وعشش ًا و أحواشا للماشية ؛ فقرر البقاء مختبئا حتى يسدل الظلام أستاره على المكان .

وسط الظلام ، أخذ ينحدر تجاه القوم بسهولة و خفة ، اكتشف أنه يرى و يسمع بوضوح و كأنه يمتلك عيني حيوان بري ، و اكتشف أيض ًا أنه يفهم لغة الطيور و الحيوانات و يجيد السحر و فك الطلاسم و عمل الرقية و التعاويذ ؛ لكن التساؤل المخيم على رأسه ؛ لماذا ظهرت لي هذه القدرات في هذه اللحظة ب الذات ، كان يقرأ هذا الشيء على أن شيئًا ما سيحدث و أن عليه أن لا يستنزف قدراته ؛ فالطبيعة تنسق له الأشياء بترتيب و يحتاج هو فقط إلى الترشد في استخدامه .

انتابته مشاعر متضاربة ؛ لكنه تجاهل كل شيء و اقترب من المكان كثير ًا و تسلق بخفة ٍ إحدى الأشجار التي تقع بجوار البئر القريبة من المكان . من موقعه الجديد أخذ يراقب كل شيء إلى أن هدأت الأمور.

خلال ذلك اتخذ عدة خيارات أراد النزول ؛ لكنه توقف فجأة عندما سمع حركة ما و شاهد امرأة تخرج من أكبر العشش و تبتعد عن المكان في جنح الظلام و بعد فترة و جيزة خرج شاب من مكان آخر و سار في نفس الاتجاه . سمع و شاهد كل شيء عناق و ق ُب َل و كل ما له صِلة بعلاقة حميمية على عُجالة ، ثم انسحب الطرفان كل إلى مكانه . أشياء كهاته ، لا تستوقفه عادةً ؛ لكن الإنسان بداخله يغلب أحيانًا فينجذب لمشاهد كتلك .

قرر كهنوف أن يزور المكان نهار فعاد إلى العبارة ليواصل نومه. أخذت الأحلام و الكوابيس المزعجة تناوشه في كل لحظة ؛ جيوش جرارة تزحف صليل سيوف وقعقعة رماح قتل و سبي و دمار، خراب و حرائق ، حضارات تباد و أخرى تزدهر. قوافل تجارية ، و أسواق قطاع طرق و لصوص، أمراض و أوبئة . أحداث متعددة يطغى عليها السبي و الجنس و الاغتصاب ؛ من أجل السلطة و المال.و مع الزمن تحول كل ذلك القتل و الدمار باسم الإله و من أجله ؛ دين جديد يظهر في مكة يقبَل بالعنف من قبل كبراء القوم و ساداتهم . الدين الجديد ينتشر بسرعة مذهلة ليصل إلى العالم في القارات الثلاث ، حروب و صراعات لا تتوقف بين أتباع الجديد ، تقوم دول وتنهار أخرى . انكسار و انحسار للدولة الإسلامية الكبرى ، تفكك و انهزام و خيانات . حتى أنه كان في الأندلس أثناء انهيار دولة الإسلامية و انهزامها ، و تم القبض عليه و حوكم و حكم علية بالإعدام فقط حرقًا لأنه مختون ..!!

-5-

واقعٌ غير مبرّر

أُخذ إلى ساحة كبيرة فيها أعمدة على هيئة صليب . تم ربطه إلى أحد تلك الأعمدة كغيره من المحكوم عليهم . بدأت طقوس تنفيذ الحكم ، تم وضع الكثير من الحطب و الكتب و الأثاث حول كل موثوق رشت عليهم مادة سائلة قابلة للاشتعال و أضرمت النار. لسعته النار و أحس بالاختناق حاول أن يصرخ يستغيث يستنجد و لا مجيب .

استيقظ فزعًا من هول تلك الأحلام الثقيلة ، كانت ملابسه مبللة .حمد الله كثيرًا أنه كان حلمًا ، تناول جرعات من الماء وعاد إلى النوم .. عادت الكوابيس ..!!

" بلاد العرب والمسلمين تدمر و تحترق . أفغانستان ، باكستان ، الشيشان البوسنة و الهرسك ، العراق ، ليبيا ، اليمن ، سوريا . يا إلهي ماذا يحدث ، أزيز الرصاص ، دوي المدافع ، قصف البوارج ، والطائرات في كل مكان، تفجيرات و مفخخات تطال كل شيء حتى الأسواق و دور العبادة ." .. وسط هذه الكوابيس حلم أنه يتعرض للذبح بتهمة الزندقة لأنه طالب بأن تعامل المرأة كإنسان ، كذات لها كيانها المستقل . أخذته جماعة ترتدي السواد و تتمنطق السيوف و الخناجر، ألبسته ملابس برتقالية ثم أخذته إلى ساحة كبيرة ، تجمع الكثير من الناس حول المكان شاهد أن اغلب الحضور من النساء اللائي كن يهتفن من وراء خمرهن اقتلوا هذا الكافر أقيموا عليه الحد . وفجأة ظهر أجد الرجال ، يحيط به عدد من الشباب المدجج بالسلاح فصمت كل شيء اقترب الرجل و أمسك برأس كهنوف من شعر رأسه و شده إلى الخلف صائحًا " أنت أيها الزنديق جريمتك جزائها

القتل ضربً ا بالسيف ، هيا يا أبا مصعب أضرب عنقه. " اقترب أبو مصعب شاهر ًا سيفه ، مكبر ًا ، قائلا ً بإخلاص : " اللّهم أضفه إلى سجل حسناتي " و رفع سيفه ليهوي به على عنق كهنوف الذي أغمض عينيه و صرخ صرخة مدوية ً محاول ًا الفرار .

ارتطم جسده بجدار العبـ ّ ـارة ، أخذ يلهث متعرق ًا و هو يقول : " يا إلهي ماذا يحدث لي؟ " نظر خارج العبـ ّ ـارة فأدرك أن النهار قد بزغ فجره . من فوره توجه إلى تلك الواحة الصغيرة و قد قرر أمر ً ا ما . عندما وصل ، تجمع ا لأطفال حوله معتقدين أنه سائح ٌ غريب . بينما كان منشغل ً ا مع الأطفال ، أحس بثقل يد تحط على كتفه و سمع صوت ً ا يخاطبه :" أيها الرجل ! المكان هنا غير آمن الإرهابيين ؛ يختطفون و يقتلون أي غريبٍ يجدونه ؛ فأرحل خير ًا لك و لنا .! "

التفت كهنوف إلى الرجل قائلا بعربية لا تشوبها شائبة : أنا لست سائح ًا ؛ أنا منكم و إليكم و أريد الوصول إلى الأردن . رحب به الجميع و استضافوه في تلك العشة الفخمة التي شاهد المرأة تتسلل منها ليلا لتشبع نهمها مع احد الشبان ؛ رغم خشيتهم الشديدة من قوانين المتطرفين إزاء الغرباء الجدد . الشيء الوحيد الذي يستحق الوقوف عنده طويلًا بالنسبة ل. كهنوف ؛ هو الحصول على رفيق جديد في السفر ؛ إذا أن السفر وحيدًا أمر أشبه بتذوق المر كل ثانية .. !!

بعد رحلة مضنية وصلا إلى إحدى المدن و نزلا ليأخذا قسطا من الراحة ، طلبا ما يحلو لهما من الطعام ، و أثناء تناولهما للطعام قال كهنوف مخاطبـ ًا صديقة : " ما علاقتك بزوجة شيخ العشيرة ؟ "

بهت الشاب و كاد يختنق بما في فيه من طعام .. طمأنة كهنوف و أخذ يمازحه ؛ ما فك عقدة لسانه ليقول : " أنا و رقية كنا نحب بعض و اتفقنا على الزواج ؛ لكن أعراف العشيرة حالت دون ذلك و تزوجها ابن عمها شيخ العشيرة ليحرمني منها إلى الأبد . "

لأكثر من عامين و أنا أحاول التواصل معها دون جدوى ؛ لكني لم أفقد الأمل استمرت محاولاتي حتى خضعت و ذقت منها حرام ًا ما كنت ارغب به حلال ً ا. لكن أخبرني بـاللّه عليك كيف عرفت بالأمر . "

- " لا عليك يا صديقي ، كان الأمر مصادفة ، هيا أكمل طعامك و اذهب لتنام ؛ فمع اشراقة شمس الغد أمامنا رحلة طويلة . "

قام كهنوف إلى حقيبته الصغيرة ؛ ليتفحص تلك الهويات و الجوازات التي عثر عليها . كانت صادرة خلال عام 2000م ، موزعة بين أشهرها الاثني عشر و تحمل أسماء و جنسيات مختلفة لنفس الشخص . علامة استفهام كبيرة جثمت على كهنوف ؛ إذ الجوازات تجاوزت الأزمان لتصل إليه فعام 2000 م لم يحل على

العالم بعد .. الأمر أشبه بحلم لا مبرر له ؛ و لكنها الحقيقة التي تصيب الصداع .. ظل مشدوهًا و توصّل إلى ترك لغز كهذا للقادم فربما تفسره الطبيعة ذات يوم .. " علي أن أنام هذه اللحظة و لا شيء " ..

انطلقا في الصباح الباكر و وجهتهما مدينة الزرقاء .. بمجرد و صولهما المدينة اتجها إلى أجمل أماكنها .. الأسماء و الآثار فيها لا تعني ل. كهنوف شيئًا في هذه اللحظة ؛ فبرأسه ألف استفهام يجر ألف معضلة ..

-6-

" فاردارغينا "

كان يلامس المباني و الأحجار و الأشجار بحب جم و يتنفس عبق الأزهار و يكحل عينيه بالمناظر الجميلة كلما خرج في جولة من جولاته. كل من رآه و هو يتحدث الأحجار، ابتعد عنه معتقدا أنه مجنونًا . وصل إلى سفوح جبل " قرنطل " قبل الظهيرة أدهشته ألوان الجبل الوردية و كثرة قلاعه و حصونه و أديرته . ترك مرافقه و مركبته على سفح الجبل و أخذ بعض الأغراض ؛ فالرحلة – حسب حساباته لن تكون سهلة - قرر هبوط منحدرات الجبل الوعرة سيرًا على الأقدام رافضًا استخدام القطار الكهربائي . كان مشدوهًا بتلك الأديرة و الصوامع التي نحتت في قلب الجبل . أنساه هذا أمرَ مرافقه ، أو بالأحرى وجد العذر المناسب ليتناساه بعد مواقفه تلك في المركبة ، و التي توجع رأسه كلما تذكرها كهنوف .

تذكر من فوره مدينة البتراء عاصمة الدولة النبطية و ملكتها الزباء التي أصابت الرومان بدوار و مرغت أنفهم في التراب " إنه الإنسان صانع المعجزات . "

و بعد رحلة مضنية تمكن خلالها من الانحدار مسافة لا بأس بها شاهد أناسًا يعبرون بالقرب منه بسرعة كبيرة مستخدمين الحبال .. قرر اللحاق بهم رغم وعورة المكان و في طريقه وجد أحد السياح الأوربيين متجهًا إلى الأعلى استراح الاثنان على حافة أحد الشقوق الصخرية و أخذا يتجاذبان أطراف الحديث بما يتعلق بالبديهيات الإنسانية ؛ فلغتيهما المختلفتان كفيلة بأن تضع حاجزًا أمام التخاطب الطبيعي ..

كان كهنوف يسترق النظر إلى الأسفل كل مرة فيصاب بالهلع من بعد المسافة إلى قاع الوادي، و كأن ذلك السائح قرأ ما يدور بخلده فقال له بلغة أغلبها إشارات : " لا تخف لن تقع كن حذرًا فقط . هذا المكان محمي بروح الرب يسوع و صلواته. ثم أخذ يتحدث عن المكانة الدينية للجيل و الرمزية التي يملكها بالنسبة للمسيحيين .. كان مما استطاع فهمه باجتهاد بالغ أن الرب يسوع حضر إلى هذا

الجبل و أقام فيه أربعين يوم ًا وليلة صائم ًا عابد ًا مبتهلا ً للآب أن يحمي المؤمنين و يرزقهم الحياة الأبدية . " ، و حتى اللحظة لم يتأكد بعد إن كان قد ق ال هذا حقًا أم أنه مجرد هراء ..

في الأسفل الكثير والكثير من المغامرات والكهوف لجأ إليها النساك و الزهاد هروب ًا من الاضطهاد في عهد المسيحية الأولى ما جعله يتأكد من قول السائح بطريقة ما .. " ابتسم يا صديقي أنت في " فاردارغينا " التي تعني باللاتينية الأ ربعين نسبة إلى الأيام التي قضاها يسوع هنا أو إلى عدد الكهوف و المغارات فيه . "

الكلام عن الكهوف و المغارات يستهويه كثير ًا لذا أحس بالطمأنينة فأخرج بعض الماء و الطعام ليسد جوعه و عطشه و شارك ذلك السائح بعض ًا مما لديه، ثم توجه إلى الأسفل تشده رغبة داخلية في الوصول إلى بعض المغارات و بينما هو مستمر في النزول إذ انزلقت قدمه فسقط مطلقا صرخة حفلت لها كواسر الطيور في الجبل و العصافير و الحمام . أيقن أنها النهاية ، لم يكن يحز في نفسه سوى أنه لم يسمح لمرافقه بمغادرة المكان . و بينما هو في حالته تلك إذ بذراع قوية تمسك به و تشهده بقوة و ترطمه بالجبل . فتح عينيه بعد أن أحس بألم في أجزاء مختلفة من جسمه ليجد نفسه بين ذراعي رجل في نهاية العقد الرابع من العمر أبيض البشرة يميل إلى الصفرة ذو شعر ذهبي طويل كأنه ذيل حصان يافع . نظر إلى الساعدين اللذين التقطتاه و هو في طريقه إلى بطن الوادي .. كانتا مليئتان بالوشم .. تأمل تلك الوشوم قلوب و عقارب و ثعبان و عناكب و صليب و وجه فتاه و عنقود من العنب .. ابتسم رغم الألم . سأله الرجل : " هل أنت بخير؟! "

- " نعم بالتأكيد أنا بخير . لا أعلم كيف أشكرك لأنك أنقذت حياتي "

- " على الرحب و السعة . ثم أردف قائلا ً : عليك أن تشكر الرب يسوع ؛ لأنه هو من أنقذك . هذا المكان محاط برعايته منذ قدم إليه أول مرة و سيظل إلى أن يعود . "

تزعجه كثير ًا مثل هذه الكلمات التي فيها شرك بالله ؛ لكنه مع ذلك يبتسم في وجوههم . شد الرجل حبله على خاصرته و أخذ يتسلق الجبل إلى الأعلى بخفة قرد و هو يقول : انتبه لنفسك ، أتركك في رعاية الرب يسوع . نهض كهنوف ليواصل طريقة الوعرة باتجاه الأسفل ببطء و حذر شديدين .. هذه المرة و قد خسر كل ما كان يحمل معه من ماء و طعام . كانت الحركة على الجبل لا تتوقف و تزداد حدتها كلما أقترب الغروب. وصل كهنوف إلى إحدى المغارات التي كان فيها بعض السياح من الجنسين سمعهم يتحدثون بلغات مختلفة أندهش أنه يفهم ما يقولون جميع ًا . بعكس ذلك السائح الذي عانى صعوبة في فهمه .. لم يعد يكترث بغرائب الأمور ؛ فعلى ما يبدو أن الكثير سيحث و لن يكلف نفسه هم

تفسير كل شيء ..

كانت المغارة تطل على أحد السفوح الذي يقبع فوقه بقايا حصن سمع أحدهم يقول مشير ًا إلى ذلك الحصن " هذه الحصون وجدت هنا قبل 4ألف عام قبل الميلاد ؛ أي أنها وجدت قبل أهرامات مصر. "

- " نعم لأنها تقع في نطاق مدينة أريحا أقدم مدن العالم و التي يعود تاريخاها إلى أزيد من 10ألف عام قبل الميلاد . " بتفاعل من آخر .

ترك كهنوف الجميع يخوضون في حديثهم و أخذ يتنقل بين المغارات و الكهوف و الناس تقل بشكل ملحوظ كلما مر الوقت . ظل يتسلق هنا و هناك مستكشف ًا تلك المغارات مبهور ًا من قدرة الإنسان على تطويع عناصر الطبيعة لصالحه و تشييد و نحث الأديرة و الصوامع و المخازن و القلاع و الحصون و اختراع وسائل الفتك و التدمير لأخيه الإنسان و للحياة برمتها . تعجب من حب الإنسان للحياة و رغبته الشديدة في الخلود و كذا وحشيته و قتله لأخيه الإنسان في الآ ن نفسه. تواردت العديد من الخواطر و الأفكار إلى ذهنه جعلته ينسى وعورة المكان و خطورته و فجأة زلت قدمه عن الدرب فسقط سقطة جعلته يرتطم بـ الجبل ؛ ما أدى إلى إصابته بالكثير من الرضوض و كسر ٍ مزدوج في ساقه اليسرى و ضلعين من أضلاعه و كسرت يده اليسرى . أجريت له بعض الإسعافات الأولية من بعض السواح الذين أخذوه إلى إحدى المغارات و أعطوه بعض الأ دوية المسكنة .

كان الليل قد دلف بكل ثقله إلى المكان عندما شاهدهم بعينين مثقلتين و هم يشعلون النار بالقرب من باب المغارة . استيقظ كهنوف على وقع أقدام و همهمات وأحاديث غير مفهومة جحظت عيناه و هو يشاهد أمامه مجموعة من طوال القامة شعرهم و لحاهم طويلة ، يجلسون في نصف دائرة ، و هناك بالقرب منهم على صخرة مرتفعة يقف رجل بهي الطلعة مشرق الوجه ذو صوت شجي . عندما يتحدث ذلك ينصت الجميع فيصل صوته كماء رقراق وكنسيم عليل .

يتذكر أنه سمعه يقول لهم: ((المجد للرب في الأعالي و للإنسان المسرة و على ا لأرض السلام)). لقد قال لكم الأولون : " لا تزن ِ ، أما أنا فأقول لكم إذا أرادت عينك أن تنظر لامرأة و تشتهيها نفسك بالحرام فاقلعها و عش بعين واحدة خير لك من أن يلقى جسدك كله في النار". لقد قال لكم الأولون لا تسرق الحق ، و أقول لكم إذا أرادت يدك أن تمتد إلى ما ليس لك فاقطعها و عش بيد واحدة خير لك من أن يلقى جسدك كله في النار .. اذا أراد أحد أن يأخذ ثوبك فأعطه إزارك ، إذا لطمك أحدهم على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن ، أحبوا لاعنيكم ، باركوا مبغضيكم ؛ لتنالوا بركات أبي الذي في السماوات " شعر كهنوف بالأمان و بروحانية و طمأنينة فأراد أن يقترب من الرجل على الصخرة فخانته ساقه فوقع على الأرض صارخا متألما .

يتذكر أنه في هذه اللحظة هبط الرجل من على الصخرة و اقترب منه بهدوء و جلس إلى جواره واضعًا يده على صدره و هو يقول : " لتملأ قلبك بالإيمان و عقلك باليقين " . قال كهنوف : " من أنت يا معلم؟ " قال : " أنا أبن الإنسانة . أنا أبن صاحبة المحراب. أنا من باعني يهوذا لليهود بدراهم معدودات . "

قال كهنوف : " أنت السيد المسيح عيسى ابن مريم عليك سلام الله يا سيدي يوم ولدت و يوم تموت و يوم تبعث حيًا آمنت بك نبيًا مرسلاً. و أراد أن يقف فمنعه الرجل من الحركة و هو يمسح على صدره و وجهه قائلاً : " إيمانك ويقينك سيشفيانك " . استيقظ كهنوف من نومه و هو يتصبب عرقًا و مازال صدى الصوت في أذنيه و أثر اليد على صدره . تحسس جسده و يده و رجله وأضلاعه.. كان قد شفي تمامًا .

إلى جواره امرأة شقراء في نهاية العقد السادس من عمرها كانت تنظر إليه و هي ترسم الصليب في حركة تعبدية غير مصدقة لما تراه ، قال لها : " لماذا أنت هنا لوحدك سيدتي؟ "

- قالت له : " بعد ما حدث لك بالأمس و لما أدخلوك إلى هذا المكان و قدموا لك بعض الإسعافات الأولية و بعض المهدئات ، لم نستطع تركك لوحدك و أنت في تلك الحالة فبقيت إلى جوارك و ذهب الجميع و زوجي معهم ليأتي لك بالإسعاف .كنت مصابًا بعدة كسور و الكثير من الجروح ، بعد أن أعطوك بعض المسكنات و ذهبوا كنت تتصبب عرقا و تهذي بكلام غير مفهوم طوال الليل ؛ بينما كنت أنا أجفف عرقك و أضع الكمادات على جبهتك إلى أن غلبني النوم .. كل ذلك أمر طبيعي ؛ لكن أن أستيقظ لأراك تقوم بتمارين تعبدية و أنت بكامل صحتك ؛ فذلك ما ليس طبيعيا و لا مقبولًا فماذا حدث ؟."

- أجابها : " لقد رأيت في منامي السيد المسيح عيسى بن مريم و حواريه في مكان ما من هذا الجبل و هو الذي شفاني بإذن الله ."

- " آمين " .

- " لقد صدق الجميع هذا المكان مبارك و محفوظ بقوة الله. "

- " آمين ". أعطته خبزا و قليل من الجبن و العسل ، " تناول هذا قبل أن نغادر المكان . " تحركا معًا عبر القطار الكهربائي بإتاحة سفح الجبل و هناك وجدا زوجها و عددًا من الأطباء وصلوا لتوهم على متن عربة الإسعاف ، شكرهم جميع ًا على نبلهم وسط ذهولهم .. كانوا غير مصدقين ما يحدث. ركب إلى جوار سائقه مخاطبًا إياه " عد بنا إلى الفندق بسرعة ، أريد أن أرتاح قليلا قبل أن أتوجه إلى بيت لحم ، كم أنا متشوق لزيارة كنيسة المهد . وجد إجراءات أمن مشددة عند أحد مداخل المدينة كما وجد الكثير من الناس بأزياء مختلفة كان البعض منهم يحمل صلبانًا كبيرة أدرك أنه موسم حج المسيحيين إلى كنيسة

المهد .

اختلط بالناس .. سار بينهم ، و كلما اقترب من الكنيسة كلما اشتد الزحام كان حفلا مهيبا ، ذلك الذي شاهده .. كان كلما نظر إلى الكنيسة و زخارفها يحس بأنه قد شاهدها من قبل بل إنه أيقن بأنه اشترك بنفسه في بنائها . أخذته الذكريات بعيدا إلى زيارته الأولى للمكان عندما قدم مع وفد من حكماء فارس يحملون الأموال و الهدايا للإمبراطور " هيرودس " مباركين له ميلاد ملك اليهود في بيت لحم طالبين الإذن بزيارته و تقديم الهدايا و النذر. إنه يتذكر كيف أن الإمبراطور إذن لهم و في نفس الوقت جعلهم تحت رقابة شديدة زارعا في طريقهم العراقيل ؛ كي لا يتمكنوا من زيارة المولود الذي دلت عليه نجومهم . ظل مدهوشًا بتلك الذكريات ، التي تعود إلى آلاف السنين . سأل نفسه بصوت مسموع " من أكون؟ كيف أتذكر كل هذه الأحداث ، بل كيف يمكن أن أكون مشاركا فيها؟ "

و هو في دوامته تلك ، تمكن من الولوج إلى داخل الكنيسة و اتخذ مكانا للجلوس و ذكرياته تتقاطر تباعا. إنه يعلم أن الإمبراطور أرسل جنوده لقتل الطفل الذي ولد حديثا في بيت لحم .. علم كيف تمكنت أمه من الفرار به غربا لفترة زمنية معينة ثم عودتها به و قد أصبح شابا. لطالما قال إن هذه الأشياء لم يطلع عليها في كتاب ؛ بل كنت جزءا منها ؛ لكن كيف يمكن أن يكون هذا. إنه يتذكر أحداثا و كوارث تعرضت لها الكنيسة عبر العصور ؛ فلقد دمرت على يد الثوار السامريين و غيرهم من الغزاة . يتذكر جيدا أنها نجت من الخراب و التدمير على يد الفرس الذين غزو البلاد ؛ فقد دمروا كل الكنائس و المقدسات إلى كنيسة المهد و أمارة ذلك وجود قطعة من الفسيفساء على جدار الكنيسة في الواجهة الغربية رُسم عليها ملوك المشرق من المجوس بزيهم الفارسي و هم يسجدون للطفل و يقدمون له القرابين . تذكر باعتداد بالغ دخوله المدينة مع خليفة المسلمين الفاروق و كبار الأساقفة . و الاستقبال المهيب الذي حظي به الخليفة من أبناء المدينة الذين كان على رأسهم بطريق الروم الارثوذكسي الكبير " صفرونيوس" الذي استلم ((المعاهدة العُمَرِيَّة)).

كان كهنوف بنفسه حاضرا ـ و بأسماء مختلفة ـ كل الأحداث التي مرت بها كنيسة المهد عبر العصور ، وشاهدا عليها بل و جزءا منها ببساطة لأن روحه كانت تتناسخ و تنتقل من شخص إلى آخر و مازالت كذلك . استفاق من شروده ذاك و أخذ يجوب المكان وسط زحام خانق و هو يردد أريد أن أصلي في بيت المقدس .

الجزء الثاني

-1-

خطة العذراء

في نقطةٍ ما، تصبح السعادة مثل العذاب ..!! .. المسكين ُ، كيف له أن يعرفَ أنه سيموت اليوم.. ؟! الماورائيات هذه، لا يتسع لها عقله ، فقط بإمكانه تأويل ما تراه عيناه بعد أن يكتظ جسمه بالكثير من الألغاز، يُخرس نفسه كل مرة ٍ بتفسير مقنع لما يدور حوله، تنقلاته ، تتابع الأحداث من حوله ، تداعيات تقلصات معدته ، ...

بينما كان يغرقُ في نفسه ، لمحت عيناه - هذه المرة - جموعًا تتقدّم ، حناجرهم طويلة كأعقاب النخل ، يعلو الهتاف ، يقتربون منه.

- " يا الله هذا لهيب القدس يلفح وجهه روائح المسجد الأقصى تتخللني , ككائن هوائي ، تنخر أنفي ؛ و لكن من هؤلاء ؟ وما هذه البقعة المموهة أعلى رؤوسهم ؟ و لمَ هم متشابكي الأيدي بهذه الطريقة التي تشبه الجدار الممتد العالي ؟! .

يُرّجٌ بجسده الذي أخذ في التعملق حتّى تساوى بأطوالهم ، يهتف كهتافهم بشكل غريب - على الأقل بالنسبة له - ، حنجرته أخذت تطاول حناجرهم .

من بين كل تلك الجلبة ، يلعلع صوت مميت ، تتفرق الجموع ، البعض يطلق أرجله للريح ، و البعض ينطرح محدثًا دويًا مخيفًا .. يسلم جسده العملاق للريح مثلهم ، يشعر بخطواته تتسع أكثر فأكثر ، إنه يطوي المسافات تحت قدميه ، و في منعطف شارع عتيق ، يستسلم للإنهاك ، يلقي بجسده على صخرة محدودبة قد قبعت هناك كأنها تنتظر أمرًا ، تسقط نواةٌ لزيتونة بجانبه .. ينظر للسماء إنه طير انتهى لتوه من أكلها .. لا غريب ، إنها بلاد الزيتون .. و عيناه تنضحان بالكثير كأنما يناشد الطير لتجد له مخرجًا مما هو فيه .

على التلة المحاذية ، بشرية تشبه العذراء ، تحتضن طفلها ذو الوجه الملائكي، انتبه َ إليها بعد أن سمع هميم نحيبها ، تلمّس ذعرها ، حاول الصعود إليها ، شيء ما من الداخل يثبط حركته و يشده إلى مكانه .. كأنما يعرفها . ثمة ما يربط بينهما ، لا يُعقل أن السماء تعقِد الأشياء بين البشر هكذا جزافًا ..!

الأمر أصعب من أن يفسر بالنسبة لـ" كهنوف " .

- " السلام عليكم ! "

- " و عليكم السلام .. !، هل جئت منجذباً إليّ كالبقية؟! "

حركة عفوية ، يحاول بها إخفاء البعثرة التي خلفها سؤالها . تستدرك :" لا لست

أنا، لم أعد أنا من أجذب الناس، بل هو شخص أخر .. سر و ابحث عنه . " . وقع سريعًا ، الغرض أن تحادث القادمين حتى يقِفوا في تقاطعٍ معين على الأ رضية أمامها

ثم تبدأ المرحلة التالية ..

-2-

في البُعد المَطَري

الأرض تهتز تحته ، و أصوات حفر و نحت، يتردد صدى صوته مسمِعًا الكواكب :" يا الله أين أنا ؟ لابد أنني فوق ردم الصدفين ! و ما هذا الذي يموج في قلب الأرض من تحتي ، هل أذن لهما بالخروج ؟ لا لا لابد أنني أحلم " .

يشتمُّ رائحة عطرية قوية تشبه رائحة عود هندي ، و من غبشة عينيه ، يتراءى الرجل الأخضر، مقبلا ً عليه بعمامته البيضاء يلتحف لحيته و في يده مسبحة ، يعلقها في عنقه لتتدلى كقلادة عظيمة، يتمتم بكلمات لا يفهمها ثم يقفل راحلًا .

يتبعه كهنوف .

- " أنت أيها الرجل الأخضر .. لحظة " .مستوقفًا إياه ، يُكمل حديثه : " تبدو غريبًا و ضائعًا مثلي! " .

- " لا ..لست غريبًا .. بل هذه الأرض الجرداء غريبة .. هذه الدماء أبدتني ضائعًا. "

- " من أين جئت؟! "

- " جئت من كوكب المطر .. ولا أدري كيف انزلقت لهذه الأرض التي ترتوي بـ الدماء لا بالمياه "

- " لا يبدو أنك من هذا الزمن "

- " نحن نسير في البُعد المطري .. الأمطار وفيرة و الطعام متوافر للجميع و لهذا السبب لا أحد يقتل الأخر "

- " الطعام أمر نادر في هذا المكان "

-" لهذا يتقاتل الناس، كوكبكم بشع بشع! "

-" أوَ تمارسون الزارعة "

- " في كوكبنا ، الأمطار الوفيرة تنبت الأرض من كل نوع . الجزرة كتلك الصخرة

التي تتجاوزك طولا ً، و التفاحة بحجم قمركم.. ! لا نحتاج للزراعة "

-" ادًا ماذا تفعلون؟! "

- " نمارس فنون الحب .. كل يوم نبتكر طرقًا جديدة لحب بعضنا البعض "

-" يبدو ما تقوله حلم بالنسبة لسكان هذا الكوكب ! " .

- " نعم .. بما شهدتْ من قتل و دمار يبدو بالنسبة لهم كحلم ، و بالنسبة لي يبدو ما أشهده كابوس يجب أن أستيقظ منه الآن .. إلى لا لقاء ؛ سأحاول البحث عن وسيلة للعودة إلى بُعدنا "

- " الى اين ستذهب؟ "

- " هذ الكابوس المريع ..! سأحكي للقادمين كم هو مخيف و كارثي هذا البُعد! "

تُفتحُ كوة في السماء، تبتلعه - الرجل الأخضر - .

كي يخرسَ " كهنوف " ضجيج عقله يجب عليه أن يقول عن هذا أنه هراءٌ مرقَ من بُعد آخر، و أن الأمر لا يعني هذا الجنس البتة ، و إلا فيجب عليه خوض غمار كل تلك ال." لم ٓ و أخواتها " إذ تتهاوى فوق رأسه ..

- " هراء " و مضى في طريقه .

بعض الهراءات بارعة جدًا في التهام الوقت ؛ لكنها في الحقيقة تفشل أن تبدد أصوات المَعِدة من الداخل، الأمر يزداد سوءًا مع مرور الوقت ..!!

يبحث عن شيء يلتهمه .. خطوات تترنح .. نظره يرسم له معالم كثيرة للطعام لا معالم للطريق ... شعر بألم شديد، ليس وجع جوع هذا ..!! تبينَ لاحقًا أنه سقط في عمق قبر .

في قاع القبر يُفتح له باب ، ينظر إلى ما وراءه . دماء بألوان مختلفة ؛ بعضها مازال يسيل، جثث منتفخة، و أخرى متعفّنة ، و غيرها تناشدُ الموت بلهفة ، أجزاء متناثرة ، رائحة قوية للموت تلاحقه ، ارتعدت فرائصه ، نشف ريقه ، تصلبت دمائه ، تصبب عرق كاد يغرق فيه ، حاول الهرب ؛ لكن هيهات و التغيرات الجسدية الجديدة لديه تحتم بقاءه بلا سيقان ..!!

نهض أمامه بقايا إنسان ، ترنح محاولا ً الإمساك به ، تراجع للخلف متعثرًا ببقاياً جسده المتناثر ..

- " هذا أغرب ما رأيته كيف يكون على أيديهم النجاة و هم غارقون في دمائهم، أهوَ العذاب في الدنيا و الآخرة أيضاً؟!، في هذا المكان، رجال و نساء؛ اختلطت لحومهم . بعضهم يجر أمعائه و البعض يجر عينيه ..!! " .

منظر مفزع - كهذا - دفعه للهرب بكل ما أوتي من قوة غير آبهٍ بما أمامه. اصطدم برجل لا دمَ ملطخٌ عليه و لا أمعاء ، يرتدي الأبيض .

- " تبدو ملاكًا ..!! باستطاعتك أن تعيدني إلى الدنيا؟! " .

لا عجبَ من سؤاله ف." كهنوف " لم يجد حتى اللحظةِ ما يثبت أنه حي ، و لم يستطع إثبات أنه ميْت ..!! كأنه علِق هناك بالمنطقة الفاصلة بينهما تمامًا ..!!

- " لست ملاكاً ، أنا مثلك لكني أتيتُ من المدخل الخلفي ؛ حيث توجد حياة جميلة ، و بهية ، و كل شيء فيها مجاب ! " .

- كهنوف : " سأدخل إليها و لن أغادر؛ فهي ما كنت أبحث . "

يضحك الأبيض ضحكة تخرس صراخ المختلطة لحومهم .

- " قلت نفس الشيء قبلك ، حين أردت الدخول ؛ الآن كما ترى أغادر بمحض إ رادتي ! "

-" تغادر؟! " .

- " لا تتعجب ؛ فعَيش نمطٍ واحد من الحياة مقرف جدًا " .

- " مقرف ..! السعادة التي أنت بها مقرفة ؟! " .

- " نعم .. كما العذاب الدائم مؤلم السعادة الدائمة أيضًا مؤلمة " .

- " مؤلمة؟! " .

- " الدنيا محطة اختبار، تعدد الألوان فيها اختبار عليك أن تجتازه لكي تعيش في ظل لون واحد ...! " .

و لا يمكن أن أنعم بالسعادة إلا إذا اخترتها أنا و اجتهدت، و سعيت إليها، و إلا فليس لها معنىً أو مذاق ..!

- " لهذا السبب تغادر السعادة التي جاءتك بلا جهد؛ بحثًا عن السعادة التي تأت بعد جهد " .

- " نعم سيكون لها مذاق و معنى " .

- " وأين يبذل الجهد؟ " .

- " سؤالٌ غبي ، الجهد مع الله ، سأغادر. " و تقدمه الأبيض في الخروج .

اتضح و هما يسيران أن الإرشادات مكتوبة ، تكاد تنطق ؛ غير أن الألم الذي ألمّ ب." كهنوف " و الفزع ، جعلا منه غيابًا يتنقل بين المحطات .. يجاهد قليلا في

الخروج من القبر، يتعثر؛ لكنَّه يصل لسطح الحياة . يتناهى إلى سمعه أصواتاً تنوح؛ نياح ثكلى ، ينتابه الفزع يكاد قلبهُ يغادره من شده صوت عذابِ حمامة تحلق في السماء بطريقة غريبة . رفع رأسه ، كانت ذات الحمامة التي رآها سابقاً ؛ بيضاء ، لها عيون الميت الحي يظهر على عنقها جرح ، تسيل منه الدماء ، تغسلها دموعها التي تتلذذ بشربهما شجرة الغرقد فتنجب ثماراً ستصبح بعد سبعين خريفًا بشرًا يتقاتلون لأتفه الأسباب ..!!

تضع الحمامة أقدامها في الأرض و تخبره :

- " الكل عاجز عن تخليصي مما أعانيه ؛ لكن بقي لديّ أمل وحيدٌ بجماعة سوف تأتي في زمن لا معلوم ؛ يكون على أيديهم نجاتي . " .

أخبرته الكثير عمّا سيصادفه، يودعها كهنوف و يمضي ؛ ليصل إلى مأربه الكامن في القدس ..

* * *

الفصل الخامس

-1-

واقعٌ مزر

بقي في حيرةٍ من أمره يسأل نفسه ، كيف لعرب الزمن القادم أن يتجهمهم هـ َم ّ ُ العبور ؟! من أرضٍ الى أرض ، و غدا يقلبُ كفيهِ العاريتين ، إلا من غبار الرحلةِ المرهقة . ينظر نحو عفريت قابع على الحدود ، و يود لو أنه يمتلك القوة و الشجاعة ، كي يخترق جسده المرعب بالموت ؛ ليمر من دون أن يواجه كل ذلك العذاب الذي لاقاه قبلًا ؛ لكنها بقيت مجرد أمنياتٍ بلا تحقيق ، و كأي حلمٍ يراوده ، أصبح يفكر لو أنه مكان ذلك العفريت الذي منعه من العبور و بات يتخيل كيف أ نه كان سيترك الحيارى و النازحين من أوجاعهم يمرون بسلام .

كل شيء تركه خلفه بات يعشعش في ذاكرته بات كل الوجوه ، و كل تلك الأحلا م ، و كل ذلك الخراب الذي تركه خلفه يشكل جربةً من الإرهاق النفسي لم تكن بباله يومًا أن يمر بها . ها هو ذا يقف بين المنتصف من رحلته ، لا شيء جديد ، سوى تغيّر الوجوه و الألسن ، وإلا فكل شيءٍ يشبه كل ما تركه خلفه ؛ نفس الحيرة ترتدي وجوه المارة ، نفس الألم ، يختزل كلماتِ من بات يصادفهم في طريقه المحمومة بالأسى . ذلك الحلم الذي بدى له كأنه صمتٌ يرتدي بياض الكلا

م ، ليسرد لـ كهنوف، كل قصص الغياب و الأسى التي يخفيها في كل مساماته .

يتلفتُ حوله .. لا يجد سوى العراء سوى الصمت ، سوى الوجوه الشاحبة ، سوى الفراغ في المدى ، سوى حيرته التي لم تفارق وجهه .. يمد يده ليمسح الغبار العالقَ في وجهه ، بتثاقلٍ يتثاءب معلناً بداية رحلته الى حيث لم يحسب ...

في طريقه المملوءة بحيرة الغياب ، و نعاس التعب ، و تعثر الوجهة ، يصادفُ عرباتٍ صغيرةً مملوءة بأنواع الفواكه . أربع عربات يقف عليها شيخٌ ناهز السبعين عامًا. يقترب منه ، ينظرُ العجوزُ في وجهه ، مستغرباً من مظهره و شكله الذي بات بلا تنسيق . يمد كهنوف كفه يباغت الشيخ بتحية مرتبكة . يسأله الشيخ : " من أنت ؟! "

- يجيبه كهنوف " أنا الرجل الذي لم تفارقه المحنة منذ أن ركبَ عربة الوقتِ و قرر الرحيل .. "

يستغربُ الشيخُ من طريقة رده تلك، عينا كهنوف تتجول بشهوةٍ مفرطة بين كل تلك الفاكهة ، المرصوصةِ بإتقان ، يمضغ صمته و يمشي في طريقه ، و هو يفتش في جيوبُه المهترئة ، فلا يجد سوى الخواء ،. داخل ذلك المعبر الذي بات كأغنيةٍ ملت طقوس الترداد . يجوب كل خطواته معلناً بداياتٍ لخسوفِ صوته المتعب . في نهايةِ الشارعِ المقابلِ له ، منزلٌ يحترق ، و نساء تصرخُ و أطفالٌ يلتهمونَ نهاياتهم ، بتلك الجثث المتفحمة أمامهم . يصرخون ، و يرقصون حول تلك الجثث ، النساء نصف عرايا ، جلودهن تومضُ بالرعب ، يصرخن ، و يصرخن، و لا شيء ينبت في أفواههن سوى الفناء .. الأشلاء أمامهن مبعثرة ، يحاولن أن يجمعنها ، و كلما جمعن تلك الأشلاء ، تطايرت حولهن لتشتعل نارًا سوداء ، و لها دخانٌ يلتوى ، و ينجب الفراغ ...

-2-

بتعويذةٍ واحدة

اقتربَ منهم كهنوف ، صرخَ طفلٌ لامست يدا كهنوف يده اثناء اقترابه بلا قصد منه . عيناهُ تدورُ في كل اتجاه ، يتلفتُ يمنةً و يسرة ،و كل شيء حوله يبدو مرعبًا .. وضع بينه و بين كل ذلك الذي أمامه حاجزاً من الصمت و من التعجب .. و كأنه في حالةِ صدمةٍ شلت تفكيرهُ تمامًا .. بطريقةٍ غريبة ، كانت تلك النساء الثكالى ينظرن إليه ، و كلما سقطت أعينهن في وجهه ، بدا له كأنه في بئرٍ مليئةٍ بالرعب و الخواء و السواد ، و ليس فيها سوى الظل الذي يحمل الشر و الموت و كأنهن يمارسن عليه السحر، أو يُلقين في وجهه تعاويذَ خرساء .. ما زال يهوي في قعر تلك البئر، و يرى نفسه منقسماً الى أربعة اجزاء ، كل جزءٍ منه ، يـ ُنجب

، يذهبُ في اتجاه ، ويصطدم بجدارٍ من الفزع ، فيعود لوعيه ، ليجد نفسه مازال واقفاً في ذلك المكان .. ، ينظرون إليه و كأنه كائنٌ غريبٌ أو شيء لم يرين مثله قط . شعرَ بتلك النظراتِ و كأنها و خزاتُ تنهشُ قلبه المشدوه من كل ما رآه حوله .. قرر الابتعاد بهدوء ؛ لكنه لم يفلح كما كان يرجو .. و إذا بالجنود القادمين من بين ذلك الركام المتفحم يلقون القبض عَلَيْهِ و يأخذونه مع باقي الأسرى ، يصرخ و يصرخ، و لكنهم بطريقةٍ غير إنسانية يقيدون يديهِ ، و يضعونَ الغطاء السميك على رأسه ، و يقتادونه مع كل أولئكَ الأسرى .. كانت تلك السلاسلُ التي قُيدتْ بها يديه ، تصدرُ أصواتاً غريبة ، كان كهنوف يحاولُ أن ينصت لكلامها ، كلما حاول الإنصات ، أحكمت قبضتها على يديه العاريتين .. فجأةً ، تتحولُ تلك القيودُ إلى أفاعي تحاول نهشه ُ ، يسمعُ صوتها و هي تقول : " لماذا خرجت ، عليكَ الرجوع " ، يضطربُ كهنوف ، يصرخ، ينادي ؛ و لكنه لا يفلح في النجاة ، إنها تغرزُ أسنانها في يديهِ ، يشعر ببرودةِ الموت تدبُ في جسدهِ المتعب ، لكنه يحاولُ الخلاص ، يغيبُ عن وعيهِ ، ليتراءى له سورٌ مدينةٍ شاهق ، وهو يتدلى من أعلاهُ إلى أقصاه ، باحثاً عن مخرجٍ من كل ذلك الخوفِ الذي احتدم به ؛ و لكنه سرعانَ ما يعودُ إلى واقعه المُر، ليجد نفسه لم يزل مقيداً ، يتحسس القيود ، فيشعر أنها عادت سلاسل مزروعةً في جلده الهش ، بقي يصرخُ : " أين ستأخذونني؟ ، لم آت هنا من أجل أن تأخذوني هكذا ؟! "

و كأن الدنيا لمعت بروقها فجأةً ! ، صفعةٌ على وجهه كانت كفيلةً بإسكاته .. من بين أولئكَ الأسرى ، كان هنالك شابٌ يقهقه بطريقةٍ غريبة، جعلت كهنوف ، يستحضر سمعه و ينصت جيداً لتلك الضحكة التي لم تكن مناسبةً في رأيه ..

- " ما الذي يضحكك أيها الأحمق،؟! " يصرخ كهنوف و هو مربوط العينين معصوب اليدين .. أجابه الشاب ، قائلاً : " سوف يعيدوننا الى أبقار و أغنام ، بتعويذةٍ واحدة، سوف نعود ماشيةً تعلف خلسةً من زروعِ الفقراء.. " و يرتفعُ صوته بتلك القهقهات ، التي كلما ارتفعت كلما زاد جنون" كهنوف" !! فجأة اشتعلت العربة ، و غدت حرارةُ النار تركض في كل اتجاه ، الأسرى يصرخون ، أصواتُ انفجارات تدوي ، و الجنود يموتون واحداً بعد الاخر.. يرى كهنوف نفسه قد زال عنه ذلك الحاجز السميك الذي كان يغطي عينيه . يداه المعصوبتان قد تحررتا ، كل شيء حوله غدا بلون الدم و لا لون للدم في عينيه . الشاب الذي كان يقهقه تحول فجأةً إلى لهبٍ أحرق كل شيء حوله ، بدا لـ كهنوف ذلك المنظر و كأنه في كابوس في أحدى نوماته الأزلية .

لم يعد يدري : أيفرح أنه تحرر من قبضة اليهود ، أم يعجب من كلما حدث معه و هو في أوجِ بؤسه و حزنه ينفض عن رأسه غبار تلك المحنة ، و يمضي قاصداً المجهول ، باحثاً في كل تلك الطرقات التي مر بها ، عن بقايا أملٍ يوصله بما ينشد و يبحث عنه و لم يجده بعد.. لا شيء سوى المجهول . لا شيء سوى الغبار ، يبوح له بأسرار رحلتهِ تلك .. يمشي بين كل تلك العيون التي باتت كـ

المنفى , بين أرصفة الدخان المتصاعدة من كل تلك المنازل المحترقة.. عيناه تشبهانِ عصفورين وقعا من على علو، ترتعشان و تدوران بلا أي حيلةٍ منه. يمشي في صمتٍ ضبابي ، مبهم الأسئلة ، فاقد الأجوبة ..

-3-

الحالِقة

على الرصيفِ المقابل ، امرأةٌ مسنةٌ تجلس ببؤس، في جانبها شيءٌ ما ملوفٌ بعباءتها السوداء التي نزعتها ؛ لتخفي ذلك الشيء .. توقف كهنوف متعجباً متسائلا ً يقف على رأس تلك العجوز ، ترفع عينيها و تنظر إليه ، عاد مفزوعاً للخلف ، و كأنه شبحٌ - قام من مقبرةِ موتً ى - ينظر إليه . قالت له بصوتٍ غليظ : " من أنت وماذا تريد ؟ إن كُنتَ جائعاً ؛ فلدي لحم مقدد ! "

لم يزل واضعًا كفيه على عينيه من هول منظر عيون تلك العجوز ، عيناها محمرتان ، تغليان دمًا .

- " لا لا لا أريدُ شيئاً ولستُ بالجائع " بصوت مرتعش .. لكنه كان على غير ما يقوله ، و هو يضغط على معدته بقوة توحي حقًا بأن بعضَه سيأكل بقيته من شدةِ جوعه .. فتح كهنوف عينيه ، و هو ينظر نحو ذلك الشيء الممدد بجانب تلك العجوز . و هي تنظر إليه و تبتسمُ فتنفرجُ شفتيها عن أسنانٌ طويلة صفراء يشوبها السواد .. و أخذت ذلك الشيء الممدد في جانبها ، و كهنوف ينظر و الرعبُ يملأ قلبه ، و الأسئلةُ العارية ، تدور في رأسه المتعب ..

- " أتراها كريمةٌ لذلك الحد الذي يجعلها تقاسمني ما تأكله؟ " .. لا شيءَ غيرَ الا ستغراب يملأ رأسه .. لحظتها مدت العجوزُ كفيها ، إلى ذلك الشيء الملفوف .. يطيلُ كهنوف النظر في وجهها ، و ملامحهُ تبدو في حالةِ تقزز ! تفتحُ العجوزُ ذلك الشيءَ ببطء ، و عيناها ترمقانِ كهنوفَ بنظراتٍ مليئةٍ بالشر ، تغليانِ عيناها بشدة ! فجأة يرى كهنوفَ أمامه جثةٌ لطفلٍ قد تفحمت، و تعفنت . يصرخُ هاربًا مما رأى ، تناديهِ العجوزُ : " ارجع، ارجع ." .. يسقطِ متعثراً بحجرٍ صغيرٍ أمامه ، يصرخُ ذلك الحجرُ : تباً لك و لماذا خرجتَ من هناك، " ارجع ، ارجع." ينفضُ كهنوف عن نفسه الغبار، يقعُ ثانيةً ، ينهضُ أخرى، صوتٌ ما يناديهِ من الأعلى " لا شيءَ هنا ستجدهُ ؛ فارجع ارجع !! " يتلفتُ حوله بقلق ، يمدُ يديهِ إلى السماءِ منادي ًا :" يا رب ما الذي يحدث؟! " تجيبهُ غيمةٌ في الأعلى " إنها الحالِقة يا كهنوف.. " ينظرُ لتلكَ الغيمة ، و إذ بها تتلوّنُ إلى شيءٍ أحمر، يصرخُ هارباً " يا اللّه " ! تمطرُ الغيمةُ دماً ، يملأ المكانَ الذي كان يحمله. يضطربُ و لا يدر، إلى أين يذهب ! شيءٌ ما يدفعهُ للأمام، لم يدر ما هو، يحاولُ التلفتَ فلا يستطيع .. يقعُ على وجهه ملطخاً بوحلِ بركةٍ قديم ، تتصاعدُ منهُ أبخرةٌ برائحةِ الموت. حاولَ

النهوضَ لم يستطع .. حاول الصراخ فلم يستطع. ينظرُ فِي عُمْقِ تلك البركةِ الموحلة ، يرى دماءً تسيل من أجسادِ متعفنة .. يرى رؤوسَ الأطفال تتدحرجُ مسرعةً إلى الأسفل .. يرى رفاقهُ الأسرى ، و قد تحولوا إلى سورٍ عازل . شيءٌ ما يدفعهُ للأعلى ، يقذفُ به خارجِ ذلك السور، جاثماً على ركبتيهِ ، كل شيءٍ حوله أصبح صحراءَ جرداء ، تفورُ بالخواءِ و السراب . و هو يجدُ نفسه خارج سور المعبر ، يرافقه المجهولُ من جديد ، ينهضُ من جديد ، يقررُ الرحيلَ من جديد .. يلوحُ له الافقُ فاغراً صمته ، يتدحرجُ الوقتُ من بين قدميه ، و ها هو من جديد يرسمُ ملامحَ رحلتهِ بعينينِ أذبلتهما الخيبة .. بروحٍ أثقلها التعبُ و الفقد ، يحدثُ نفسهُ متسائلا ً: " لماذا لم يجد فِي أي مكانٍ ذهبَ إليهِ ذلك المنشودَ الذي خرجَ قاصداً يبحثُ عنه؟ لماذا أصبحَ الأمانُ بلا دليلٍ فِي كل اتجاهٍ وطأتها قدماه ؟!"ينظر الى الأفق ، و لا شيء فِي الافقُ الذي أمامه ، سوى الفراغ .. الرياحُ تركضُ من حوله ، يسمع لها لهاثاً غريبا ، و إذا بها تتحول الى برودةٍ عامرة ..

* * *

الفصل السادس

الجزء الأول

-1-

" سانت كاترينا "

- " باستطاعتك أن تدْعُني " فنوئيل " .! " .

- «حسنًا " .

و أومأ - " كهنوف " - برأسه بشكل ٍ يوحي بعدم الاكتراث، بعد أن أوقف هو الأ خر َ عن إسدال قائمة بتفاصيل تسميته و سبب تواجده في " سَيناء " .

قدمه اليسرى التي صارت تتقلص شيئًا فشيئًا، هي أكبر ما يشغل حيزًا في رأسه مذ غادر فلسطين.

- " سيدي هل مررت ب" رَفَحْ " وقت الغروب؟ " .

أحس ّ َ كهنوف بالدهشة تنهش وجهه، كيف لهذا الغريب أن يعرف التوقيت حتى؟!

- " قل لي، كيف عرفت؟ " رد على السؤال بسؤال.

- " قدمك اليسرى، تتآكل يا سيدي "

و أردفَ، " هناك أسطورة تقول : " أن من يمر بتلك المنطقة في الغروب تصاب قدمه بالتآكل "، أراك تعاني منها " .

- " أصبت َ " و الحسرة تخيّم في وجهه.

- " لا تخف ، أنا ممتن لإنقاذك حياتي، سأحرص على رد الجميل " .

- " كيف؟! " .

قالها و هو يشد جُبّته؛ حرصًا أن لا تظهر العين الثالثة للعامة من الناس، فيرسموا له الظنون.

- " " سانت كاترينا " هناك راهب يعرف علاج مثل هذه الحالات، على أي حال كنت ُ ذاهبًا إلى هناك صباح الغد .. " .

-2-

ردُ الجميل !

الضوء الخافت داخل الغرفة يحرّضك على النوم، متجاهلًا كل أسباب تغيُّر المكان ، و قطيعة الزمان، خاصة بعد أن تأخذ الطريق ضريبتها من قوتك في الصباح. كل شيء معد ّ ٌ للنوم بطريقة غير متكلفة، الرمادي الذي يلف المكان إلا هالة حول الشمعة، الفرُش التي تترك أثر تعرجات الأرضية فوق الجسد ...

بين سيل الأوجاع الكبيرة المنطلقة من أعماق كهنوف و التي تجعله نصف نائم، وخزة صغيرة تحشر نفسها بداخله. !

كهنوف، يفقد نفسه تدريجيًا، بسرعة نسبية و لا تزال كومة من الأسئلة تتوالد بداخله.

- " هل دس ّ َ لي السم بعدما فعلت ُ له من الجميل؟! " .

- " هل كان يبَيّت لقتلي منذ البداية؟! " .

فقط سؤالان هما ما سمحت به الوخزة بالغرق داخلهما، ثم انتشلته بعيدًا.

ببطء شديد، يحرّك كهنوف أطرافه. يفهم أنه لا يزال على قيد الحياة. تبدو صورة " فنوئيل " مشوشة و كأنه يبتسم أمامه.

و قبل أن يبدأ بسرد الظنون، يقاطعه " فنوئيل "

- " كنت َ عالقًا في أنينك كثيرًا يوم أمس، فحقنتك بمخدر كيما تنام حتى الصباح. "

قالها و قد ارتسمت بذهنه صورة له بدائرة تظهر على رأس الشكل التقريبي للملا ئكة في لوحات كبار الفنانين.!

جمع " فنوئيل " حاجياتهما و قصدا " سانت كاترينا " .

-3-

على بُعد أقل من كيلومتر

المناظر حولنا تمتص الوقت بسرعة، لم نشعر بوخز النهار، بدا الأمر و كأن السماء خُرِقَت فتسرب كم ّ ٌ كبير من النهار، الأشجار على الطريق مسنة جدًا، لا عمل لها سوى أن تغتاب بعضها البعض لدرجة أنه يمكننا سماع وقع كل تلك الذنوب ...

- " هل هذا هو الرجل المقصود؟ " .

رجل ملثم إلا عينيه يسأل صاحبه .

-" بالتأكيد! " .

يجيب الآخر من خلف إحدى الأشجار.

يعقد كل منهما لثامه و ينطلقا صوب " فنوئيل " . ببساطة، يقع قتيلًا هذه المرة؛ إذ لم يكن هناك من يدافع عنه مثل المرة الماضية.

عاد " كهنوف " من قضاء حاجته . أحس بمسافة تكفي لردم العالم بين حاجبيه و عينيه من الذهول. الجريمة كاملة، و لا شاهِدَ غير الشجرة المسنة التي سمحت لهما بالاختباء خلفها قبلًا . " كهنوف " يبتلع الكثير من الضياع ..!

كل جهة من الجهات الأربع، تخبره أنها هي الطريق الصحيح لمقصده ..!

يختار الجنوب بطريقة بدائية و يقرر المضي قدمًا ." إن لم يكن لديك هدفٌ تموت لأجله، فلن يكون لديك هدفٌ تعيش لأجله "؛ هي العبارة التي قطع بها ستار اليأس بعدما يئس قلبه لحد ّ ِ أن لا يقوى على اليأس بعدها أبدًا.

بأمتار ٍ فوق رأسه، يحلِّق غراب ٌ صوت نعيقه يزيد من شدة التوتر بداخل كهنوف.

- " لا أمتلك ما يجذبه إليّ! " .

بين لحظات يتقلّب فيها ذات اليمين و ذات الشمال، تصل فتاة بزي الراهبات، جسمها يكاد يختفي بين تلك الملابس السوداء، تتقدم نحوه بخطوات متسارعة؛ الأمر الذي دعاه إلى أن يقول في نفسه : " بها طيش طفولي! " .

من تحت جلبابها، تبتلع دهشتها و تبدد استغرابها سريعًا . تبدأ الحديث معه و كأنها تعرفه منذ زمن!

- " نبرة صوتها ليست غريبة! " يخاطب نفسه." كيف، لم َ، ماذا " الكثير من علامات الاستفهام تعج ّ بداخله حولها، و طريقة حديثها معه.

تزيح شيئًا مما تغطي به وجهها.

الذهول - مرة أخرى - يأكل ما تبقى من شحوب وجهه، الحروف هاربة، الخدر يتفشى في أطراف الجسم. ليس الأمر لكونها دميمة؛ بل لأنها عادت من مكان يستحيل العودة منه - حسب تصوره - .

- " أ..أ ... أأنت ِ المفخوذة؟! " .

تقطّب جبينها بطريقة أنثوية .

- " كيف عدت ّ ِ؟! " .

- " سنفهم ذلك لاحقًا ، هيا يا سيدي ، تفضل صوب الكنيسة " .

أعادت ستر وجهها و مشت خلفه. في الطريق ظلّت شاردة، تنسج لنفسها الكثير من الأسباب بأنه رجل طيب، و أنه ذو فكر متنور ...

لا غرابة في ذلك، فالأنثى هي الوحيدة القادرة على صَكِّ مئات الأسباب لتقنع نفسها بوجهة نظرها..!

تيقن لاحقًا أنهما يمضيان باتجاه الجنوب من " سيناء "، بالقرب من " جبل موسى " كما تقول المفخوذة.

- " " سانت كاترينا "، لا أعرف شيئًا عدا الاسم؟ "

- " يكفيك أن تعرف أن الإمبراطورة " هيلين " من أمرت ببنائه ليحوي رفاة القديسة " كاترين " " .

- " " كاترين "! يبدو الاسم أجنبيًا.! " .

- " يحدث هذا في بلدان عربية " .

قالتها و كأنها ستتخذه مبررًا ما لاحقًا . و أكملت ُ: " حولها تدور أسطورة " .

- " أي أسطورة؟! " .

كان يكثر الأسئلة لعلّه يجد سببًا يستشفّه في قدومه إلى هنا بنية إيقاف مرضه الذي يزداد اتساعًا مع مرور الوقت.

- " تقول الأسطورة : إن القديسة " كاترين " من عائلة أرستقراطية وثنية - ولدت ب. " الاسكندرية " سميت آنذاك " زوروسيا "، و كانت مثقفة وجميلة رغبها الكل لجمالها؛ لكنها رفضت الجميع و آمنت بالمسيحية أثناء اضطهاد الإمبراطور " مكسيمينوس " و اتهمته علنًا بقيامه بالتضحيات للأصنام . أما هو فقد أمر 50 خطيبًا من جميع أنحاء امبراطوريته لكي يقنعوها ولكن على العكس؛ فقد اعتنق هؤلاء المسيحية. و بعد مرور حوالي ثلاثة قرون من وفاة " كاترينا " ظهرت رفاتها المقدسة في حلم أحد رهبان الدير الذي كان قد أقامه " جستنيان " فنقلت هذه الرفاة و وضعت في هيكل الكنيسة بصندوق رخامي بجانب الهيكل الرئيسي و ما زال الطيب المنساب من رفاة القديسة يشكل أعجوبة دائمة وأصبح الدير يعرف باسمها من القرن الحادي عشر " .

- " و ما علاقة هذا بي؟! " يهمس في سره، و قد بدا حاجباه بنحو ٍ يوحي بعدم الاستفادة؛ غير أن شرح القصة ابتلع قدرًا لا بأس به من الطريق إلى الدير .

-4-

" كهنوف "

الخشوع، هو اللباس المشترك لدى الجميع، ما إن تضع قدمك هنا حتى تشعر و كأنك تمشي فوق غيمة من قطن، السيئات - هنا - تتساقط تباعًا . تصل إلى جانب شجرة يلتف ّ ُ حولها الكثير من الخلق ؛ " شجرة موسى " - عليه السلام - التي استوقد منها، الطمأنينة حولها لا تزال مشتعلة. هنا، تتنزل السماء لتغسل خطاياها أيضًا في فناء الكنيسة الواسع، النقوش القديمة، و اللوحات تحدّق بالزوّار و كأنا تصافح قلوبهم متنقلة بين العوالم. لا يجب عليك أن تلمس أي شيء من تلك النقوش؛ فالنبوءات تحكي بأن عقابًا عاجلًا سينزل، كما أنك ستلقى مريم في الآ خرة غاضبة منك ..!!

انشغلت ُ كثيرًا بمطاردة نفسي و هي تتجوّل بين أفياء الدير، و للحظة ٍ نسيت ما جئت ُ لأجله.

-" " كهنوف.! " " .

-" ما زالتْ تحفظ هذا الاسم الهراء " يحدِّث نفسه .

- " نحو اليمين " و هي تشير بيدها " و سأوافيك لاحقًا، ستجد من يقوم هناك بـ الخدمة " .

و بدأت المسافة تقلِّص حجمها .انتظرها حتى واربت إحدى الزوايا و مضى هو حيث أشارت إليه.

ترتص الساعات مكررة نفسها، بدأ يشك في صدق الوقت حين يخبره أنه لا يزال بخير، كل شيء حوله بات شفافًا، لا يشغل تفكيره سوى الأسئلة التي سيرشق بها المفخوذة حالما تصل إليه، و قدمه اليسرى التي صارت ثُلُث َ قدمه اليمنى ..!

تمشي، و هي تحمل بيدها شمعدانًا متوسط الحجم؛ يبدد قِطَع الظلام الجاثمة على المكان إلا من إنارة خفيفة، كأنها إسقاط واجب ٍ لا أكثر َ في الإضاءة .

" طق .. طق " ، أزيز الباب يوحي بدخول فتاة عليه . فعلًا ، من غيرها سيأتي في هذا الوقت. هي، كما وعدته .

روتين اللياقة أخذ طابعه كما هو متعارف عليه بين الجميع ، و قليل من المجاملا ت قبل بدء الأحاديث ...

- " أنت المفخوذة التي صادفتها في العراق قبلًا؟ " .

-" عراق؟! " .

كانت نبرتها الاستغرابية في السؤال، و تعرجات حاجبيها كافية لتخبره بعكس ما ظن ..!

- " كم تشبهينها !، إذًا كيف عرفتِ أنِّي أرغب بالقدوم إلى " سانت كاترين "؟! " .

أخرجَت له نصف قلادة كانت معلقة على نحرها. كلما قرّبَت القلادة منه، يزداد بريق النصف خاصتها، و السبب يعود لتشابه التركيب البلوري للقلادة مع أحد مكونات الحقنة التي حقنه بها " فنوئيل " سابقًا. اتضح له أن فنوئيل لم يكن صادقًا كليًا بشأن الحقنة المخدرة، يطمئن نفسه قائلًا : " " كان يكذب من شدة الصدق، و الحمد لله " " .

في نهاية الأمر، ليست هي المفخوذة، فقط هي نسخة مزورة منها؛ لكن بروح طيبة. هذا ما استشفّه ُ

أخبرَها بشأن قدمه اليسرى، و ما حل ّ بها. أكدَت ْ ما قاله " فنوئيل " حيال علا جها في هذه الكنيسة .

- " بالمناسبة، هل يصِّح لي أن أسأل عن اسمك، و علاقتك ب." فنوئيل "؟ " .

- " ابنته أنا، أنا مبتدئة هنا، قررت ُ تكريس حياتي لخدمة " مريم " العذراء، " فيرونيا "، هذا هو اسمي " .

من جانب الباب و هي تهم بالمغادرة قالت : " سنذهب غدًا في المساء؛ لمقابلة الراهب الذي حدّثك عنه والدي .يبدو أنك شخص محظوظ؛ فغدًا هو يومنا المقدّس؛ نجتمع في الساحة الكبيرة، و نتلو صلاة جماعية، و نطلب من الرب المغفرة " .

و أغلقت الباب وراءها، فاتحةً منفذًا كبيرًا من الأمل ل." كهنوف " بالشفاء . على ما يبدو، أنّ أوجاعه أُذِن لها أن تنعدم . سينام هذا المساء كما لم يفعل منذ زمن ..!

-5-

نصف ُ شيطان

لا شيء يوحي بقدوم الضوء. النهار مشتبه به في مطاردة الأماني، و الليل منزلق بفخ القبض على بقية الأحلام الهاربة - ذعرًا - من فوق الوُسُد .

بُعدان معدِّبان.

لابد من الانضمام لفوج الموتى؛ كي ينام بسلام ..!!

و الزمن هذا مريض ٌجدًا؛ يسعُل في الصباح الكثير من الاستفهامات الباردة - منزوعة الحياة - مدثرًا بها كومة من البشر مائلة أمام مقبرة من زيف.

المسكين، ينتظر أن يحتسي الشاي مع ملك الموت ذات صباح، هذا هو حلمه الذي لم تنته ِ صلاحيته بعد ...

أمامه جسد ٌ حُشِر بالسواد من كل مكان، الإضاءة - كالعادة - لها دور ٌ كبير في زَجِّ الكثير من الشكوك برأسه. انحناءات الجسد، توحي بأنها " فيرونيا "؛ الخصر المتوسط، و الطول الأقصر قليلًا منه، يضاف إلى ذلك قرنَي شيطان، و صوت ُ ضحِك ٍ أنثوي مخيف.

- " يا إلهي، هل يعقل أن " فيورينا " هكذا، تعمل في الصباح راهبة، و في الليل نصف شيطان؟! " .

تقترب منه مع استدارة متباطئة، لها مخالب ذلك الغراب الذي حلّق فوق رأسي سابقًا. حباله - " كهنوف " - الصوتية، لا تسعفه، باب الأمل في الشفاء يتماهى

أمامه، يزحف و يتقلّب هاربًا منها، يسقط أرضًا، يُحِسُّ بألم السقوط من مكان ٍ ما، و يبدأ السواد يلُفُّ كل شيء حوله؛ ليجد نفسه متألمًا تحت السرير. يستعيد منسوب الأكسجين الداخل إلى رئتيه.

- " كان الأمر كابوسًا إدًا.! " الإرهاق هذا يقتله.

يبدو أن " كهنوف " لا تزال به عقدة الشك؛ فهو الضائع في الحياة عمومًا .. بقي واعيًا حتى سرق النوم أجزاءه تباعًا مرة أخرى، و لم يستيقظ إلا على صوت " فيورينا " تدعوه لجولة في الدير.

- " سنستغل وقت زيارة العامة من الناس بأخذ جولة في بقية أجزاء الدير، و بعدها سأتركك؛ فلدينا واجباتنا الدينية اليومية، و سألقاك حينما يحين الوقت المناسب للقاء الراهب هذا اليوم . "

-6-

الإفلات من الوجود

بدا له اليوم حافلًا حسب تصوراتها. أكمل َ ما تبقى من تجهيز نفسه، ثم شرعا في الجولة.

كالعادة، الثرثرة هي السكين التي تُقطع بها المسافات خاصة و أن الدير بهذا الا تساع.!

- " بالمناسبة، ما علاقتك بأبي؟! نسيت ُ سؤالك عن هذا يوم أمس؟ " .

" فيرونيا " و هي تفرك بيدها مؤخرة رأسها، كعلامةٍ تذيب بها جليد البدايات ..

- " أخبَرَني أنه عازم على رد الجميل بأخذي إلى هنا للعلاج، بعدما أنقذته من موت محقق. " .

- " لا تقل لي إنه على حالته مع أولئك الغرباء المتربصون؟! " .

- " لا، قد حُسِم الأمر نهائيًا.! " قالها بنبرة أظهر فيها كمية ً لا بأس َ بها من ا لأسى .

و بشيء ٍ من الأسى على وجهها أيضًا قالت : " على كلٍ، توقع الراهب موت أبي في هذا الأسبوع أيضًا. لم أكن لأعرف أنه توفيَ لولاك " و استغرقت تتذكر مواقف أبوّته التي تفخر بها.

حيّاها أحد المارّة، ردت التحية بابتسامة متصنعة و هي تمسح بكُمّها دموعها الهاربة على خديها.

لو لم يخبرها الراهب بنبوءة موته، لانسكبت الكثير من الدموع، و لضعُف َ منسوب إيمانها بمريم العذراء؛ و لكنها أخذت الوقت اللازم لكل تلك الصدمات مذ تلقّت النبوءة .

- " الأحجار في هذا الجانب، ممزوجة بالطوب والذهب، المداخل كثيرة، كلها تؤدي إلى ساحة التعبد السنوية، مداخلها وُضعَت بطريقة معقّدة كالصمامات ؛ تسمح لك بالدخول، أما الرجوع فيكون من بوابة عملاقة داخل تلك الساحة " " فيرونيا " تسهب في التفصيل.

- " جميل! " و يوزع نظراته بعدل ٍ بين الجدران و المداخل.

بدا واضحًا أنهما يبددان الوقت بين أروقة و مداخل الدير، تصف له هذا بشكل سريع، و تحذره كل مرة يمُرّان فيها بنقشٍ أن لا يفكر بلمسه ؛ كي لا يتعرض للعقاب كما تقول النبوءة. في كل مرة كان يهمهم وراءها و هي تصف أو تحذر.

تدق النواقيس؛ لأداء الواجبات الدينية في الجناح التي تعمل فيه " فيرونيا " .

- " هذا هو " أشارت من بعيد و هي تمضي قدمًا؛ لأداء واجبها الديني. فهم َ - من إشارتها - أنه الراهب المقصود.

استوقفه منظر الراهب و هو يضع ُ رئة ثالثة لصبي ٍ - يعاني من ظُلمٍ في كمية التنفس الداخلة لجسمه - دون أن تسيل من صدره قطرة دم ٍ واحدة.!

- " الرئة الإضافية هذه، من أين انتزعها؟!

يظهر أنه من النوع الذي يغلّف السيئات بالحسنات ليزداد - في النهاية - معدل حسناته بتسعة أضعاف ..! ربما تكون قوة من السماء أو أنه لا يزيد عن كونه ساحرًا يغوي عيون المارّة . "

و الحقيقة، أن " كهنوف " يميل إلى تصديق ِ كون الراهب ساحرًا؛ لطبيعته - " كهنوف " - الميّالة إلى الشك .كيف يسلم نفسه لساحر في هذه البلدة؟! خاصة و أن بلدًا كمصر اشتهرت بالسحرة منذ أيام " فرعون "..!! " كهنوف " ليس في كابوس ٍ هذه المرة، و أشعة الشمس تنفذ حرارتُها إلى جسمه، يفكِر جديًا بالإفلا ت من هذا الوجود، على أن يقع فريسة بيد ساحر؛ يتلاعب بنظام سلامه الداخلي بقية عمره ..!

-7-

الممنوع ُ مرغوبٌ

" قبيل موعد الابتهال بثماني عشر دقيقة.! " الساعة الرملية المعلقة في الفناء

تقول هذا.

منظر ذلك الراهب، يثير في نفسه القلق، يبعثر دواخله حديثة ُ الترتيب مذ دخل هذه المدينة. الإفلات من تواجده داخل الدير، هو كل ما يراه، يسلم نفسه للرضى ببقايا قدمه اليسرى، و يشرع بالتخطيط للهرب، يخبئ نفسه بقرب الجدران الشمعية . و أعمدة الرخام، المتواجدة داخل تلك الممرات معقّدة التصميم . الفسيفساء العربية المحنطة أمامه، كانت ستشي بمخدعه لو ملكت زمام الكلام، فوحدها من ترصد تنقلاته عيناها ..!

ارتأى " فيرونيا " خلسة ً؛ تبحث عنه بعد إكمال واجبها الديني، تريد له أن يحضر هذا الابتهال بأي طريقة .أو بالأحرى، تريد لنفسها صكًا بالغفران بحضوره هو . لا تعلم - هي - عن ديانته الإسلامية، و لم يحدثها - هو- أصلًا بهذا الموضوع، و إنما ظل يجاري الأمر و يحوم حول الحمى .

بينما كان يتخفّى بالاتجاهات المعاكسة لتحركاتها خلف أعمدة الرخام، تلامس يده أحد النقوش التي لطالما حذرته من مساسها " فيرونيا " بحسَب النبوءات. ينزلق مباشرة في حفرة ملساء عمقها أمتار. تتنبه هي لاستعمال نصف قلادتها؛ كيما تحدد مكانه. وجدَت أن القلادة تخبرها أنه في الحفرة، يؤكد زعم القلادة، سماعها استنجاداته الخارجة من الحفرة.

-" المشهد هنا في هذه الممرات يشبه بأبعاد ٍ دنيوية، السير على الصراط في اليوم الآخر، الحلول منعدمة إلا عملك الصالح، و هنا الحلول منعدمة إلا التزامك بعدم المساس " يتذكر قولها هذا الكلام حينما أخذا جولة حول الدير في صباح هذا اليوم.

الدقائق تمضي، و الابتهال بدأت مراسمه، كل الشخوص باتت تشرئب للضوء القادم من جلباب ذلك الراهب. في انتظار أن تقع كسرة ضوء ٍ منه .

عينه " كهنوف " الثالثة ، لا تعمل في الظروف التي يتوتر بها، لابد من قدر باذخ من الانغماس في الوجود و الطمأنينة، و لا طاقة له بجلب تلك الهراءات المهمة ..!

البرتقالي الخافت، الصادر من شمعدانات الإنارة تزيد من حدة التوتر، أكثر مما يُجهد نفسه - ضوء الشمعدانات - بجعلك تتيقن بوجدك .

- " أرجوك، يا مريم العذراء، لا تغضبي في هذا الوقت " تتلو " فيرونيا " الكثير من الصلوات و التقاطعات المشَكّلة للصليب تتوالى بيدها واحدًا تلو الآخر .

تهتدي أخيرًا لحيلة قد تساعدها على إخراجه من تلك العُمّة ِ و حضور الضوء المتجلي بذلك الراهب في الساحة الكبيرة .

ثيابها!

ثياب الراهبات شيء مقدّس هنا، كيف لها أن تفكّر بذلك؟! ما ثمن هذا الذنب الذي سترتكبه؟!

تجاهلت كل الوسوسات المكتضة بداخلها الساعة، و صنعت من ثيابها حبلًا لا بأس به و شدّته حول أقرب عمود من الرخام.

تدلّى حبل الثياب أمام " كهنوف " المشبع باليأس. كأنه حبل الخلاص، أرسلته السماء لإنقاذه.

تسلّق الحبل المتدلي و المعقود من ثيابها التي عزمت أن تحضر بها الابتهال. توارت هي خلف العمود قبيل أن يصعد؛ فجسدها كما عجنته الطبيعة ؛ لأنها استهلكت كل قطع الملابس و هي تعقد القطعة فوق الأخرى و تصنع ذلك الحبل.

" كل ممنوع ٍ مرغوب ٍ " تهمس الطبيعة حولهم حتى و إن كان الأمر لإنقاذ روح، أو دون قصد كما لامست يده إحدى النقوش في الجدار . لئيمةٌ هي الطبيعة في أحلك المواقف، فالسماء أيضًا تشاء ..!!

جمع لها حبل الثياب خاصتها و مضى تاركًا لها بقية الوقت؛ كيما تستر نفسها و تستعيد خصوصيتها، و تصلي كثيرًا لفعلٍ طاهرٍ، عُلِّف َ بذنب ظاهر ..!

-8-

شكرًا " فيرونيا "

شعرَت ْ أنها سددت دين والدها ل." كهنوف "، و هذا ما حملها على المبالغة في التفاني إزاء الأمر. يا لها من ابنة بارّة .! في المقابل، بقدر الخطايا الصاعدة نحو السماء، ظهر الخجل و الامتنان صارخين على قسماته ..!

أي امرأة تلك؟! هل كانت ملاكًا قبل أن تصبّها الطبيعة في قالب البشرية؟! تخطت نفسها في تصوراته، يراها ما تبقى من الإنسانية على وجه هذه الأرض ...

تمكنا من حضور هذه القيامة الصغرى، و إن كانت أسباب كل منهما تختلف في بواطنها. استمعا كثيرًا لنصوص الإنجيل و هي تتلى بصوت ِ الراهب، الموسيقى تقطُر من جدران الدير، أرواحهما طافت في حضرة السماء، الدموع تشكِّل ُ هالة ً حول الحضور، كأنهم سنابل قمح ٍ تدعو لأجل هطول المطر .! هو ممتن ٌ لأ نه نجا و هي تطلب برصيد الصدق خاصتها غفران يكفي ما اقترفت يداها.

انفضّ الخلقُ بأوعيتهم، و قدِمَ الاثنان إلى الراهب . قصّ " كهنوف " عليه القصصَ.

تبسم الراهب، و أخذ يشقّ الهواء بقبضة يديه " يصلي "، و يدعو بكلمات مقدسة من الإنجيل لا يعلمها إلا هو.

بدا الأمر و كأنه سحر مدفون، يحاول فكّ رموزه.

- قال الراهب : " إنه مرض طبقي ..!! " .

ذاتية التآكل بالنسبة لفهمِ " كهنوف " و " فيرونيا "، أمرٌ بمنتهى الحيرة، فلم يستسيغوا بعدُ ماهيّة المرض، فضلًا عن أبعاده الأخرى..! الأمر أشدّ من أن يوصف بالمعقّد لكليهما .!

- " ليس لديك خيار سوى أن تعرفَ ما عليك فعله، أيها الراهب. " بنبرة مبللة بالرجاء.

ربَتَ الراهب على كتف " كهنوف "، مغمضًا عينيه و كأنه يقرأ مستقبلًا قريبًا . نفس الطقوس، و التمتمات لكن هذه المرة بنفَسٍ واحدٍ، و لوقتٍ أطول قليلًا.

- استطرد الراهب ثم قال : " " فيرونيا "، شكرًا لأنك جلبتي لي مفتاح الجنة ..!، سآخذك معي إلى بحيرةٍ في القاهرة " .

- " شكرًا " فيرونيا " لأنكِ كنتِ، لكِ النور حتى ترضَي " فيرونيا " ..! " .

-9-

لأجلِ هطولِ المطرِ

انتظرا مجيء الرياح، و أشار - الراهب - بيده، ثم دخلا في عمقها - الرياح -؛ ليخرجا مباشرة في نفس البحيرة التي زارها - كهنوف - قبلًا.!

- " سيدي، هذه البحيرة زرتها سابقًا - بين العراق و سوريا - !، ألم تقل أننا سنذهب إلى القاهرة؟ ! " سأله فاغرًا فاه، لدرجة أن أخذت تلك الحركة معظم مساحات وجهه !

- " نستطيع التلاعب بأبعاد الزمان، أفلا نتلاعب بأبعاد المكان؟! "

أمر ٌ كهذا، أشبه بالخرافات لدى " كهنوف "؛ لكن لن يخفى على رجل ٍ متدين ٍ مثل الراهب أن يعرف َ متى و كيف تُفتح بوابات الزمان و المكان . كان على " كهنوف " أن يفهم هذا دون أن يخبره الراهب بذلك؛ فأمر الأبعاد بات طبيعيًا لديهم.!

بالنسبة للراهب، تعدُّ هذه المهمة هي الأخيرة التي عليه إنجازها " إيصال الرجل المناسب إلى المكان المناسب، في الوقت المناسب "؛ فأرقى درجات التديُّن أن تفنى و أنت تفعل ُ الخير َ المحض ، كما كُتِب في القداسات، و كما أقسم َ قبل ذلك على تلبية نداءها مهما كان الثمن. كلما حدّق َ الراهب في " كهنوف " يشعر أن ّ الجنة تخضر ّ ُ تحت أقدامه؛ لذا حرص على استخدام قدراته كاملة في سبيل أن يكون مخلِّصه من عقاب الآخرة .!

- " " كهنوف " قلت َ اسمكْ ! " . أخذَ نفسًا عميقًا ثم واصل حديثه : " " عندما تدعو لأجل هطول المطر، يجب أن تعرف كيف تتعامل مع الطين .!، تذكر ْ هذا " .

" جملة الراهب، فضفاضة جدًا، تقبل الكثير َ من التأويلات، فربما يعلم ما سيؤول إليه وضعي بعد هذه الرحلة، و ربما قصد أنه يجب علينا أن نخلق كلمة ً توازي بمقتضاها " التعايش " و تُذِيبَ ذواتنا في تحقيق ذلك .!

تحمل الكثير، لم يخبرني بمقصده علنًا؛ لكن شيئًا بداخلي يقول أنني سأواجهها كثيرًا " غارق ٌ " كهنوف " في بحر نفسه!

" في وسط البحيرة، و تحت عمق ِ أمتار ٍ من سطح الماء، توجدُ نسخة من عصا " موسى " - عليه السلام - التي فلق بها البحر، صارت سجنًا لأحد جان ّ ِ " سليمان " - عليه السلام - " . هكذا يقول السفر، ثم واصل الحديث :

- " سأقرأ بقية السِفر، و ستؤخذ حياتي مقابل تحرير هذا المارد. فقط هو من يعرف علاج قدمك؛ فقد أخذ َ العلم من أصوله "

استجمع الراهب إخلاص العالمين، ذلك الوقت و شرع في التمتمة، بدأت أعضاؤه تتساقط تباعًا، و تتناسل ملامح المارد محلها!

كل ُ شبر ٍ في " كهنوف " اهتز من الرعب . الوجل ُ يستبيح ملامحه، حتى خر ّ َ مغشيًا عليه.

اشتمّ المارد رائحة طِيب ِ هيكل سليمان - عليه السلام - العالقة في ثياب " كهنوف " - عندما مرّ به أثناء زيارته لـ " فلسطين " ؛ فاطمأن لهذا الرجل، و قرر البقاء معه. حتمًا سيُسَرُّ " كهنوف " بذلك؛ لكن المشكلة أن " سيناء " و " القاهرة "

لا تمثلان ِ نقاط وجود لدى المارد؛ ف. " سيناء " سجنه السابق، و هنا كان سجنه الأخير.

بعدما استفاق حدّثه المارد من داخله :

- " لن تستطيع أن تتعامل مع الطين هنا، قشور الحياة فقط هي المتواجدة، صدِّقني إني لك من الناصحين! "

كهنوف، لم يكن لديه أي نية في الشك بهذا المارد حتى و إن تجاوز - عمدًا - حيثيات حبس المارد مرتين؛ فقد تم علاجه بواسطته، كما لا يزال تحت تأثير عاطفة الإعجاب، تلك التي تُريك َ الجمال في كل عناصر الطبيعة متى ما سَطَتْ عليك، و سَل ْ حبيبين عنها إن شئت ..!

- " أصدِّقُك، سنغادر هذا المكان، فقط لأجْل ِ هطول المطر.. " .

الجزء الثاني

-1-

فردوس مفقود

يا لهذا الألم ، الذي تتركهُ له الأشياء التي تموت ، في الوقت الذي يتوجب عليها أن تحيا .. تحتضر تاركة سكراتها فيه ؛ ليتألم ، كما يحدث الآن .. تسقط ذاكرته ، فتلتهمها خفافيش الموت ، و تشق الأسئلة جمجمته كمطرقه مع كل رأس تقطفه المناجل ، الحقيقة تبتلع صهيلها و تموت ، فيضيع صوته خائف ًا، لا يجد له حبال ًا صوتيه تحمله . ينتظر الدور الذي يزحف إليه ، يتظاهر بالموت ، و هو مستلق على بطنه ، يفتح عينه نصف فتحة على ثلاثة رؤوس طرية و مقطوفة للتو، و ث لاثة أجساد ممددة بجواره ، دون رؤوس .. يسيل دمها فيكون خطوط و دوائر عريضة لا يبدي أي حركة ، و لا يملك إلا الانتظار ، معركة أخرى ، يحياها كسابقاتها .. بانتظار النهاية ، أو صدفة أخرى تمده بحياة ما ، حتى تبتلعه تلك النهاية التي أخطأته مرار ًا.

يفتح عينه مرة أخرى ، و بين هرج و مرج يرى الرؤوس الثلاثة المقطوعة ، تزحف بشكل مرعب ، و ملامح وجوهها تتأوه بصمت ، ثم تثبت نفسها على تلك ا لأجساد ، فتهبها رؤوس ًا من جديد ..

- " هل ما أراه حقا؟! ، وهل هذه الرؤوس لأصحابها الحقيقيين، أم أنها لآخرين؟ "

أهي مشاهدات ما بعد موته واحتضاره الأخير؟ هل مات حقا؟ وبدأ يرى الأشياء التي تموت أين تذهب؟ وكيف تعود؟ وبدأ يكتشف من هنا ، أسرار البعث، وبداية

الحساب؟

لا زال الحظ يحالفه ، لا زال يتحسس عنقه ، ككل مرة ، كما يتحسس الأعمى بابا للنجاة من حريق كبير، مازال هذا العنق متشبثا بجسده ، رغم كل ما يؤهله للانفصال .. المناجل تبعثر الأرواح يمينا و شمالا، فتسقط الأجساد و كأنها ثمار تفاح ناضجة ، تتهاوى الرؤوس كأنها سنابل معلقة على مشانق الذرة .

تهب عاصفة رملية مجنونة ، كأنها جاءت من أجله ، تستر القتلة ، عن الناجين بفعل الصدفة و الغبار الكثيف .. يعرج بتخدير شبه كامل ، دون أن يرَ أي شيء .. يصطدم بأجساد و يرتمي أرضا مرارا ، يئن هذه المرة و تدهسه أقدام عديدة ، ينحني أحد المتعثرين به يرفعه من الأرض ، يمسك بإبطيه و يقول : " انهض " ، صرخة مدوية منه قبل أن يكمل جملته ، يفلت إبطيه و يسقط مضرجا بجواره ، يتحسسه كهنوف بيده مرتعدا، فيهمس له بأنين جريح : " انهض وأنج بنفسك ، أما أنا فقد نفذت ساعاتي. "

يتحسس عنقه قائلا : " يا إلهي ! عنقي ما يزال مكانه ، و إن كنت لست متأكدا ، هيا أيها العنق، انهض ، قبل أن يباغتك نصل " يزحف دون أي اتجاه يقصده ، يزحف و يزحف ، ثم يحاول المشي، فيجد أنه ما يزال يستطيع المشي بأطراف كاملة، إذ أنّ ما أقعده هو الرعب و الفزع الشديدان .. يمشي ببطء في خط مستقيم كآلة ، جاعلا مما يصطدم به ، مثيرا لسرعته ، ينقشع لغبار لثوان ، تلوح له فيها ملامح طريق ما بعيدة .. بدت كالتلال أو المتعرجات البعيدة .. تشتد العاصفة مرة خرى ، يتعالى الغبار، و يغمض عينيه .

يمشي بنفس الاتجاه باستماتة ؛ فهذا ما كان يبحث عنه ، شيء ما يتوارى خلفه ، يتوارى عن قبضة الموت .. يختفي عن دقاته التي تشق اللحظات إلى كائنات غير واعية مرعبة و أسطورية .. أغمض عينيه فلا مجال للرؤية و مشى ، و لأنه يمشي في طريق مستقيم ، لم يخطئه الطريق .. يقترب و تتضح ملامح تلك التلال و الصخور، قطع إليها وقتا كأنه الدهر، كان لا بد أن يصل إلى الفردوس المفقود ، فأي شيء يواريه عن هذا الجحيم هو فردوس و لا شك . يتهاوى الآن خلف صخرة ، و خلف لحظة مجنونة ، تخبره أنه لا يزال حيا ، تذكره بالرجل الذي حاول مساعدته ، فالتهمه الموت في ثوان أمامه ، تاركا له ذكرى بطعم الجرح و الأنين و الموت .

-2-

سمعان

جسده يتعرق الآن بشكل مقزز ؛ كأنه محطة تكرير، كأن مسامه صهاريج لعرق

ساخن و لزج و حامض ، يتصبب من حنفيات هرمة ، يمتزج العرق بطبقة هلامية قذرة .. آه لو يطرد كلما علق بذاكرته من أحداث مع هذا العرق المتدفق ؛ لكنها هي ، لا ينقص من منسوب مرارتها شيء ؛ مسام ليست إلا مصفاة ، لتكرير المأساة لا أكثر..!!

للمرة الألف يعجز عن حك فروة رأسه ؛ رغم أنه لا جدوى من حك فروة ملبدة بـ الدم و رائحة الموتى ، فروة أتى لأصابعه و إن بدَت متوحشة أن تخترق فولاذها .

خيال تغلفه بقايا العاصفة ، يشد السير باتجاهه ، فيبدو وكأنه أحد رجالات الجن أو إحدى نسائهم .. ينظر إليه بهلع " هل حانت النهاية ؟! " يقترب منه أكثر، يحاول أن يفر، لكنه مرهق جد ًا، و خائرة كل قواه ، يقرر الاستسلام و لتكن النهاية .. يشعر بأن جسده صار خشبة كهلة ، شاخت في لحظة ، و فقدت أوراقها دفعة واحدة ، فلا تندُ منها أي حياة ، تتضح ملامح الشبح بين ضباب كثيف من الخوف من كلا الجانبين ؛ ثلاثيني عريض و طويل ، بشعر كثيف و لحية شقراء خفيفة و طويلة إلى أسفل عنقه ، و شامة ٍ كبيرة تغطي نصف خده الأيسر، بعينين جمريتين و فم فارغ من السنتين العلويتين الأماميتين ، عينان متسعان كـاللّهب .. كل هذ أكد له أنه أحد الجن ، لكن الخوف الشديد الذي بدا عليه جعله يهمس لنفسه : " ربما كان الجن يلاحقوننا مع ًا. "

يقترب منه الشبح .. ينظر إليه بعيني مخبر، ينظر إليه كأنه ينظر من وراء شجرة ، أو من خلف باب ، تملؤه الريبة و التأهب و الخوف ، و كأنه مستعد لأي عمل أهوج . رداؤه الرمادي المهترئ دون خياط يبدو أنه قطعة واحدة من وبر الجمال ؛ هكذا قال له حين تحير كهنوف في نسيجه.

- " ما اسمك؟ " يسأله ليقطع رهبة تلك اللحظات و رعبها

- " سمعان " يرد عليه بصوت لا هث وأنفاس متقطعة

- " هل انت من هذه المدينة؟ "

- " أنا من أرض البركان "

- " هل هي قريبة من هنا؟ "

- " هي في كل مكان "

- " هل هربت مثلي من هجوم اليوم الأخير؟ "

- " أنا دائم الهرب. "

لم يكن ينقصه إلا رفيق بهذه المزايا .. مرت ساعة و هو يحدثه عن أهوال ما رأى .. كان سمعان يروي له قصته الغريبة ، و يقص له كيف أنه رأى أحد الأجساد

مقطوعة الرأس ، تسير نحو أحد جرحى المعركة ، و تقتلع رأسه بيديها ، ثم تثبته على رأسها ، و تسير .. كان مرعوبا تماما ، حين رأى جسدا آخر دون رأس يسير باتجاهه ، بينما كان هو يئن من جرح في خاصرته .. يشرح له تعجبه من تناسي ألمه الشديد ، و كيف استطاع أن يجري بقوة جديدة إلى حيث هو الآن .. ترتسم ملامح الرعب بقوة و يؤكد له أن الجسد لن يفلته ، و سيظل يلاحقه حتى النهاية ، قبل أن يحكي له كهنوف عن قصة الأجساد الثلاثة التي رآها مقطوعة الرأس و فعلها العجيب ، التي أكدت له أن ما رآه كان حقا، و ليس هلوسات محتضر.

قطعت حديثهما جلبة بعيدة تقترب ،بدا سمعان أكثر فزعا، و قال بنظرات زائغة : " إنهم يتعقبونني "

دون اتفاق قفزا في لحظة واحدة ، تجاوزا خلفها صخورا كثيرة ، و أودية ملتوية ، هبطا و صعدا في معركة نارية للنجاة ، أقدامهم تنزف و جلودهم تتسلخ فلا يملكان إلا المضي قدما .. بعد ساعات عديدة سقطا من الهروب المضني .. بدا سمعان شبه عار، فرداؤه لم يعد إلا قطعة ممزقة و ملفوفة حول جزء من نصفه الأسفل و كأنه أحد سكان الحيوات البعيدة . و كهنوف يتحسس وجهه ، فيشعر أنه ليس هو، وليس كل من كانه من قبل .

يتمدد سمعان و يغمض عينيه ، يلتفت إليه كهنوف ، لا يدري هل نام أم فقد وعيه ، يتوارى شعره الذي يغطي أذنيه ، فيلحظ أن سمعان بأذن يمنى فقط ، أما اليسرى فمكانها قاعا صفصفا.

يقرر تركه و الزحف إلى طلل كبير ، يلوح على بعد ، شيء غامض و عطش قاتل يجبره على المسير باتجاهه ، فهذه القفار لجبلية موحشة ، يمشي و بعد متر واحد تخور قواه يتهاوى و ينام لساعات.

- " هل تذهب معي لتلك الأطلال ؟ ويشير إلى ذلك البناء المتهاوي "

- " وهل لدي ما أفعله؟! "

-3-

القصة الكاملة

من مدخل مهدم دون باب ، ولجا إلى سلم حجري عريض و ممهد ، يبدو أنه صمد طويلا، و بدأت تتراخى قبضته منذ سنوات ، في أسفله ما يشبه البحيرة ، شربا منها بظمأ الموشك على الموت .. أخذ كل منهما يتأمل تلك الجدران العالية

بعضها لم يعد منه سوى بعض أحجار و بعضها متهاوٍ و بعضها ما زال متماسكاً يقوم بحمل عبء بعض تلك السقوف .

الشمس تغمر المكان بالضياء ، في أسفل ذلك السلم الحجري ، أشبه ما يكون ببحيرة صغيرة تمتد لأكثر من نصف ذلك الفناء ، مدهش هو لون المياه الممتزجة باللوني ؛ الأخضر و الأزرق ، يمتزجان تارة ، و يفترقان أخرى ؛ فيشعران بدهشة لطيفة ، الطحالب و الأزهار كبيرة و غريبة الشكل ملونة و منتشرة هنا و هناك، ،و كأنها بستان مسنٌ على الماء .

يقترب كهنوف من سطح البحيرة بحذر ، فيلمح انعكاس صورته على الماء ، يتقزز؟ لا أظن أن هذا الوجه يخصني .. لن يكون ظهور أحد من الجن هنا ، أسوأ من منظري هذا .. يحدق أكثر .. يعصر ذاكرته ، فلا يجد شيئاً .

تخادعه الذاكرة ، و تسكب في دلوه صوراً لمزيد من القتلى و القتلة ، صور بلا تاريخ ، صور بلا قصة ، يا لهذا الألم يا لهذه الصور ! يفهم الآن أن الصور وحدها أحياناً قد تكون هي القصة كاملة .

صوت غامض و منخفض يُسمع من كل مكان ، ربما هو صوت الوحشة ، أو صمت الجن الذي يخططون الآن للانتقام من تجرئهم ، و ربما هو صوت قادم من تلك العتمة التي تقبع خلف حدود المياه ، حيث يخفت الضوء قليلا ، ثم يصطدم النظر بغيهب بعيد من العتمة.

الوحشة العجيبة تندلق أكثر من الجدران العالية ؛ أعمدتها تبدو و كأنها قطعة جبلية واحدة ،

عليها نقوش محفورة لوجوه بشرية ، بعضها ممسوحة التفاصيل ، بعضها قليلة التفاصيل و أخرى مكتملة ، وجوه تشبه وجوه السحرة ، و وجوه تبدو لملوك و ملكات ، و أجساد لحيوانات بعضها يعرفانها ، و بعضها لا يستطيعان حتى تخيل وجودها .

يهجم ارتعاش على سمعان فيتلو كلمات ، " لا يكون لك آلهة أخرى أمامي " تستوقف كهنوف الكلمات و يشرد بعيداً بفكره محاولاً فهم معنى ما يقول ، ينتبه على كلمة أخرى و هو يقول لا تقتل .

كانت تلك اللحظة الوحيدة التي رأى فيها سمعان جميلا ، و لذلك سأله : " سأذهب إلى القاهرة هل تذهب معي يا سمعان؟ "

- " لا أعرف أحداً فيها " و يستدرك " يكفي أني أعرفك أنت . "

فجأة ، يدوي صوت ريح شديدة كأنها قادمة من تلك الظلمة السوداء ، التي تقبع خلف الماء ، ثم قهقات مجنونة ، يتسمر كليهما حين يكتشفا أنها تأتي من تلك

الصورة الدميمة على ذلك العمود .. ينهار أحد الجدران على رأسيهما معترضاً على اقتحام الخلوة المقدسة ، يخرج كلاهما زحفاً بسرعة ، و قد آذى الانهيار جسديهما المنهكين ، يتذكر كهنوف مروره سيناء ، وآلامه التي لا تنتهي ، يتذكر موسى الذي كلمه الرب و حماه ، بصوت باكٍ يخاطب رب موسى : " هل سأنجو ببركتك يا رب موسى؟ أرجوكَ نجِّني أنا أيضا ؟ ما الذي يجب عليّ خلعه لأنجو ؟ هل هذه الرجفة التي تهد أوصالي أقل بكثير من رجفة موسى ، رحماكَ ربي ؟ "

* * *

الفصل السابع

الجزء الأول

-1-

حيث ُ الهرم

و لأجل هطول المطر سار عبر " سيناء " إلى مصر ، محدثاً نفسه ، مجادلاً، مصححاً الأحداث لعقله بقلم الكابوس الذي سينتهي عما قريب ، كي لا يفقد وهج العقل باشتعال الجنون .

يتفقد ذراعه التي فقدها ؛ لتعود له .. حركها .. ألقى نظرة على قدمه اليسرى التي عادت سيرتها الأولى تمتم بالحمد و مضى نحو مجهول قد يحمل إجابات لما يجري معه .

حدث نفسه " كلب ناطق ، فتاة ممسوخة إلى غنمة ، و مارد يهذي عن الطين و المطر.. لابد أنها لعنة هذا الزمن المعمد بالدم و الموت ."

من بعيد لاحت له أسنمة جمال .. سأل راعيها المرافقة فلم يعترض .. رمى كهنوف الراعي بنظرة خاطفة ؛ أربعيني ضخم الجثة .. له حدبة تعلو ظهره كالسنام .. تناول شربة ماء قبل أن يحاصره بأسئلة عن وجهته و يد ممتدة .. فهم كهنوف و هم بإخراج جيبه الفارغ ؛ كي يثبت للراعي حاله لكن كفه قبضت على عملة ورقية .. عقد حاجبيه في تساؤل .. مرت صورة " فيورينا " أمامه .. شكرها في سره و وضع العملة في يد الرجل .

الصمت سكين غير مؤذية إلا عندما يلمع نصلها بالأسرار .. سكب الرجل دلو أسئلته على كهنوف الذي حاول ان يجد أي شيء طبيعي في رحلته ؛ كي يجيب

الرجل ؛ لكنه لم يفلح .

عندما دخلت الجـ ـمال الإسماعيلية بدأت بالرغاء .. الشمس تلتهب من بعيد لكنها ليست في السماء .. اقتربوا أكثر .. تتوضح الرؤية لمبنـ ـى حكومي يحترق .. ترجل كهنوف ليبحث عن بئر ليساعد في إخماد الحريق ؛ لكنه تبين أنهم أشعلوه عمدًا .. التفت ليحدث صاحب الجمال ؛ لكنه اختفى .. كررها هامسا " يا رب رحمتك كي لا أفقد عقلي كيف اختفت عشرة جمال بهذه السرعة ؟! " .

مصادمات بين المخربين و أفراد الشرطة .. فرّ هاربًا من هراواتهم .. تعلق بشاحنة بها بعض الأبقار .. أطالت بقرة شهباء مضغ علفها محدقة في ملامحه الرمادية ؛ وجه غادر في كومة شعر كبيرة ، عينان صغيرتان تلمعان .. و أنف غارق في ضفتي الشعر لا تظهر منه إلا أرنبته .. لعلها ظنته وجبة ما .. اقتربت منه.. شعر برغبة في الحديث معها .. تذكر الكلب .. لم يعد متأكدًا من صحة ما مر به في رحلته .. الحلم يذوب في الواقع و وحدها نكهة الدهشة تبقى .

نعاس ثقيل احتضنه لساعات .. استفاق على أصوات الرصاص .. قفز من الشاحنة عند منعطف .. نظرة البقرة لاحقته حتى غابت الشاحنة عن نظره .. هز رأسه لتتساقط الأفكار .. ركض مبتعدًا في زقاق لزج بالناس .. قادته الأيدي لزحام أكبر .. هتافات .. رصاص .. خيول تدوس الناس بحوافرها .. جرحى .. قتلى ...

- " ماذا هناك؟ "

- " أنت مش من هنا؟ النظام حيسقط . "

- " و لم يسقط؟ "

- " يسقط قبل ما نموت كلنا ف دا النظام . "

- " سنموت جميعًا لا محالة . "

- " عارفين .. بس عايزين نموت ف نظام تاني . "

قهقه و اتسعت عيناه ، فتح فمه بوسع ، و التهم كفه الأيمن ؛ ينهشها ، الدم يسيل .. يعود للضحك .. ابتعد كهنوف مذعورًا .. صراخ فتاة .. حسيس أفاعي .. زئير حيوانات يتكثف في زاوية ما .. ينزع أحدهم شعره بيديه صارخًا بوجه كهنوف ، يركض مبتعدًا عن الساحة لاهثًا، جائعًا ، يرتمي أمام عربة تبيع الفول .. أسماله البالية الممزقة .. شعر وجهه المعفر بالتراب يعطيانه طبق فول و بعض الخبز .. تناول بشهية متجاهلاً ما يشبه النداء الباهت " أنت .. لا مسمى .. كهنوف .. معمود .. منقرع .. أيًا كنت لابد أن تعود ليس هذا مكانك .. الشمس تنتظرك " .

همس ٌ مشروخ ٌ يكرر" حيث الهرم ستجد ما تبحث عنه .. و أنت ما نبحث عنه نحن .. الملك ينتظرك .. لن توصد زليخة الأبواب .. سيغفر لك آمون استيقاظك و خرقك للمكتوب في اللوح القديم .. اذهب .. اذهب" .

-2-

ليست مقبرة

رائحة عطر لذيذة تداعب أنفه .. أستيقظ و قد رحلت عربة الفول و فرد الليل أجنحته .

يسقط شهاب في خط الأفق .. يتذكر الصوت .. " اذهب " ؛ فيسير باتجاه سقوط الشهاب حتى يحيل التعب قدميه إلى عجين رخو .. يجلس على الأرض .. تتخلخل من تحت قدميه لتسير وحدها كبساط ريح .. يفزع .. يجثو على ركبتيه .. يقرأ ما يحفظ من آيات.. يجزم بأنها الساعة لكنه لا يتذكر هذا الجزء من أشراطها . تتبدل الوجوه و الملابس .. يمر بجانبهم .. عيونهم المسحوبة الغارقة في خط كحل أسود لا تراه ، لا تلحظه .. سبع بقرات سمان .. سبع عجاف .. سبع سنابل خضر و سبع يابسات .. و فتاة حنطية امتزج فيها شغف الكاكاو بصفاء الحليب .. شعرها المموج كالبحر لا يلامس كتفيها .. يؤطر وجهها ك البدر .. ابتسامتها الصغيرة ؛ شمس قادته مسلوب ًا اليها .. رائحة العطر الذي حلم به عادت بقوة تخدر أحاسيسه .. توقف بساطه الترابي أمامها.. كفها الإ سفنجي يرفعه .. سار خلفها صامت ًا إلا من حديث إعجاب يختلج في قلبه .. من غير الحب يفقد المسميات أسمائها.. ينزع عن الكون منطقه !!

جلست بقرب نار موقدة أسفل الهرم .. أعطته ورقة خضراء من طبق .. أكلت الأ وراق من طبقها بشهية .. جاراها مجاملا ً .. طعم الأوراق المر الممزوج بسائل حلو أثار فيه شعور ًا بالخدر .. حشرات بالمئات تسير تحت جلده .. أراد أن يهرش جلده المحمر المنتفخ لم يستطع .. أصابه الشلل .. وحدها عيناه تتحركان .. فتاته طالت فجأة .. ضمرت تضاريسها .. تغير وجهها و أصبحت رجلا.. انظم لها سبعة من الرجال بمآزر تعلو الركب .. قطع نصف دائرية مزخرفة بنقوش ملونة تغطي الجزء الأعلى من الصدر و الرقبة.. حملوه من أطرافه.. اختفت نجوم السماء قبل ظهور أحجار الهرم .. وضعوه في رحم الظلام و أوصدوا المدخل ..

قهقهات .. همهمات .. أصوات الحشرات و الفئران في رحلة صيدها الليلية .. ظلمة بائسة .. لم يستطع التحرك عندما اقتربت العقارب من قدميه .. لدغته عقربة أو أفعى ؛ لم يعرف .. ألم شديد يغزو جسده .

ضوء شحيح يصفع جباه كائنات نصفها رجل ونصفها امرأة تتسامر أمام كؤوس مشروب أزرق .. صرخ قلبه فزعاً.. حدق و قد نسي ألمه .. تغيرت أشكالهم ذابت ملامح المرأة في الجانب الأيمن من الجسد و تبدلت بملامح الرجل في النصف الأيسر لينطق صوت خشن :

" عد إلى كهفك .. و إلا ستقضي بقيه يقظتك في هرمك الذي اختفيت منه ! "

أهراماتنا ليست مقبرة كما يظنون .. إنها السلام الذي كنا نعلم أنه سيندثر بعدنا .. نعيش بأزلية و سعادة .. أنت مثلنا يجب أن تكون خالداً هنا .. سيبتلعك الظلام و تنبثق السعادة في روحك هنا .. أهرب من الحشرة التي أصابت كل العقول بالجنون و الطمع .

تقدم أحدهم .. فتاته الحنطية لمست وجهه .. تساقط الشعر.. التهب وجهه بحرارة كفها .. غرزت أصابعها في عينيها .. اقتلعتهما .. مدت بهما إليه .. حشرتهما فوق مقلتيه .. ضغطت بقوة .. قدرته على الصراخ ما زالت مشلولة .. عرق غزير أ لصق ثيابه بجسده الناحل .. عادت الظلمة .. اكتسحت دماغه .. شعر بخلايا جسده كلها تنفجر و يخرج منها دم حار يلهب كل عضو فيه و يصهره.. انبثق نور أحمر مبهر في الظلام .. تشكلت الصور .. دماء .. أعضاء بشرية ممزقة .. رؤوس مفصولة عن أجسادها .. أصوات كثيرة تتداخل .. ارتطم صوت الرصاص بأذنيه ..

انفجارات .. صراخ .. " اللّه أكبر " .. " الشعب يريد إسقاط النظام " .. " ارحل ".. " لا يحق لك الدخول " .. رجلان كلاهما ناطق بعربية ما .. كلاهما يكبر.. كلاهما يذبح الآخر و يصرخ " كافر ".

الأرض و الزرع يموت .. الحيوانات تتراحم .. تختبئ من بني البشر المتقاتلين بوحشية و بربرية .. نساء يبكين بقايا أجساد رجال و أطفال.. أعلام سوداء ترفرف .. أسوار نارية ترتفع من كل صوب .. تصل لقبة السماء التي تنشق عن شياطين كثيرة مقهقهة .. ولد الظلام من جديد عندما فقد وعيه و رحل سكان الهرم .

-3-

عد إلى كهفك

استيقظ مع أول خيط للشمس تسلل من فتحة هرم منقرع .. يوم واحد فقط في السنة تدخل الشمس في الهرم .. يوم ميلاد الفرعون منقرع و كهنوف المصاب بلعنة الزمان و المكان هناك ينال قبلة مقدسة منها .. فتح عينيه .. وحده في غرفة الهرم مع بقايا الأواني و رسوم كثيرة .. فتاته على الجدار .. الكائنات أنصاف الرجال و أنصاف النساء .. غمزة من فتاته ذكرته بعينيها المقتلعتين ..

رفل برمشه مرار ًا.. سار ببطء و ترنح من آثار شلل البارحة .. متلمس ًا جدران الهرم و نقوشه باحث ًا عن مخرج .. أسئلته تولد و تموت مع كل جدار أصم .

تحرك حجر تحت كفه .. دفعه للداخل .. انفتحت كوة صغيرة تكفي لمروره زاحف ًا.. حشر جسده و زحف لدقيقة فوجد نفسه في غرفة أخرى ينهشها الظلام أمام النور المحتضر في وسطها.. بقايا هياكل قطط و امرأة و طفل .. تعثرت قدمه بوعاء نحاسي .. فكر في دعكه لعل مارد ًا يخرج ؛ لينقذه كمارد مصباح علاء الدين .. شعر بسذاجة لكنه فعل .. لم يحدث شيء .. رمى به أرض ًا بـ يأس .. جلس على السرير الرخامي حيث بقايا المرأة .. شعر بشيء يلمس فخذه .. أقشعر بدنه .. التفت للهيكل الساكن .. أخرج هواء رئتيه فانطلقت زوبعة ترابية صغيرة .. أغمض عينيه .. ازداد دوران الزوبعة .. اشتدت .. ارتطم جسده بقوة بعد أن ارتفع في الهواء .. فتح عينيه على الغيوم المظللة للهرم .

نفض الغبار عن ملابسه .. خوار الأبقار العجاف يأكلن السمان .. بشر يأكلون بعضهم بعض ًا.. قيء معدته الفارغة و كل الصور التي شاهدها .. سقط سائل أصفر أرض ًا.. زحف السائل باتجاه سراب ماء .. ركض خلفه .. اختطف كهنوف حصان بقرن فولاذي و رمى به على ظهره .. تمسك كهنوف بقوة و جزع.. و في لمح البصر كان الحصان يقف أمام النيل .. قذف به عن ظهره و اختفى كما جاء من العدم .. السائل الأصفر غرق في مياه النيل لتندفع نافورة إلى قلب السماء .. حوقل و استغفر ..

- " مالك في إيه ؟ "

التفت لصوت الكهل الواقف في قاربه " ماذا؟ "

- " أنت أكيد من البلطجية . "

- " ما معنى هذا؟ "

- " إنتا مع النظام ؟!. "

- " أي نظام؟ أنا... "

شعر كهنوف بالارتباك.. تأفف مطلقا صوت ًا يشبه غيمة حبلى بالأسى و العطش .

- " أنا أبحث عن سلام ؛ عن بشر لا يتقاتلون ، لا يسدون الأبواب في وجوه بعضهم البعض و يغلقون المنافذ ؛ ليصنعوا جدران الحقد .

- " لاحول و لا قوة إلا بالله ، لقد جن الرجل .. فلتسر معي أيه الغريب في النيل قليلا ؛ فماؤه حياة و روحه ستشفي بعض َ جنونك . "

قرفص صامت ًا في القارب الذي يسير بهوادة يستمع للعجوز يتغنى بالترعة و

الشمس ..

اغترف كهنوف غرفة بيده و شرب بلذة .. مسح وجهه الذي أضحى أمرد ًا .. تذكر حرارة جسده و عيني الفتاة .. وضع كفه في الماء .. تغيرت برودة الماء .. ا زداد دفئ ًا ، لزوجة .. رفع كفه .. حمراء قانية .. نهشه الخوف .. نظر في الماء .. حمرة تمتزج بزرقة النيل تتدفق من رقاب معلقة بأجساد ترقص رقصتها الأ خيرة .. أغمض عينيه لعل كابوسه ينتهي وهمس ٌ يداعب سمعه " عد إلى كهفك " ..

الجزء الثاني

-1-

قلبُ الكهل

" عُد إلى كهفك "

تردد صدى الجملة ، مُبتعد ًا متكسر ًا ، كأنه يسقط في هوة سحيقة لا قرار لها ، مصطحب ًا روح كهنوف معه . شعر كهنوف أنه يهوي في ظلمة حالكة ، و أن قوة خفية تسحب روحه إلى أسفل ، جعلته يرتعد مرتجف ًا . فتح كهنوف عينيه ، فصدمته أشعة الشمس الحارقة ، و أدرك أنه في كابوس مرعب ، أخف وطأة من الكابوس الحقيقي الذي يحياه .. تلفت حوله ، فوجد الكهل قد أعد وجبة أسماك نيلية ٍ ، و جلس صامتةً في انتظار استيقاظه ، ليتناولا الطعام مع ًا.

أشار له الكهل ؛ ليجاوره ، و يشاركه الطعام .. نظر كهنوف إلى السمك المشوي متقزز ًا من فكرة أن تكون هذه الأسماك قد التهمت اجساد ًا بشرية ؛ جعلته يرى ماء النيل حمراء قانية .. كانت أمعائه تلتف حول بعضها من أثر الجوع ؛ لكنه آثر البقاء جائع ًا على تناول بقايا بني جنسه متمثلة في صورة أسماك !

نظر له الكهل متعجب ًا، فهيئته تشي بأنه لم يتناول الطعام منذ عدة أيام .. قطع كهنوف نظرة الكهل متسائل ًا : " يقولون إن الحرب تجر إلى الفقر، و الفقر يحث على العمل ، و العمل يورث الغنى ، و الغنى يسبب الشقاق، و الشقاق يفضي إلى الحرب ! و أنا مذ فتحت عيني في هذه الرحلة ، لم أرى سوى الحرب و الفقر و الشقاق ، حتى العمل يقومون بتسخيره لخدمة أغراضهم الدنيئة . يبدو أنني ابحث عن سراب ، و أن الخير و السلام أوهام، نفني حياتنا في البحث عنهما أثناء اقترافنا المعاصي . و أن سعينا للفرار من موت مشكوك فيه ، يجعلنا نُقدم على موت مُحقق ! " و سكتا طويلًا بعد زفرة كهنوف هذه ؛ إذ على ما يبدو أنه ألجم الكهل تمامًا و حاصره بأكوام من الأسئلة عنه ...

- " سمعت أن النيل هنا هو شريان الحياة ! "

- " لهذا لم يتوانى أبناء طيبة عن إغراقه بالدماء المهدورة !! "

و ربت الكهلُ على كتف كهنوف المهموم بالبحث عن الخير و السلام ، و هو مُثقل ، مُكبل بهَم ضياع هويته .. كيف يستطيع الإنسان الوصول إلى هدفه قبل الوصول إلى ذاته ؟! .. كيف يفتش عن سلام حوله ، و هو يفتقر السلام الداخلي مع نفسه ؟ .. تدفقت الأسئلة من عين الكهل ، فاحتجزتها دموعه المتحجرة ، مشفقً ا ، على هذا المُسِن المعتقل في جسد الشاب كهنوف .

سمع كهنوف كل ما لم يقله الكهل ، فشعر بغصة عدم امتلاك إجابات ، قد تشفي روحه المنهكة.

نظر كهنوف حوله ، فوجد القارب يتهادى بالقرب من الشاطئ ، الذي احتلته المباني الأسمنتية ، الجاثمة على بقايا البساط الأخضر المنحسر ، فطغى اليأس على روحه ، و ساد شعور داخله بضياع الأمل في الإمساك ببقايا الحب و مظاهر الجمال .. رسا القارب على شاطئ يعج بالمراكب المهجورة .. سأل الكهلَ قبل أن يغادره : " ما هذا؟ "

- " لم تعد مهنة الصيد تستهوي الشباب و الرجال - فقط الكهول - أمثالي يتشبثون بها كمصدر وحيد للرزق . "

- " ما الذي يشغلهم إذًا؟ "

- " الهجرة إلى البلاد الباردة ، و أغلبهم لا يحالفهم الحظ ، فالمحظوظ منهم يُقبض عليه أثناء رحلته اللاشرعية . "

- " وغير المحظوظ ؟! "

- " يكون وجبة سائغة للأسماك . "

ضحك كهنوف ساخرً ا من نفسه ، و جلجلت ضحكته ، ثم انتبه فجأة لصوت ضحكته الرنانة ، و دمعت عيناه ، حينما تذكر أنه لا يتذكر متى ضحك قبل الآن !

أشار الكهل إلى المياه قائلا : " انظر يا بني، هنا البرزخ . "

- " برزخ؟! "

- " نعم ، مكان التقاء النيل بالبحر "

انحدرت دمعة وحيدة على خد كهنوف ، و تلاشت ابتسامته ، و ودع الكهل الذي مده بشعاع أمل ؛ ليصبح معينه في استكمال رحلته .. تحرك كهنوف بامتداد الشريط الساحلي ، بعدما تنازل عن رفضه لتناول وجبة الأسماك كلما سنحت له

فرصة أو قرصه الجوع ، و لم يجد أمامه سوى السمك أو ما يجود به البحر.

-2-

سرّ و ابحث عن السر

- " سرّ و ابحث عن السر ..! " .

دوت الجملة في أذن كهنوف، بعدما تراءت له مطيته الغبارية ، فاستسلم لها ، ليجد نفسه بين أطلال مدينة طينية ، يتعانق النخيل فيها حول بحيرات من الماء ، بعضه عذب و بعضه مالح .. تتفجر عيون المياه في صحرائها ، رقراقة صافية ؛ فيؤنس خريرها الوحيد ليلا ً ا و نهار ً ا .

للمرة الأولى شعر كهنوف بالراحة في قلب الصحراء ، حيث النخيل و أشجار الزيتون و الفاكهة .. امتلأت روحه بالسكينة ؛ لكنه سرعان ما شعر بالوحدة ، فالأ لفة مع إنسان مثله تمنحه السعادة الكاملة التي طالما بحث عنها .

فكر كهنوف ، " أيمكن أن تكون هذه الواحة هي محطته الأخيرة؟ "

أجابه الصوت الذي يلازمه أينما ذهب " سرّ .. سرّ "

واصل كهنوف المسير، حتى وصل إلى جبل " الدكرور" ، فوجد الكثير من الأ شخاص يُعالجون بالدفن في رماله الساخنة ، للتداوي من آلام المفاصل و العقم ..!!

تعجب! .. كيف يسعى الإنسان إلى التناسل ، في ظل هذا العالم الكئيب ، الذي تملؤه الكراهية .. تجلت هذه الأفكار لديه حينما وصل إلى معبد " آمون " ، شرق مدينة " سيوة "، و ألقى نظرة على جبل الموتى ، الذي يضم مقابر فرعونية ، تعود إلى الأسرة ال. 26، فتذكر رحلته في قلب الأهرامات، و بدون أن يشعر تحسس عينيه .

ما إن وصل كهنوف إلى معبد الوحي و دخل قدس الأقداس ، حتى تراءى له كبير الكهنة ، بزيه الفرعوني المميز، و صلعته التي تنعكس عليها أشعة الشمس .. ارتجف كهنوف حينما أشار له كبير الكهنة ؛ ليقترب منه ، و لم يجد بد ً ا من تنفيذ الأمر .. همس كبير الكهنة في أذن كهنوف ببعض الجمل ، حول " آمون " ؛ إله الشمس و الريح لدى المصريين القدماء ، و ذكره بأنه سيصبح في عداد المفقودين مثل " الإسكندر الأكبر " ، الذي أقسم أنه لن يبوح بالسر الذي حدثه به كبير الكهنة حينما زار معبد " آمون " إلا عندما يعود إلى اليونان و يقابل أمه الملكة " أوليمبياس . " و لم يحفظ عهده ، فاستفحل البنكرياس خاصته بفيروس النيل الغربي ، و مات في الثانية و الثلاثين من عمره ؛ لتحاك حول

وفاته الكثير من الروايات .. ارتعد كهنوف و هو يومئ برأسه ؛ في إشارة منه بـ التزامه بحفظ السر الذي أفضى له به كبير الكهنة .

عقد كهنوف العزم على العودة مرة أخرى إلى جنوب مصر، حيث مدينة المائة باب ؛ لربما يُفتح له بابـ ًا ، و يجد ضالته .

* * *

الفصل الثامن

-1-

داخل مصباح

- " عد إلى كهفك "

زوبعة من مكان بعيد ، عوالم لا متناهيه تأخذه إليها ؛ ليجد كهنوف نفسه في بعد آخر ، شلالات الدماء هنا و هناك .. الأشلاء ، تتعثر به الأقدام الحائرة .. ذو العين الواحدة يقترب منه بساقيه و أقدامه السبعة ، تملكه الفزع و أسرع يختفي خلف أحد الأعمدة الممتدة امتداد الأفق ، خفقات قلبه المتعالية توشك أن تفصح عنه ، وهنٌ يتجذّر في العمق ، وخزات ُ أطرافه كمنجل تتوالى ضرباته على صخرة ملساء ، قطرات الماء تبحث عن طريقها إليه ، دبيبٌ من الخوف و العجز، و القهر يوغلُ فيه بعمق ؛ ليرمي به في قاع سحيقة دمعت عيناه ، و عجزت روحه عن ارتشاف لوعته ، هائمٌ هو في ملكوته يبحث عن مخرج ، تتوق روحه إلى سكونها عبر موت حقيقي ، يجد طريقه إليه فلا هو بالنائم و لا هو بالميت ، هو روحٌ هائمةٌ تبحث عن خلاصها بين الأشلاء و عبر الروائح المتعفنة المنتشرة في الأ فق ..

الكائن يقترب منه أكثر لا شك أنها النهاية أنفاس ذلك الكائن تلفحُ خدّيه .. توعّلٌ عميقٌ في أعماقه ، دويّ صراخه يتردد على مسامعه . تحسس كهنوف أطرافه مودع ًا ، فغرَ فاه مدهوش ًا .. لقد عاد كما كان و كأن ما حدث له خلال رحلته ا لأخيرة ؛ تلاشى القدم المتآكلة ، اليد المبتورة ، و العين الثالثة ، كل تلك الأحداث التي مرت به لم يعد لها أثر.

همس لنفسه : " كهنوف أنت تحلم " .. وهل استفقتُ من حُلمي الأول ليعودني حلم جديد .. عاوده صدى صوته ، صوت غائر من هوّة سحيقة انبعث من عمق ذلك الكائن قائلا : " ماذا تريد مني ؟! " .. فزع لدى سماع الصوت .. بصوت

متلكئ :" أنا ؟! "

- " ألم تنادني عندما دعكت المصباح ؟! "

. " كيف لم أرك عندما خرجت منه ؟! "

. " أنا لم أخرج ، بل أنت الذي دخلت فيه ..! "

. " هل أنا الآن داخل المصباح ؟! "

. " ما الذي تريده ؛ فوقتك شارف على الانتهاء .."

تتوه الأمنيات مع اقتراب تحقق الحلم ، ما الذي تريده أيها المفزوع في فانوسك القابع في بُعدٍ آخر تجهله ..؟ ؛ أن ينتهي الدمار من العالم ، أن تتوقف شلالات الدماء ، أن تسود المحبة .. ضحكات متعالية ، و رائحة عفونة تقترب أكثر مع صوت مخنوق يخبره أن لا قدرة لديه لتحقيق المستحيل ؛ فهؤلاء القوم يستحقون ما هم فيه ، و مالم يتغيروا من الداخل فلا فائدة .. يستحثه ذلك الصوت ؛ ليطلب طلبا آخر .. الرغبة في الحياة تتضاءل مع تلاشي الأمل في واقع أفضل ، همس كهنوف بحزن : " أريد أن أتلاشى .. "

. " لك ذلك إذا قتلته ".

. " أقتل ، أقتل مَن ؟! "

- " ستجد الإجابة في مدينة الشمس "

اختفى الكائن الغريب ؛ ليتمَاهَى كهنوف إلى عالمه من جديد ...

-2-

مدينة الشمس

توقف كهنوف على مشارف مدينة المائة باب ، و رأى التماثيل و المعابد على مدّ بصره ، صورة ما تراءت له من الماضي البعيد ، أجساد عارية تؤدي سجودها الأ خير في خضم ظلمة بحرية مدمرة يقبع في أعماقها مستنقع دماء ، و عقول فارغة ترى القدرة متمثلة بحجر .. زفر كهنوف حتى سمع لزفيره صوتا غيّر مسار مجرى النيل ، و هو يعقد مقارنة بين صورة الأمس و اليوم ؛ بالأمس عبد الصنم فسالتِ الدماء بين بني العمومة ، و توارت العقول خلف طوفان الجهل ، و اليوم يتجلى الصنم بصورة أخرى ؛ لتعبد الذات المتوغلة في العفونة ، فنغرق في شلا ل دماء الأخوة .. تماثيل هي كتماثيل هذه المدينة الجميلة ، و لكنها تفتقد لجمال السكون الذي اتسمت به .

استمر كهنوف في رحلته يتأمل المعابد ، و يعقد مقارناته بين الماضي و الحاضر ، اختفى شعوره بالزمان ؛ ففي كل لحظة يترقب مفاجأة فيتحسس عنقه و أطرافه.. هبّت رياح قوية فتمنى لو يستطيع التماهي معها ، أو يستطيع الاختفاء ، فها هو يراهم يقبلون نحوه بسطولهم الملطخة بالدماء ، و لاشك أنهم سيقتادونه معهم بجرم مشاهدة الكفر ، أو بسبب ما كان يفكر به ؛ فهم لا شك يمتلكون أجهزة تجسس على العقول .. رائحة بخور عميق اخترقت خياشيمه ، دُهِش عندما رآهم يقتربون منه ، و يمرون من جواره دون أن يروه كيف حدث ذلك؟ مستحيل ، ألا يروه .. أحدهم اصطدم به ، و مع ذلك لم يره ما هذا الذي يحدث ؟؟!

هل تحققت الأمنية ؟عاودته رائحة البخور النفاذة ، فقرر أن يبحث عن مصدرها ، و مِن على بُعد شاهدها امرأة ترتدي زيًّا فرعونيًّا، مما لاشك فيه أنها امرأة نوبيّة، اقترب منها اكثر بعدَ أن استبَدّ بِه فضولُه ، ولكنه ما إن اقترب حتى تملّكه رعبُ الدنيا ، نظرت إليه باسمةً، ما الذي أخافك؟؟

اقتربت أكثر فهوى قلبه بين ذراعيه ، فمرّرَت يداها بالقرب منه هازئة .. أَلِأني أمتلك وجهاً بعين واحدة ؟؟ .. تعالت صيحاتها تملأ المكان .. لاشك أنكَ لم تنظر إلى نفسك و إلا لمَا فزعت..!

- " قل لي : ما اسمك أيها المفزوع ؟ " بصوت متلكئ ، و هو يحاول التماسك : " في تلك الأرض كانوا ينادونني كهنوف ، و في رؤياي المعمود ، و منقرع ، وأنتِ أضفتِ لي اسمًا آخر : المفزوع " ..

خيّم صمت مطبق على المكان ، فصرخ كهنوف بكل ما يحمل في أعماقه من ألم ..

. " أين أنا ؟ ولِمَ لم تسمل عينيّ بجرم مشاهدة الوثن؟ كيف مرّ أولئك القوم من خلالي دون أن يروني؟ "

- " أنتَ في بُعد آخر ؛ لذا لا يرونك ، تلفت أمامه برهبة ، هل أنا في عالم الجن؟ فتعالت ضحكاتُها ، بل أنتَ في عالم ثالث ، نصيحتي لك لا تهتمّ بالتفاصيل ."

- " هل أستطيع البقاء في عالمكم ؟! "

- " وخوفك ؟! "

. " يستطيع الإنسان الحياة مع الخوف ؛ و لكن لا يمكنه الحياة مع الرعب.."

- " من أين أتيت ؟! "

- " من مكان تعددت آلهتُه ، و عُبِدَ فيه الشيطان ؛ لتسيل الدماء زورًا باسم الرب، و تحرق البشرية باسم العدالة ، و تُبادُ الإنسانية بدعوى التطهير ، لقد رأيت

في رحلتي تلك ما يصعبُ احتماله ، أو حتى تخيله . "

. " وَلِمَ أنت هنا ؟! "

. " أبحث عن الخلاص ، و لا خلاص لي مالم أقتل أحدهم ..! "

أشارت ذات العين الواحدة و الأصابع العشرة إلى طفل صغير يلعب بجوار أحد التماثيل قائلة : " ذاك الطفل هو بغيتك .. اقتله إن أردت "

الخلاص ، اقترب كهنوف من الطفل لوَهلةٍ تذكّرَ كلّ ما مرّ به ، و مقولة من زمن بعيد : ((كلهم يقتُلُ بدعوى أنه يمتلك الحقيقة المطلقة ، و لا حقيقة مطلقة)) مع اقتراب خطواته تعالى وجيفُ قلبه ، الحيرةُ تخيط خيوطها في أنسجة دماغه .. ما علاقته بهذا الطفل؟ و لِماذا يجبُ قتله؟! .. حاولَ العبثَ مع الصغير فبرقت عيناه بوميضٍ خاصٍّ ؛ ليسمع كهنوف صدى صوته دون أن تتحركَ الشفاهُ ((في أعماقنا ظلمةٌ تسلبُنا جوهرَ السعادة)) تجمّدَت أطرافُه ، عبثاً يحاولُ الكلامَ ؛ ليسألَ عن مكان النّور ، فأتاه الجواب دون سؤال : ((فتّش عنه في أعماقك ، لا أحدَ يمكنه أن يسلبك نورَك)) تراجعَ كهنوف مذعوراً إلى الوراء ، فعاوده صدى الكلمات : ((بتَغَيُّر فكرك يتغيرُ واقعُك)) البراءة لا تقتل ، فكيف إذا ما جُمِعَت بِالحكمة ؟ .. لا أستطيعُ ، ردّ كهنوف ، و هو يتراجع إلى الوراء متمنياً أن يعود إلى كهفه .. خوفه مما ينتظره جعله يتردّدُ ، خلاصُه من هذا العالم المليء بِالشرور ماثلٌ أمامَ عينيه .

أقتله .. أقتله

كلمات تتولى على مسامعه يجهل مصدرها ، شيءٌ ما في أعماقه يخاطبه : إن قتلته ، ما الفرق بينك و بينهم ؟

ستتماهى ؛ لتغدوَ واحداً منهم ، و تمتد جذوة الشرور إلى الأبد .. ارتجفت أطرافه ، و تعالى وجيفُ قلبه : " أريد أن أتلاشى ، فما علاقة هذا الطفل بذلك؟ لِمَ يجبُ عليّ قتله ؛ لأختفيَ من هذا العالم ؟؟ "

- " لأنني أبوك ..! "

لأول مرة تتحرك شفاه الصبي .. خنجر مسمومٍ يغرسُ في الخاصرة ، تراجع كَالمذعور غير مصدِّقٍ ما يسمعُ .. !

- " استأصِل جذورَكَ بيدِك إن أردت الخلاص لنفسك ، و إلا فتمسّك بها ، و اعمل على اجتثاث الشرور العالقِ بجذورك .. "

* * *

الفصل التاسع

-1-

في أرضٍ لم تُطمَث

" إلهي ما أحلك ليلك البهيم و ما أثقل وطأته على عبدك الغريب المتوكئ قلبه بعصا هدايتك .. المستنير بضوء محبتك و ضوضاء الإيمان بوحدانيتك "

" صديقي أنت تعلم ما في نفسي و تعلم كم أنا الآن جائع و ظمآن لنور وجهك .. فررت إليك فمد لي يدك .. مدها لي أنا الصب المحب كهنوف .. ناولني قبسًا من رحمتك أستضيء بها على أديم فتنتك " أمسى كهنوف يناجي ربه بعد أن أيقن أنه لا محالة عالق في درب عنيد على أرض مترامية الأبعاد .

في الصباح فر كهنوف من لعنة الفراعنة ؛ ليقحم نفسه في لعنة واد غامض لم يعثر فيه على بعرة تدل على بعير أو أثر أقدام يدل على مسير أو حتى أي أمارة تلمح إلى كائن حي من فصيلته يقطن قريبًا في تلك الأرجاء .. انخرطت جل ساعات النهار بلا فائدة ؛ إذ أنه كلما كان يتقدم بخطواته بحثًا عن باب للنجاة ، وجد أمامه مشاهد مكررة و آثار القدمين نفسها و كأنه يسير في دائرة مقفلة .. قدماه تقطران دما يشعر بوخز الألم فيهما ؛ لكن ليس بوسعه إبصارهما في هذا الليل الداكن السواد .. و الآن منذ غابت شمس النهار و كهنوف يتخبط في الدروب الوعرة مقطوع القمر مقطوع الأثر و الخلاص .. كان قد قطع أميالا جمة من الضياع و هو يهرول بعيدًا عن اللعنة إلا أنه و مع غرابة المتاهة ظل يتأمل أناقة هذه الأرض الجذابة التي أوغل في أحشائها و التي لم يسبق له أن سمع عنها من قبل في التاريخ أو أدب الرحلات .

" هذه الأرض لم تطمثها قبلي قدم أحد من بني آدم منذ زمن مديد أنا على يقين من هذا "

لقد حدثت لعين كهنوف تلك المناظر الخلابة دفعة واحدة ؛ كأنه يسافر في حلم بديع بيد أنه لم يفق منه في الصباح كما تجري العادة دومًا و إنما استفاق هذه المرة وقتما ارتطم مركبه السكران بجبل هائل من الظلمة المطبقة التي أعاقته عن معاودة الذهاب أو الرجوع إلى بداية الطريق التي سلكها أو التي لاذ منها بالفرار و هيهات أن يصل كهنوف إلى الضفة الأخرى للجة هذا الليل الذي تتلاطم أمواجه في سكون مريب يبعث على الكربة و الوحشة و الهلع الشديد .

- " ترى هل سأموت هذا اليوم !؟ .. قلبي يحدثني أن هذه نهايتي و أنا أكره أن توافيني منيتي في هذه المتاهة قبل أن أنجز هدفي و أسرد قصتي العجيبة لط

لاب الجمال و عشاق الحكمة الضالة .. هل أنا الآن ميت فعلا ؟ .. قلبي حزين .. هل يمكن أن يقبل الخالق المبدع أن يقطع أنفاسي على هذه الأرض المهجورة وحيد ًا كحيوان ضال .. هل سيرضى أن تدفن معي قصة بهذه الغرابة و نسكن بمفردنا تحت الغياب .. أشك في ذلك "

- "هل يمكن أن تموت القصص أصلا ؟ " أليس الكون بأسره قصة درامية كتبها الإ له البارع و حفظها حتى تنتهي كل المشاهد و يسدل الستار؟ "

رغم أن كهنوف كان يشعر بوقوع حواسه بعد دقائق معدودات في بطن الظلمة التي التقمته ؛ إلا أنه كان يوقن في أعماقه أنه غير منطقي بتاتً ا أن تكون هذه لحظته الختامية على هذه الحياة .. فهو حسب اعتقاده رسول راحل بعث ليجوب الأرض و يعرفها جيد ًا حتى يبلغ ما لقيت عيناه و اقتطف جنانه .. و الرسل - في سنة اللّه - لا تموت قبل التبليغ و لا قبل أن تكتمل الرسالة و رسالته لم تكتمل بعد .

في اليوم التالي لاحت الشمس من وراء الجبل وهي تتثاءب و توزع أذرعها الطوال نحو الأرض و السماء حتى عم النور كل الآفاق ، فركت عينها بنعومة ثم ألقت بهما على ذلك الوادي السحيق الذي يرقد في تخومه كهنوف الضليل ، ابتسمت بشفقة لحاله ؛ فأضاءت السماوات و الأرض بنور مضاعف ثم شعرت بـ الكسوف عليه فاكتظت و أظلمت و جعلت تستكشف خطة لانتشاله من ورطته الكبيرة و انتزاعه مما أقحم نفسه فيه و هكذا لم تمض سوى دقائق دافئة و إذا بها تسطع مجدد ًا ثم تتوهج وتنط من رأسها فكرة ملتهبة تحلق في الفضاء بسرعة الجنون .

أفاق كهنوف على صباح بديع .. بدا – مأخوذا - يتقصى ما حوله من مناظر طبيعية سحرت لبه و أسرت ناظريه و في مكان قريب ، أحس بحركات خفيفة تهمهم في الجوار .. تفقد مصدرها و قلبه يخفق فأبصرت عيناه امرأة فارعة الطول ترتدي ملابس َ زاهية الألوان تشبه لون الوادي بتربته و أزهاره و كل تفاصيله المنمنمة و كأنها حرباء .. كانت المرأة توقد نار ًا يغلي عليها قدر ضخم يكفي لإخماد خروف سمين .. داهمه شعور بالخطر فبدأ ينتزع جثته بكلالة من بين فكي تلك الأرض المزهرة و المعشوشبة .. ارتفع بقامته فعبرت من خلال أذنيه رياح خفيفة تحمل هدير ماء يجري في الاتجاه الآخر لتلك المرأة المريبة .. جر متاعه بهدوء منتهز ًا انشغالها بقدرها العظيم و ما فيه و جعل ينسل بخفة ك اللصوص طالب ًا الماء و دون أن يلتفت للخلف حتى استوى على المجرى و أخذ يضع كميات الماء في فمه و يرسلها منه إلى جوفه الذي كان يرتجف خيفة من صاحبة القدر العظيم .

- " يا ويلي ترى من تلك المرأة الفارعة التي تجلس إلى النار و من أين جاءت لي ؟ ترى هل هي إنسية أم جنية ملاك أم شيطان و ماذا كانت تُعِدُّ داخل قد ْر ٍ

بذلك الحجم ؟ .. من المؤكد حتما أنها تسخنه حتى تطبخ فيه شيئا أكبر من خروف و أصغر من ثور أو ربما لحما بشريا ضالا يطابق مقاسي بالتمام و الكمال " .. مرت المرأة فأبصرته ملقيا على الأرض بلا صاحب يهتم به فقررت أن تعطيه منزلة و قيمة و لو بداخل قدر يغلي فوق النار و لعلها حسبت أن ذلك الشيء الفاقد للقيمة كان في عداد الأموات .. أو ربما الأحياء الذين سيغدون حين يتخرجون منه أموات .. لا فرق .." رباه لقد تخيلت نهايتي مئات المرات على مئات الشكليات إلا أني لم أتخيل نفسي قط مشويا أو مقليا !! "

- " ليس بالماء وحده يعيش الإنسان .. !! "

اختنق كهنوف بالماء و استدار بسرعة ليتحقق من الصوت فأبصر المرأة نفسها تحملق فيه بعينين ضاحكتين شعر أنها ستقفز لافتراسه .. تقهقر إلى الوراء بفزع و هو يسعل و يصيح :

- " من أنت أيتها المرأة؟ "

- " سامحني يا كهنوف على سوء تصرفي صدقا لم أقصد إخافتك "

قالتها و هي تقترب منه بينما جعل يتراجع للوراء أكثر حتى صار مجرى الماء في منتصف المسافة بينهما

- " كيف تعرفين هذا الاسم .. ويحك لا تقتربي مني أكثر .. إني لك نذير "

- " لا تخف أيها الجبان هذا أقصى حد يمكنني بلوغه فأنا – قطعا - لا أجيد الماء " ثم استطردت " لم أشأ إيقاظك باكرا ؛ لأنك ابن أمس عصيب رغم أن هذا ليس من طبعي .. هلم فقد أعددت لك طعاما شهيا و كثيرا هناك .. "

التفتت العجوز خلفها فعاينت شعلة القدر قد انطفأ لهيبها .. تأففت بحنق ثم فركت أصابعها فاشتعلت منها جذوة نار قذفتها مستخدمة سبابتها و إبهامها كأنها تقذف حبة شعير أصابت الهدف مباشرة و عندها تضخم الخوف لدى كهنوف و شعر بأنه لا محالة في مأزق جد خطير

- " بحق الله من أنت أيتها السيدة الكريمة ، و كيف بلغت هذا السبيل المهجور و قد تحققت بنفسي أنه غير مأهول؟ "

قطبت العجوز حاجبيها و بدت النار تتلظى في عينيها هذه المرة " ما أكثر ثرثرتك يا فتى هيا تعال و لا تكن جبانا و غبيا كهذا الماء "

ناولته ظهرها و عادت تسير على الطريق الذي جاءت ، فمشى كهنوف خلف قاذفة اللهب و طاوعها مكرها بعد أن ألقى فكرة الفرار خلفه .. فكر أنه لو ألقى لها ظهره فإنها لا محالة ستقصفه بنقرة واحدة من أصابعها تكفي لإحالته إلى رماد .. التفتت له المرأة و قالت بصوت خافت : " لا تخف يا كهنوف لن أوذيك ..

اقترب مني كثير ًا حتى تشعر بالدفء .. قليلا ً بحيث لا تحترق .. سار كهنوف خلف العجوز و هو يتمتم " وما هم بضارين من أحد إلا بإذن اللّه "

- " من أنت أيتها المرأة الساحرة ؟ أقصد من أي الأجناس أنت ؟ "

ابتسمت المرأة العجوز بعطف وقالت : " قريبا ستكتشف ذلك بنفسك "

-2-

السيطرة !

توجهت نحو قدرها في حين عاد كهنوف ليربض مجدد ًا على بقعته التي رقد فيها و التي مازال نقش نومه مرسوم ًا عليها .. تمعن في الأرض فعاين آثار أقدامه حين توجه إلى المجرى و كما حين عاد منه لكنه - و يا للمصيبة - لم يجد أثر لأحد آخر غيره .. و حينها عاد لهواجس الموت التي ظلت تراوده قبل أن يصرعه النعاس ثم يستفيق محاصر ًا بهذه العجوز التي ربما تكون صادقة في زعمها فحضرت طعام ًا له الآن و لها فيما بعد .. أخذت تغرف من القدر إلى إناء فضي صغير لا يعرف كهنوف كيف أوجدته ثم اقتربت و مددته على بعد خطوتين منه .. قالت بلكنة تحذير : " لست مسؤولة عن كل نار ؛ لذا أعط كل نار حقها من الصبر حتى تكفكف غضبها و يهدأ لهيبها "

هز رأسه كهنوف موافق ًا و شغله تأمل المكان عن تأمل مغزى كلمات العجوز و راح يتعجب في روعة محيطه المطوق بزهور عباد الشمس و التي كانت بشكل مخالف لسجيتها لا تتوجه لعبادة الشمس التي في كبد السماء و إنما ظلت تتفرج المرأة العجوز و تطالعها فأينما ذهبت كانت الزهور تلفت ناحيتها و تذهب معها في كل اتجاه تمام ًا كما يفعل المتفرجون حين يتابعون مباراة في رياضة شُغِفوا بها

- " الآن صار بمقدورك التهام حبوب الذرة التي طهوتها بزيتي الأصيل "

انتفخ كهنوف بالحيرة و تورمت في بطنه التساؤلات حول هوية هذه المرأة الغامضة مع بعض اشتباه غبي ظل يدافعه بكل ما يستطيع كونه أبعد من عين الشمس .. ثم إنه لم يتمالك نفسه و إذا به ينقض على محتوى الإناء الصغير و العجوز تتابع نهمه بسرور و انشراح .. طلب دفعة أخرى فاتجهت باسمة راضية إلى القدر و جعلت تتبعها زهور عباد الشمس على تلك الوتيرة و هناك بدأ يحس ببرودة مفاجأة تعتريه عندما ابتعدت العجوز ثم اكتسحه الدفء مجدد ًا لما اقتربت منه فقال : " الآن عرفت من تكونين .. أنت بنت الشمس أليس كذلك؟ "

ضحكت عالي ًا و ضحكت معها الزهور و الأشجار و النار و كل شيء حولهما خ

- " كلا الأمر ليس هكذا " و تابعت " آح لقد ذكرتني ما نسيت و ماذا فعلت أنا بحق هذه الأرض إبان مراهقتي و صباي " سكتت و بدت شاردة قليلا ً ثم أردفت و وجهها ممتقع بالاحمرار : " لقد كنت يا كهنوف ذات عصر بعيد ، صبية خرقاء كأنتم يا معشر البشر و كما أن لديكم ذكريات تشعرون إزاءها بالخجل فأنا لا أشعر بالفخر أبد ًا كلما وجدت الماضي الأرعن يلاحقني أو يلوح لي من فوهة بركان على جبل هنا أو هناك "

اعترى كهنوف الذهول غير مستوعب للمعجزة الهائلة التي تحدث له بل و تتحدث إليه

- " يا إلهي إذن أنت ... "

احترقت الكلمة الأخيرة في فمه ؛ فابتسمت العجوز و رمت الغطاء الذي يدثر رأسها فصار جمرة كبيرة مشتعلة سرعان ما انطفأت بين التراب و استحالت سبيكة ذهبية بحجم رأسه تقريبا ً .. هم بأخذها لولا أن العجوز كانت تحترق بجوارها و تتلظى كتنور الحطب و شعرها الذهبي يتشعب و تتطاير منه ألسنة النيران نحو السماء كأنه شظايا انفجار ..

- " بحق ّ ِ من سواك أيتها الشمس الساطعة ، دليني على سبيل النجاة من هذه المتاهة اللعينة .. خذيني إلى الحقيقة أنا تائه على هذه الأرض و أبحث عن ... "

قاطعته الشمس بحزم قائلة : " لا تقل شيئا آخر فأنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك و أعرف ما تريد و ما تحتاج و لن أكتمك القول فأنا كنت أرقبك و أرافقك و أبصرك بنوري في النهار و حين أغيب كنت أشاهدك خلال انعكاس مرآتي الزجاجية "

ابتسم كهنوف في سرور" حقا ! كم أنا فخور أيتها الشمس العظيمة . تقصدين عندما لم يكن هنالك قمر في السماء كنت أسير بلا رفيق "

عاودها الغضب مجدد ًا فقالت و هي تزيد فوران ًا : " لقد قلت إنها فقط مرآتي أما سمعت ! و هذه سجيتكم دوم ًا يا بني البشر عاشقي قشور تجحدون فضل الحقيقة المتوهجة في عنان السماء و تعلقون آمالكم و أحلامكم بأحبال الكذب و الزيف و الاحتيال " ثم أردفت ساخطة ساخرة : " حتى شعراؤكم يتغزلون بالمرآة الجامدة و يهملون الوجه السني المعكوس على سطحها البليد "

شعر كهنوف بالعرق يتصبب من رأسه بسبب الجو الساخن الذي تسبب فيه دون قصد .. إذ أنه لابد أن يلطف مزاج الشمس المستعر سريع ًا قبل أن يتوقد غضبها أكثر فتذيبه و تذيب معه العالم بأسره .. قال : " اعذري حماقتي أيتها

الشمس العملاقة .. أجل كل ما قلته عنا و عن ما يسمونه (القمر) صحيح فلولا أن ذلك العرجون لا يقتبس من نور نارك و سنا مدارك لأضحى نكرة مجهولة في السماء .. صمت كهنوف لبرهة و جيزة و هو يفكر ماذا بوسعه أن يخبرها أكثر حتى تهدئ من ردة فعلها الحارقة " أنت الحقيقة ذاتها يا سيدتي الرائعة أما القمر فأحسبه التصنع و الزيف الذي يستغل عتمة الأرض للظهور و التباهي بالسراج و ليت سراجه نابع من ذاته و إنما مستعار من وهجك العظيم "ثم تابع و كأنه تذكر أمر ًا هام ًا " بمناسبة الحديث عن الحقيقة اعتدنا نحن معشر الإنس أن نشبه الحقيقة بك ترى ما رأيك فينا و في الحقيقة ؟ "

هدأ فوران النار في عين الشمس و خفت لهبها المتطاير من شعرها و شعر كهنوف أن خطته قد أفلحت في امتصاص غضب الشمس الهائل التي بدت آنذاك أكثر هدوء ًا و توازن ًا .. أجابت : " بما أنك سألتني كن صبور ًا معي و تحمل وضوحي و لهيبي "

هز كهنوف رأسه بحماس شديد و سعادة غامرة " سأعترف لك أيها الباحث عن الحقيقة أني أذبلت قدر ًا لا يستهان به من ناري و أنا أرقب رحلتكم في البحث عن أشياء عزت عليكم رغم أنها بين أيديكم كما أني أذبلتكم معي ، تابعتكم قرون ًا و قرون ًا و شعرت بالغيظ و الضجر في آن .. سئمت ُ من خطواتكم الثقيلة في السعي وراء الحقيقة .. و لعنتكم من الأعماق عندما وجدتكم تبصرونها ثم تسخرون سرعتكم القصوى و ذكاؤكم الخارق للفرار منها بل و التغطية عليها ..

تغير وجه كهنوف و بدا عليه الغيظ و الكدر " هل نحن كذلك ! .. أشعر بالعار حق ًا .. ماذا تعتقدين هل العيب في البشرية أم في الحقيقة؟ "

- " فيكم أنتم أكثر و أيض ًا في مزاجيتها و تمنعها فالحقيقة أنثى مغناج لا تهب نفسها إلا لمن تجرع في سبيل وصالها ملوحة البحر و دوار الطريق .. الحقيقة التي أعرفها تعشق الشك و تحتقر اليقين " ..

بدا اليقين في عرفها حفرة يركد فيها عاهات الإنسانية و عالات التبعية .. إنها تكره تقاعس عقولكم أيها البشر عن واجبها الذي يحتم عليها مسؤولية الكد من أجل اكتساب العلم و المعرفة.. لأن المعرفة مهر الحقيقة الذى لا تقبل عنه بديل .. و شرطها أن تزف إلى عريسها و هو بحلة الشك ليس اليقين على الإطلاق ؛ لأن عريسها بتلك الحلة السحرية قادر على التحليق و السفر إلى سماواتها العريضة التي لا شك فيها و لا جدال .

- " تقصدين أننا ... ترى ما السبب و سامحيني على فضولي لكنه نهمي للمعرفة و فرصتي لإدراك حقيقة الأشياء من لسان عليم خبير .. ناهيك أن تكون على لسان الحقيقة نفسها ؟ "

ابتسمت الشمس و رمقت كهنوف بإعجاب و قالت : " بمقدوري يا كهنوف أن ألخص مشاكل البشرية و بقية نكباتها عبر التاريخ في كلمة واحدة .. السيطرة .. أنتم مهووسون إلى درجة غير معقولة بالتسلط و التدخل في أقدار الآخرين و التحكم بمعتقداتهم و أفكارهم في أحشائكم .. تصرصر أحقاد الثعابين و نوايا العقارب في حين أنكم تدثرونها بالتصنع و النفاق .. على سبيل المثال – و لاحظ أنك من فتح هذا الباب على مصراعيه و أنت من جرني لهذا التداعي الذي أكره - أنتم لا طاقة لكم بما تسمونه " الحرية " .. و عندما يتعلق الأمر بها أنتم ممثلون رديؤون للغاية .. حتى ليبراليتكم المزعومة و بقية مصطلحاتكم العصرية كثيرًا ما تصيبني بالضحك الهستيري حين تصير مع مرور الوقت شعائر مقدسة و شعارات بلهاء .. تركعون بخضوع لأصنام تصنعونها من التمر و عند الجوع تأكلونها ثم تصنعون غيرها و هكذا دواليك مع أن الحقيقة تتوسل عقولكم للخلاص من أزمة اليقين فاليقين كما أخبرتك سلفا المستنقع الأزلي الذي يركد فيه خيالكم العبقري و قدراتكم الإعجازية على الإبداع و التجديد و الابتكار

على هذا المنوال استمر كهنوف يسأل و الشمس تجيب بسعادة غامرة كأنها بكماء انطلقت لسانها فجأة ذات يوم و بات بوسعها الكلام .. ظلت تحكي و تتلون تباعًا بالألوان ذاتها التي في السماء و فجأة و بينما كانت تحدثه عن أترابها من الشموس و تعدد له أسماءها رفعت رأسها فأدركت أنها أصبحت في المغيب و حينها لوحت بأصبعين إلى الأعلى فامتد منهما حبلين أحمرين كالشفق ذهبا في السماء باتجاه الشمس الكرة و عندها قالت : " انظر " و أشارت لنفسها في السماء ، " حان وقت رحيلي يا كهنوف مد يدك لهذا الشعاع فهو كفيل بأن ينجيك من وادي الضياع هذا حتى لا تبدد بقية حياتك فيه كأسلافك التعساء ؛ فهاهنا تكمن لعنة لا يخرج منها أحد و لم يسبق لأحد قبلك النجاة من هذا المنفى الأبدي .

امتقع وجه كهنوف و سريعًا جر الحبل و تعلق به بعد أن أدرك أن هواجسه كانت على حق و لولا حدوث هذه المعجزة لكان فعليًا مصيره الفناء مع قصته العجيبة بين ضياع هذا الوادي اللعين و ها هو الآن كهنوف يحلق بسرعة الضوء في الفضاء أبصره بعض الناس و حسبوه مذنبًا عابرًا مع أنه ليس كذلك و أثناء رحلته الجوية الخاطفة صادف في طريقه طائرات حربية و صواريخ تذهب للقتل و التدمير في كل صوب و اتجاه .. حملق في الجهات الأربعة فأبصر بني جلدته يعبئون الموت في قوارير حديدية يغلفونها بقراطيس الإفتاء و يتهادونها فيما بينهم و هم يرددون : " اللّه أكبر "

في نهاية المطاف المعيب حطت قدماه على شاطئ البحر الأحمر .. ترك الحبل فانخرط باتجاه الشمس كالتنين الطائر .. تفحص كهنوف حوله و لم يجد شمسًا إلى جواره و إنما التقطها و هي تلج في فم البحر و تتلاشى رويدًا رويدًا حتى اختفت كليًا و هو يودعها بامتنان و يلوح لها بذراعه .. ظل هكذا طويلاً إلى أن طمره الظلام مجددًا مصحوبًا بمرآة الشمس الزجاجية .. شعر بالحزن

لفراقها ثم مضى يشق طريقه على رمل البحر متفكر ًا هل سيصدق الناس قصته في وادي الضياع مع الشمس أم سيتهمونه بالدجل و الجنون .. ثم تنهد و تحسر على ضياع تلك السبيكة الذهبية التي صاغتها الشمس بنفسها فبها كان سيعمد صحة قصته العجيبة هذه أو على الأقل كان بوسعه أن يعرض عن مكذبيه و يتجه إلى المزاد ليعرضها لقاء مال طائل قد يدر عليه الكثير و الكثير من الملا يين التي سينفقها في كذا و كذا ...

حين انتهى خياله من إنفاق تلك الملايين قهقه كهنوف بصوت عال و ظل يضحك و يضحك حتى سقط منهك ًا على ظهره فوق الرمل و هناك لاح لناظريه القمر و كان يرتجف .. ظل يحملق فيه مليِ ًا ثم مد يده و تناوله بيمناه و كان بارد ًا من الخوف .. انتصب من مرقده غاضب ًا و جعل يركض بسرعته القصوى صوب البحر قابض ًا إياه كحجر قذفه بقوة في الماء و هو يصرخ : " لا أحب الآفلين " .

* * *

الفصل العاشر

الجزء الأول

-1-

" السُو مآل "

لأول مرة يشعر كهنوف أن البحر هادئ ً ا ؛ بالرغم من أن جزيرة حنيش صخور ً ا و أفاعي تتمدد لتلاحقه .. كم تمنى لحظتها أن يغضب هذا الكائن المائي ليدفع عنه تمدد و فحيح الجزيرة . " السُو مآل " هي الميثولوجيا الحاضرة في ذاكرته الآن للمكان المنتظر .. لم يعد يهتم بما سيبُتر من أعضائه فهو يؤمن بعودتها متى شاء ، و لم يعد يشغله الإنسان بتفاصيله الممسوخة التي عاناها منذ إفاقته من رقدته الأولى في الكهف بقدر ما تشغله تفاصيل ميثولوجيا المكان .

" السو مآل " هو المكان الإجباري الذي عليه أن يصل إليه قبل بغيته الخرافية مكة المحرمة . كل شيء في السفينة المهترئة " تايتنك " يتمرغ في الرذيلة ، إلا شيخ واحد يدأب على إصلاح ثقوب السفينة ، اقترب منه كهنوف يسأله " هل أنت مالك السفينة؟ "

هز الشيخ رأسه بالنفي

- " إذا لماذا أنت متفان هكذا دون غيرك "

- " إنك لن تستطيع معي صبر ًا "

- " حسنا هل أنت من أهل " السو مآل" ؟! "

-" أنا من " سرود " الجبلية "

- " هل أستطيع مصاحبتك إلى مقديشو"

- " ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبر ًا "

- " ستجدني إن شاء الله صابر ًا و لا أعصي لك أمر ًا "

لم يشغل البحر نفسه ب. " تايتنك " العجفاء فهو يدخلها متى يشاء و يخرج منها ببركات الشيخ .

مساء السفينة أحمر مفرط في السواد .. الأعمدة الحية السوداء تضاجع النساء و هي مخمورة وسط دخان كثيف من الحشيش .. يرددون تعويذات إلاهية تبعث في حيواناتهم العجز ، وحده الشيخ يسبح بشهوة حتى مطلع الفجر قبل أن يختفي مع حورية من البحر.. يبحث عنه كهنوف في كل مكان في السفينة ، لا يجده ، و عند الشروق يراه عاريً ا مسجً ى على جسده في قبو السفينة يسبّح بشفتي بشهوة أقل .

يعود الشيخ لإصلاح ثقوب السفينة.. يلح عليه كهنوف بالأسئلة و لا يجد غير" إنك لن تستطيع معي صبر ًا . "

ذات فجر موغل في الفجور و العبادة ، صحا كهنوف على صراخ و عويل و أصوات رصاص .. ذبح و نهب و قتل .. جميع الألوان تحضر هذا البهاء الدموي .. نفس المسوخ البشرية في العراق ، في الشام ، في مصر، في حنيش، يتهيأ له أنهم يتناسلون عبر الفضاء .. أي حيوان منوي هذا الذي انفجرت مضغته .

هرع إلى الشيخ يسأله يصرخ في وجهه " ماذا يحدث ، كيف جاء هؤلاء المسوخ من أعماق البحر ، يذبحون وكأنهم يضاجَعون ، ينهبون و هم يكبرون ، من هو الله الذي يكبّرون باسمه ، أنت تعرف كل شيء ، أجبني حالًا " . و لأول مرة يأتيه جواب مغاير من الشيخ " إنهم الشباب المسلم و " بوكو حرام " ..!! " اقترب منه أحدهم .. فتشه نهب كل شيء معه ، ثم لمعت عيناه بين فخذي كهنوف .. صرخ كهنوف رعبً ا " لا ، أترك هذا لي ، لا ، اتركه و خذ ما تشاء من جسدي " . نظر الرجل إليه في شهوة ، " سينفعني عند الحوريات أيها النذل " . أفاق مع الفجر ليجد الحورية تضاجع الشيخ هذه المرة أمام عينيه ، تلفت ، عبثً ا لم

يستطع تبيين ملامح المكان ، تحسس عضوه ، لم يجده .. أصابه الفزع صرخ صداه " لماذا لم يعد مثل بقية أعضائي المبتورة ، أيها الشيخ أعد إليّ عضوي أعده إليّ أيها الفاجر."

- " ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبر ًا. "

الأشلاء ترسم لوحة مقدسة و بقايا النهب و السلب خائفة بين الشقوق ، وحده الشيخ يرقع ثقوب السفينة .. يستعطفه كهنوف ؛ لمساعدته في إعادة عضوه المبتور .. لم ينتابه هلع من قبل فأعضاؤه تعود إليه متى شاء لكنه الآن يتحسر .. تب ّ ًا لهذا المسخ الذي لا يملك لحورياته من حرّ أعضائه .. لا يجد جواب ًا عند الشيخ غير " إنك لن تستطيع معي صبر ًا . "

على أحد شواطئ مقديشو ، وجد كهنوف نفسه عاري ًا وسط تجمع كبير من الناس ، يهمهمون و يركزون أنظارهم على بقعة ما فيه .. شعر َ بالخجل .. يُدرك أنهم يسخرون منه ، و يعلم الآن بأنه في نظر الجميع فاقد الأهلة ، وضع يده ليغطي سوءته الغائبة ..

- " إنه موجود و رب الكعبة موجود ، لقد عاد إلي ّ َ أمعنوا النظر َ أيها الرعاع ، بركاتك يا شيخنا .. الهمهمة ترتفع و الاحتشاد عليه يتزايد و هناك في مكان قصي من الشاطئ لمح الشيخ مبتسم ًا يلوح له بيديه ، ابتسم من كل قلبه و هو يردد ليست هذه " السُو مآل . "

مع بداية موسم " التانجاميلي " يعتاد الشباب المسلم النزوح من بربرة ٍ إلى " مقديشو" ثم الإبحار عبر البحر ؛ حيث القرصنة تفتح لهم أبواب الجنة ، تفر جميع الحيوانات من السهول ، وحدها النشوى تسوقهم إلى هذا الرب المجهول ، منذ انسلاخهم عن المحاكم الإسلامية ارتفع سقف رغباتهم الدموية لتجميع أكبر عدد من حوريات الجنة .. تلقوا في " أريتريا " جرعات مكثفة لتهيئة أعضائهم التناسلية على الكفاءة العالية و تقديم القرابين البشرية لتحيق هذه الهبات المقدسة .

هناك في شارع جميل ؛ تتعلق أفئدتهم بالأوراق القابعة في خزائن المبنى المحصن توزع الشباب الستة لمحاصرة المبنى و تركوا سابعهم يتوجه إلى بوابة المبنى محدث ًا دوي ًا خرافي ًا .. اتسخت الأشلاء ببعضها في المكان العصي و تمنعت عليهم الأوراق النقدية فكانت أجسادهم أكثر هشاشة منها .. لابأس ف الثمن قادم عند الرب .. نجح اثنان منهم في الفرار باتجاه الساحل كان الوقت فجر ًا و المدينة تصلي لرب آخر .!

يتلذذ كهنوف برؤية الشيخ و هو يضاجع الحورية في هذا الهزيع من الزمن .. لقد منحه ذلك العضو الخرافي إحساس ًا لم يشعر به من قبل .. هجم الرجلان الفاران على خلوتهما وسط إطلاق نار كثيف .. اختفت الحورية في لمح البصر ..

نظر أحدهما إلى جسد كهنوف العاري و تبادل النظر مع رفيقه .. ثم ما لبثا إن ركزا النظر على ما بين فخذيه .!

- " لا لن أسمح لكما هذه المرة ببتره فلتذهب حورياتكم إلى الجحيم ، أيها الشيخ إن سألتك بعدها فلا تصاحبني . "

تشابك الرجلان ، استحالت الهمهمة إلى صراخ ، إلى إطلاق نار ، غادرا معه مع ًا الحياة من غير ذلك العضو ..

وضع الشيخ يده على كتف كهنوف " هذا فراق بيني و بينك ، سينبئك الولد الحلا ل في البلد الحرام بما لم تستطع عليه صبر ًا " عادت الحورية من جديد لتحمله على صدرها إلى أعماق البحر ، هو أيض ًا لم يعد بحاجة إلى الشيخ ، و لم يعد بحاجة أيضا إلى " السُو مآل " ، فلابد من الولد الحلال في البلد الحرام و لابد من مفتاح صنعاء .

الجزء الثاني

-1-

الحلم و الحقيقة .. لا فرق

أخذ ذلك الجلد الغريب العملاق الشبيه بالسفينة يمخر عباب البحر الواسع اللامتنـ اهي و على متنه كهنوف الذي كان في حالة يرثى لها ؛ و قد أكلت الحمى جسده ، و نخرت عظامه و ظل قابع ًا في إحدى تجاويف الجلد لا يبرحه ؛ ممدد ًا فوق وبر مسد َه كفراش ، متدثر ًا ببطانية ناعمة و سميكة اقتطعها من شواطئ غزة ؛ من تلك النبتة البحرية السبخة التي لها أوراق ناعمة كأذان فيل .. كانت أسنانه تصطك من المرض و جسده يرتعش من شدة الحمى و يتنزى دهن ً ا و جبينه يرشح عرقاً حامضاً و كأنه كوز ماء .. كان يشاركه التجويف لاجئ صومالي علق هو الآخر بأحد أمعاء الجلد بعد أن تحطم قاربه ؛ و غرق في البحر ، و لولا مرور سفينة الجلد هذه لمات غرق ًا .. كان يقوم على خدمة كهنوف الذي ضربته الحمى و ضاعف منها دوار البحر و رحلة الشقاء و العناء .. كان " فارح " طويلا ً فارع الطول برأس طينية فجرت تساؤلات كثيرة و حيرة بمخيلة كهنوف كيف لم تذب في الماء ، و كان بالرأس الطينية الجافة ثقبان صغيران بدل العينين ؛ يبصر بهما الدنيا بكل وضوح ، و كان يرتدي شملة افريقية مزركشة مصنوعة من جلود الثعالب الصغيرة و لازالت رؤوس الثعالب الصغيرة معلقة بها ؛ حوالى 13رأسًا مازال بها روح تفتح أشداقها ملئ الفضاء بصياحها القبيح كل ما شعرت بالجوع و العطش ؛ فيسارع بعرضها للنار فيسكت جوعها و

عطشها . و كان يعتمر كوفية إفريقية مزركشة مصنوعة من جلد أصلة و رأسها الذي غادرته الحياة في مقدمة الوجه يدليه لقرب أنفه ، و بيده سبحة طويلة غريبة الشكل تحوي مائة خرزة ملونة نحتت خرزها الملونة على أشكال حيوانات و طيور و حشرات و عظام .. كان كهنوف دائم الاستغراب ، من أين لفارح رفيقه الصومالي هذه السبحة العجيبة ؟! و إلى ماذا ترمز؟! و إن لم تكن بأعجب مما رآه و لاحظه في رحلته الغريبة والعوالم المختلفة التي شاهدها خلال رحلة الهروب الكبير منذ أن فر إلى ذلك الكهف المهجور في جبال بغداد هو و المئات من السكان الفارين من بطش التتار الذين أقسموا لن يتركوا حيـ ّ ـَ ا في مملكة عبدالله المستعصم الخليفة الأبله و السخيف ؛ الذي أوصله إلى هذا الحال ، و تسبب في قتل الآلاف لقد أعماه عن الخطر المحدق بمملكته ، أحـ ـَب اللعب بطيور الحمام و ، ركوب الحمير، وسطوة ، و تدخل أمه قوت القلوب ؛ تلك الجارية الغبية اللعوب و المتصابية . كم نصحناه أن يتخلص من مؤيد الدين " ا بن العلقمي " و زيره الخائن و كم هم كثرٌ اليوم ؛ فكم من علقمي ينفث سمه في بلاط دول العرب و لم يسمع لندائنا . غلبه النعاس و راح في سبات عميق و باله مشغولٌ بما رآه ، يعجز عن تفسير ما رآه في عالم الكوابيس و واتته أحلامٌ و كوابيس مزعجة و مختلطة كثيرة ؛ حلم فيها أن الجلد السفينة الذي يقله و فارح تاه ـَ في عرض البحر بعد تعرضه لعاصفة شديدة تسببت في شل قواه و زعانفه الضخمة و صارت تجرهم رغم استماتة الجلد و محاولاته الفرار بقوة رهيبة نحو المجهول ؛ لتنقشع العاصفة الهوجاء و يجدوا أنفسهم وسط ضباب و سديم كثيفين ؛ أخذ ينقشعان رويد ًا رويد ًا ، و كم كانت مفاجأة صاعقة و مزلزلة لهما ، ما رآه أمامهم بالرغم من أن ما يحلم به و يتخيله كهنوف أمامه ، هو حلم مزعج بل من أزعج ما مر به من أحلام و كوابيس في حياته ؛ لكن الأمر صار له سيان فلا فرق بين الحلم و الحقيقة لديه الآن و الواقع لا يختلف كثير ًا عن الأحلام بل كثير من الأحلام التي رآها في المنام ؛ فيستيقظ صباح ًا ليجدها متجسدة أمامه و إن اختلف المشهد . هكذا منذ أن سقطت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية و استباح التتار دماء أهالي بغداد و صارت دمائهم هينة رخيصة و كان التتري الموتور و الحاقد يجهز على الإنسان العربي و كأنه يذبح طير ًا بقلبٍ بارد ؛ بل كانوا يثقبون الأسنان بمثقاب سحري ينزع و يثقب و يشكلها كقلادة بلحظات و الناس أحياء يصرخون ، و النشوة و السكينة و التلذذ تملأ صدور التتار ، و يرقصون رقصات مجنونة ماجنة ، حتى أن بعضهم يشربون دماء الجرحى وسط توسلاتهم و صراخهم حتى يتحول جثة متفسخة جافة .. صار الناس بحالة من الخوف و الذل و الهوان و الخنوع ؛ حتى أن التتري كان يطلع الكهف لحاله ؛ ليظل ببابه ينادي للرجال فيخرجون الواحد تلو الآخر ليذبحهم دون أن تتحرك الشجاعة في نفس رجلٍ واحدٍ منهم ؛ ليقتل ذاك التتري أو تكر مجموعة لتختطف سيفه و تقتله إذا لم يكن من الموت بدًا ؛ فمن العار أن تموت جباذ ًا .. كان كهنوف هو الوحيد الذي امتلك الشجاعة وكان آخر من يقف في كهف الموت الذي أغرق بالدماء و الجثث و تحدى ذاك التتري ، و راح يرميه بـ

الحجر حتى هشم رأسه ، و من ثم هجم عليه ؛ هو المثخن بالجراح الذي أخذ السيف ، و قتله ، و أطل من باب الغار ، و راح يهتف في المغول ، و يشتمهم ، و يسبهم ، و هم منشغلون بأعمال القتل ، و السلب ، والنهب حتى تنبهت له كوكبة من الجند و تذكروا صاحبهم الذي طلع الجبل ليزهق الأرواح ، و يحز الرؤوس ؛ و القضاء على كهنوف داخل الكهف و هو موقن لا محالة بمصرعه . ظل يجري و يجري في حلق الكهف الذي تحول لكائن خرفي .. كان يجد صعوبة و قدماه تثقلان بسب لعاب الكهف اللزج و الدبق حتى ابتلعته حنجرة الكهف ، و هو يسمع وقع أقدام التتار تلاحقه و يرى مشاعل أوقدوها ليستبينوا الطريق و يلحقوا به إلى أن داست قدماه تلك اللحمة الرخوة الشبيهة بالمدمك الحجري ؛ ليجد نفسه و قد هوى من شاهق في نقرة و المدمك اللحمي يلتف بحركة لولبية و ينغلق سادًا عنه طريق العودة و يحيل بينه و بين التتار .. استمر يهوي في غيابة الحنجرة التي ابتلعته . هوَت به في قرارة جب عميق ليرتطم بعد ربع ساعة من التحليق في كومة بركة من الفضلات ، و راح يتحسس المكان و يشتم .. كانت رائحة عفنة مقززة ، تنبعث من المكان .. كان يشتم رائحة طعام متخمر، و عفن و يداه تتحسس . أحس بأشياء كروية و أجسام صلبة متفاوتة و فضلات أدرك أنها عظام بقايا هياكل عظمية تسبح في بركة من الوحل لناس سقطوا في الحفرة التي سقط فيها و أدرك أنها نهايته لا محالة .. سيكون الموت صبرًا في هذه النقرة .. مضت برهة من الزمن و كهنوف في حيرة و قلق و خوف ؛ لكنه أخذ يهدئ من روعه و ينصت و هو يلهج برمزيات ما و يبدو أن رمزياته سريعة الاستجابة في أوقات كهذه ؛ إذ أحس أن هواءً باردًا يتسلسل .. أدخلَ إصبعه في فمه و بللها ثم أخرجها أحس ببرودة في أصبعه تهب عن يساره .. زحف على يديه و قدميه باتجاه الهواء البارد ، و هو الخائف أن يهوي في نقرة أخرى . استمر يحبو على قوائمه الأربع .. خيلَ إليه إنه يسمع وقع سنابك الخيل و حوافرها و جلبة قريبة منه ثم حدث مالم يكن يتوقعه ..

-2-

داخل المسجد

أفاقا من النوم .. كانت مفاجأة صاعقة ما رأى كلاهما - كهنوف و فارح - في الحلم .. كان حلمًا مرعبًا مفزعًا و مشتركًا بطريقة تخاطر فيزيقية ؛ غزا أقراص الذاكرة الدماغية لكليهما .. انقشع الضباب ؛ ليكشف لهما عن عشرات السفن الجانحة و الغارقة من مختلف الأحجام و الأنواع و الأشكال تعود لحقب زمنية متباعدة .. كانت هناك سفن شراعية خشبية عملاقة تعود لعصر " الفايكنج " ، و سفن شراعية أقل حجمًا تعود لعصر الفينيقيين ، و سفن بخارية تعود لعصر النهضة ، و أخرى تعمل بالفحم الحجري ، و أخرى طويلة بمجاديف مشدودة و قوية و كانت توجد العديد من حاملات السفن و جنادل و يخوت ملكية قديمة

و حديثة و سفن المتحاربين في الحرب العالمية الثانية ، و فلكات كانت منها مدمرة و منها لا زالت بحالة جيدة و لم يكن هناك ما يوحي بوجود أي حياة عليها .. كان يشد ذهولهم ، قعر البحر الصافي الرقراق ؛ كأنه نبع ماء عذب و ليس بحر ً ا لجي ً ا مضطرب ، تستطيع أن تنظر من خلاله مئات السفن الأ خرى أيض ً ا من عصور و عهود و حقب تاريخية مختلة .. كان لجلد السفينة الذي أعطب بفعل قوى سحرية غامضة يبحر من تلقاء نفسه ، و كأن هناك أشباح خفية تقوده . استمر الجلد يبحر بهدوء و المزيد من السفن تظهر .. كانت تختلف كلي ّ ً ا عما شاهدوه . تعب كهنوف من مناظر السفن الكثيرة و من طول الرحلة و شعر بدوار البحر يضرب رأسه بقوة و يعصف به ؛ فراح بغيبوبة عميقة و لمح قبل سقوطه طبيب على شكل حصان البحر يمرق من إحدى الغواصات الغارقة و يهرع إليه بأكتاف قوية تحمله ، و تنقله إلى فراش وثير في أحد اليخوت المهجورة و هناك تم وخزه بإبرة ، و حقنه بسائل غريب ، و راح يغط في نوم عميق و داهمته الأحلام مرة ً أخرى و دخل في حلم آخر ؛ حلم داخل حلم ؛ حلم َ فيه بالسفينة و قد جنحت على شاطئ جزيرة غريبة كانت معسكرًا لقوات غربية من القرن الحالي رأى فيه جنود ً ا يصعدون للسفينة و عليهم شعار المنجل و المطرقة و آخرون يرتدون زيًا دمويًا بشعار نسر أصلع ، يأمرهم جميعا رجلٌ يخافون سطوته و بطشه .. كانت له اليد الطولى في الجزيرة .. كان يرتدي بزة مخيفة مقلمة بالأزرق و الأبيض ، يحمل شعار نجمة داوود و يضع قناع ً ا مرعب ً ا على وجهه .. تمكنوا من إنزال كافة الركاب عن السفينة و وضعوهم في زنازين متجاورة في سجن كبير كان منحوتاً في جذع دوحة ضخمة .. ظلوا محبوسين لفترة طويلة لم يعرف كهنوف مدتها .. كان قلق ً ا على رفيقه " فارح " الذي خدمه كثير ً ا في رحلة هروبه و لازمه في مرضه و كان يؤنس وحشته و يرى فيه تميمة حظ أخرجوهم إلى ميدان فسيح لتناول الغداء انتصبت في وسطه بخطوط منظمة عشرات الموائد العامرة بالطعام ؛ و المصنوعة من الأ صداف البحرية كانت تلتف حولها بطون خاوية لجنسيات مختلفة من أسرى شتى بقاع العالم ، لاحظ حوله .. هناك ينتصب مسجدٌ كبير و كنيسة ، تناول طعامه .. توجه للمسجد ؛ تفاجئ أن المسجد يصلي به اليهودي و المسيحي و المسلم .. كانت مفاجئته أكبر ؛ فالإمام هو الجنرال المقنع الذي يلبس البزة العسكرية بشعار النجمة .. لم يمهلهم للاستغفار نهض يتكلم العربية بطلاقة .. كان صوته مجلجلا ً ، هادر ً ا ، مغناطيسي ً ا ؛ يفتح شدقيه ملء فضاء المسجد و كان يترجم للإنجليزية .. أخذ يشرح لهم عن العدو الذي يهدد السلام و الأديان السماوية في العالم ، و حكى عن ضرورة استهدافهم ؛ سياح ً ا كانوا ، أو مواطنين ، و أنه يجب تفجير المساجد و المستشفيات و محطات مترو الأنفاق و المطارات و كل مكان يقصدونه .. نعتهم بالجراثيم و بأنهم شرٌ و خطرٌ ، و إن الإس لام الحقيقي هو ما هم فيه اليهودي و المسيحي و المسلم ؛ يصلون مع بعضهم في دور العبادة . و أن يعيشوا حياتهم في عبادة ، و لهو ، و حرية معتقدات ، و نزوات ، و أن يتشارك كل منهم العبادة ، و الطقوس الدينية ، و إن أسهل طريق

للجنة الذبح ، و التفجير للأعداء ؛ أما غيرها ، فسيلبثون إلى قيام الساعة و لن يصلوا الجنة باكر ًا ، و سيتعرضون للفتن التي تحرمهم ريح الجنة و مسكها .. تكبيرات دوت تهز الأرض من تحتهم ، و هتاف ، و حماس اشتعل في مسجد " ضرار " ذلك و تصفيق ًا حار ًا التهبت الأكف حتى أدميت و سالت دماء قانية لوثت حصيرة المسجد .. بارك بعضهم لبعض عقب الخطبة العصماء ؛ بل العمياء تم أخذ أفواج كثيرة منهم و تم توزيعهم على عدة خطوط ؛ طيران ، و سفن ، و تم توجيههم لطرق ، و بلدان شتى ؛ لم يميزوا بين الشرق و الغرب .. كان هدير الطائرات مفزع ًا و مخيف ًا ..

-3-

" أبقا خان "

انتفضا من نومهما .. استعاذا بالله من الشيطان الرجيم . آثار النوم على وجهيهما تمامًا حتى اقتحمت غرفتهم البدائية العتيقة بتجاويف الجلد رجلان أسودان من رجال القارة الإفريقية و أقتادهما للأعلى هو و فارح ..لم يدر كهنوف ما يحصل أمامه ؛ حلم أم حقيقة .. هل مازال في الكوابيس الغريبة المتشابكة ؟!

على ظهر الجلد هو و فارح ، لاحظا وجود 12 قرصان ًا مسلحًا بأسلحة آلية و انتشروا يحاصرون السفينة من جهتين متقابلتين .. قاربان بدائيان و على كلا منهما قرصان .. كان في منتصف ظهر الجلد ، جوار نتوء عظمي رجل خمسيني بشعر أفريقي أجعد يجلس على كرسي بلاستيكي أبيض ، يدخن لفافة من السيجار الكوبي الفاخر ، يحرسه مسلحان شابان ، ميز فيه كهنوف كبير القراصنة .. كان ذهنه مشوش ًا و مضطرب ً ا ؛ يرى فيما يراه النائم و اختلط عليه الحلم بالواقع . أراد أن يخدش رسغ يده اليسرى بظفره ليتأكد من أنه مازال واعيًا و لا يحلم .. اندهش عندما وقعت عيناه على رسغ يده كان هناك بالفعل بقعة دم متجلط لجرح لم يمض عليه سوى ساعتان ؛ الأمر الذي ضاعف من مرضه و عادت الحمى مجدد ً ا تغزو جسده ، هذه المرة بقوة أكبر و ازدادت ح الته سوء ً ا ، شعر بنفحة صداع حاد تهب ، تضرب رأسه .. تكاد تفتته .. خر مغشي ًا عليه ؛ و لكن هذه المرة لم يتم إسعافه .. أخذ جاثوم ٌ قوي يجثم على صدره .. عاود الحلم بالتتار يتدفقون عبر النقرة و من فتحات جانبيه ؛ ينسلون إلى معدة الكهف .. ضحكة شامتة صفراء لقائدهم الذي وجد نفسه وجه ًا لوجه أمامه " أبقا خان " ؛ قائد حرس " هولاكو خان " و شريكه في القتل ، و الذبح ، و السحل ، و الدمار ، و الخراب الذي حل ببغداد ؛ عاصمة الخلافة الإسلامية التي تركها أثر ً ا بعد عين . أفقده منظر " أبقا خان " صوابه و أوقد نار الخوف الخامدة في فوائده ، و ظل الجاثوم يضغط على صدر كهنوف أكثر و أكثر .. قهقهة " أبقا خان " تجلجل و صداها يعربد في الكهف السحري حتى كاد يختنق

و يلفظ أنفاسه لولا أن توقفت تروس عقله عن الدوران و الحلم ؛ لينتفض مفزوع ًا على صوت رقيق يناديه أن ينهض .

أفاق كهنوف ليجد أمامه فتاة صومالية ً رقيقة ، بنهدين عظيمين رجراجين ، و مؤخرة عاجية ممتلئة ، ذات بسمة لطيفة ، حس ِبها في أول الأمر فتاة َ " الأ قصر " النوبية التي وقع في غرامها ، ثم لم يلبث ذهنه أن أخذ يصفو ، و تبين له فيما بعد أن اسمها " عنبرو" و هي ممرضة صومالية تقوم على شؤون المرضى من الأسرى في معسكر القراصنة ..

- " حمد الله على السلامة " كهنوف " ، لقد نمت أربع ًا و عشرين ساعة ، و قد كنت تهذي و تصيح ، و تتحدث عن أمور ٍ تاريخية و عن الخلافة و أمور أخرى لم أفهمها . المهم ، هذا طعامك كلْ جيد ًا و لا تنسَ تناول بقية علاجك ، و كن مستعد ًا ؛ فبعد الطعام سيتم التحقيق معك لتحديد مقدار الفدية التي سيطلبها القراصنة من أهلك . "

هكذا هم الغرباء ؛ لا يتركون لنا مجالًا للتفاعل بالقدر الذي نحتاج إليه .. لم تفكر هذه الممرضة به فيمَ إذا كان يريد شيئًا إضافيًا ؛ بل على العكس ، الضروريات فقط و بطريقة لا تشعرك مطلقًا أنها ضرورية ..

تم أخذه لخيمة التحقيق ، و حقق َ معه القراصنة .. كان الرجل الذي يحقق معه ضخم الجثة ، مفتول العضلات ، بساعدين قويين ، و بملامح إفريقية خ الصة ، قاسية ، و شفتين غليظتين ، يجلس على كرسي جلدي وثير ، و أمامه منضدة خشبية متسخة عليها إبريق شاي و عدد من الأكواب ، و منفضة ، و دفتر سجلات أسود كبير ..كان يداعب في يده قزم ًا صغير ًا أشبه بالضفدع و بحجم الأرنب مربوط ٌ بسلسلة ذهبية دقيقة .. استمر التحقيق مدة نصف ساعة ، - فجأة - هوى أحد رجال المحقق بإشارة منه ؛ صفعة مدوية على خد كهنوف جعلت أسنانه تصطك و عيناه تدوران في محجريهما من شدة الصفعة ؛ سببت له صمم ً ا مؤقت ً ا في أذنيه .. دخل زعيم القراصنة الذي كان في الجوار إثر سماع جلبة في الخيمة ؛ فلزم الجميع الصمت ، ليس فقط بسبب سطوته الشديدة ، و قسوته ، و وحشيته مع الأسرى ، و القراصنة بل أيض ًا ل وجهه المخيف ، و البشع الذي يثير التقزز ، و الرعب ، و الخوف في قلب كل من يشاهده .. لقد كان لكبير القراصنة نصف وجه كأنه مسخ بشري .. كان أشبه بحبة الكمثرى ، و له نصف أنف ، و نصف شفة ، و نصف عين ، و لسان مشروم كلسان ا لأفعى .. كان مسخ ًا بما تعنيه الكلمة .. تصاعدت في المكان رائحة روث ناتجة عن تغوط كهنوف فوق نفسه من شدة الخوف و الرهبة ، و الرعب الشديد من المنظر القبيح الذي تجسد أمامه ، و من تلك الرائحة النتنة ، و القيح الذي يسيل من عين القرصان .. وجد نفسه يتقيأ رغماً عنه ، في حين اندفع القرصان المتزلف يقبل يد الزعيم الضخمة ، و يبادر سيده بالكلام قائلا : " سيدي هذا المعتوه يلعب بذيله ، لا شك أن لديه أسرة كبيرة فاحشة الثراء ، ستفتديه ؛ هو

يريد أن يخدعنا ، و يحمي مال أسرته . يثرثر بكلام أحمق و يقول إنه من عصر الدولة العباسية ، و قد فر على متن هذا المخلوق الغريب " الجلد " من غزو التتار عبر هروبه في جوف كهف بشري انتهى بسقوطه في قرار حنجرة و بلعوم ؛ ليستقر بالمعدة . و الكثير من هذا الهراء سيدي " .. تم منع الطعام و الشراب عن كهنوف و تعريضه للشمس يوم ًا وليلة حتى احترق جلده ، و ضمر ، و أصبح شبيه ًا بمومياء أثرية ، شارف على الهلاك و استمر تعذيب القراصنة له نفسي ًا و جسدياً .. كانوا ينصحوه بفداء نفسه ، بالتكلم عن أسرته و عنوانه و ح التهم المادية لإنقاذ نفسه من العذاب و الشقاء ...

-4-

هروب

منتصف ليلة اليوم التالي ، و قد شارف على الهلاك و هو في حالته الرثة يجتر الضعف ، و الوهن ، و عذاب الهروب المر .. مقلتاه مشنوقتان في حلق السماء .. يرقب شمس بلا نور ، و قمر بلا ضياء يقتتلان ، و النجوم ، و الكواكب قد ا نقسمت نصفين ؛ نصف يقاتل مع القمر ، و الآخر مع الشمس .. يخرج من بين مثار نقع المعركة ظلٌ عارٍ ، ينزل حتى قرب خيمة " عنبرو " يتسلل على أطراف أهدابه يعود بمعية " عنبرو " . فرحة عارمة تجتاح أشلائه المعذبة و الموثوقة إنه ظل الصبية الراعية و " عنبرو " يسابقان عقارب الزمن التائهة .. يطعمانه خلسة يقاوم الوهن ، و الإعياء مذهولًا ، و شرهاً .. يزرد الطعام دون مضغ .. يعب من قطعة غيم عابرة ناداها ظل الصبية .. يروي عطشه تنتفخ بطنه كالقربة ، و تورد صورته المزرقة .. يطوي كتاب جوعه وعطشه يزهر ألأمل في جوانحه إحساسًا يتلألأ ك النجم بقرب الخلاص .. قلبه يدق بشدة ؛ يتوق للحرية يتأرجح الغيم يحجب أفق السماء ...

* * *

الفصل الحادي عشر

-1-

عبْر الأزل

- " حححح ... "

- " آاااا... "

- " دعو.. كم ، أرج و.. ووه ، أأنتم ...، ، اتركو..بشر ؟ ، ربا.. ووه ، يالل .. اااه ... "

تضامنت الأصوات لتخسف بالمقصلة ، و لا صوت يملك الجرأة ليتقدّم ..

- " اسلخوا جلده ، و حضّروا الشّواء "

تفرقعت قهقهةٌ مقيتة من مغارة القرصان .. تقف الدهشة على عتبة الانفعالات ، تعلن عن عجزها في التخطّي . شمس الهجير تنمّلت فاغرةٌ فاها لتقترض بعضَ لعاب السحاب . استجمعَت بقايا إفرازاتٍ لمسامات إنسانية كي تبلّل زخّة غيثٍ تكورت على مخلوقٍ جريءٍ يحترق حيّا ؛ علّها تقص حكاية المساء على ألسنة اللّهب فتتزمل بالنعاس .. تذرعت اللظى ببقايا أنفاس الأسير ، و زمجر تلظّيها ناقماً على تأنس الشمس : " هييي ..أيتها الملتهبة ..أتسمّيمنني بالدواء ؟! ..يا لكِ من بلهاء ! ، لو أمكنني الهبوط لدفنتُ غرورك باشتعالي ."

- " لو !! تستحقين قبلة امتنان ؛ نفختِ الهمّة في فتور أبنائي .. " قاطعتها النيران بانتشاء .. انفرجت أسارير الشمس مع تقوسات البسمات

- " أباليسكِ زمرة جبناء مخذولين في كل عالمٍ خضير ، يمطره الذّكر الغزير ." حدّقت النيران للأعلى بدقة .

- " تثيرين اشمئزازي بتأييدكِ لسّراق خبايا أرحام كل أمٍّ مخدورة ، و فضاعة مواقفكِ تكمن في غياب الستار الذي يذود عن بكارة العذراوات شهوات الوحوش " و تمتمت بغيظ " سأعمل حتى الرمق الأخير على تكرير فضلاتهم القذرة إلى أفواههم كرّةً أخرى ." .. التمست استطلاعات الأشعة تمتمات النيران ، فتصدّت الشمس للموقف بالردّ : " من شأن خصخصة العوام جلب الويلات ؛ أكفّها تفضّ النزاعات بينما تغور في أحشائها جُلّ مؤججات الخصام . " .. شدّقت النيران ساخرة " تتفلسفين منذ قرونٍ بعيدة ! . تقبّلي سهماً من أقواس الصراحة . سيحلّ الظلام بعد صراعٍ مرير بين بضعة عشر دقيقة ؛ ليجبركِ فناؤها على المنام . حينها ستصبحين مثيرةً للشفقة . "

- " أحترف تهشيم أوصال الظلام ؛ ما عاد يوهنني أو يثير مخافتي ..أما أنتِ يا عجينة عزازيل ، فبأمرٍ ربانيٍّ واحد ستُمسخين إلى قطعة جليد !! " .. انفعلت النار ، وبدا على وجنتيها الغضب " اغرُبي ..مَن وهبَكِ الحقّ؛ كي تسنّي لي المسار ؟! "

- " ألهمني الرب ، شقّ عباب الظلام عبر كوّةٍ مغمورة على جدران سطحي المعتم "

إنزلاق

استمَرّ الجدل لعقودٍ من الزمن ؛ حتى تسلل اليأس - عبثاً- إلى عقلية الشمس ؛ فلوّحت الخيبة لأوان الغروب ، و تدثرت الشمس بملاءة الأصيل ، ثم استلقت على أريكة الغياب تاليةً ما تيسّر لها من الأذكار؛ لتُناجي ربّ ابراهيم حول بتّ النظر في قضية المساء . النار أيضاً شعرت بالامتلاء بيد أنّ فوجٌ من الوزغ شكّل هالةً حولها ، يتقدّم الفوج كتيبةٌ وزغيةٌ تتقيأ أفواهها نافوراتٍ نفطية ؛ و جذلا ً ينهض السعير بالمدد . تقف خلف الكتيبة المدرّبة طبقاتٌ من جماهيرٍ غفيرة للتحفيز إما بالتصفيق ، أو بإطلاق أصواتٍ مشؤومة تلهم النيران كالصفير و الصراخ على وقع الطبول الشيطانية . معظم الأسرى يتصببون عجز ًا ، أعينهم تخندقت بما يكفي ؛ لتلهف القراصنة ، و حواجبهم تقطّبت بين مقلة تحدي و أخرى تحكي ؛ لتعصف بالرواد .

تخدّر كهنوف كليّاً ببشاعة ما رأى ..تمنى للحظةٍ أن يشفق عليه وحشٌ برّي فينقضّ عليه ؛ليقتلع عينه الثّكلى ؛ علّ العمى يمسي ملاذًا ً ساكناً كالنفق الوهمي الذي تنخره عظام الصراعات ، و ينفخ فيه اللاجئون من أرواحهم التائهة لكن الهمس السرمدي لازال يناجي كيانه الداخلي مستنجداً و هافياً نحو السلام .

دغدغ إحساس كهنوف خفيةً شيءٌ ما يغازل سرواله . مخلوقٌ غريبٌ تسلل بسرعة البرق إلى عرش ركبة يمناه . انزاح جانباً ليمطّ سرواله الأصفر المهترئ .. صفع فخذه براحة يده ؛ فتفاجأ بعودة يده منقوصة الراحة لم تقتنص شيئاً بل هنالك ما امتصّ إبهامه - بسرعة الضوء - من راحة يده .أعاد الكرّة بقوة ؛ ليشلّ الحركة في جوف فخذه ، فاتسعت عينه الواحدة لجل الرهائن و القراصنة ذهولا ً ؛ مما لقيه في كفّه .. لم يجد شيئا ، بل التحقت السبابة بالإبهام !

- " يا إلهي !! .. أين ذهبت أناملي ؟! ..ما الذي يتغلغل تحت جلدي ؟! .. كيف سأنقضّ عليه بثلاث أصابع ؟! لماذا تختفي أعضائي شيئاً فشيئا ؟! "

تمددت جذور الاستفهامات غائرةً في أدمٍ المجهول ؛ فانحنت أجوبة العقل القاصر أمام أسرارها .. صفعته للدّوار رقصة الألم . اشتهى حراثة جلده بمخالب الغربان ، و الهداهد المتربّعة على كل شجرةٍ ترتدي الرادار في قلب الأدغال ؛ عسى الحركة تهجع قليلا ً ...

انشقّت الرمال عن ساقيةٍ .. يوظّفها سيلٌ طفيفٌ زخّته مزنتان طفيفتان انهمرتا من إبطيّ كهنوف - رب.ما - بفعل النسيم الحزين الذي استحثّهما على التّباكي و العويل قُبيل المغرب بقليل .. امتدّت ساقية العَرَق إلى حجر نخلةٍ لم يُسوّر حوشها بإتقان ، و فور تشرّب النخلة لعصارة المرائر تهيكلت ، و جثم على أكتافها الكُساح . قطميرها يتفتق ببطءٍ ؛ ليُتبّلَ خلسةً من كاميرات المراقبة على عدسات الدغل .. أوصدت الأوراق أعينها بفعل العتمة ؛ فلم تلحظ أن فوهةً ما - حينذاك - في طور التكوين . كذلك كهنوف كان قد استسلم للكرى ليغطّ - بعدئذٍ -

في مغارةِ الزمان .تنبثق من المغارة سبعة أنفاقٍ مخروطية ، أملسها نفقٌ عابسٌ تكلّل هامته يافطةٌ مطويةٌ تبثّ في الأفقِ ظلاماً أرجوانياً .. ألقى كهنوف نظرةً في جوف النفق فابتلعه - فورًا - بمغناطيسية جوفه ..

تزحلق لسويعاتٍ ضوئية ، و ظلّ في انحدارٍ لستين مليون عام . بعد نفاذ النفق الأملس لم تقوى أصابع كهنوف الثلاث على التمسّك ، و التماسك أكثر بسنّ النفق التليد ؛ فاستسلم للسقوط في هاوية اللازمان ..

أطلقت عين كهنوف حبلاً من الإنارةِ في عالمٍ لم يصل إليه النور بعد .. أوهن ما يمكنني وصفه أن عتمة كونِنا تعدّ شمس الشموس هناك .. حيث تستنشق النيران السوداء و تتقوّت الظلام .. ما زال كهنوف يسبح في أجواء العالم المنطفئ ، و كلما اقترب من القاع أكثر ، تتكاتف خيوط الظلمات ذعراً (حركة شفاه في جوف فخذه ، و همسٌ عميقٌ يناجي كيانه الداخلي)

- " كهنوف .. يبدو أنك تسبح في كونٍ لجّي ؛ تغشاك أرضٌ من فوقها أرض ! "

- " رباه لطفاً بي !.. أجدني أهوي في ظلماتٍ بعضها فوق بـعـ .. " ، ارتطم بصخرةٍ دوّارة تتربع إحدى القمم المشتعلة ؛ يتقيض فيها إعصاران كانا غارقين في سُباتٍ تليد

- " ڤڤڤڤڤڤ " تخبأ الإعصار الطفل خلف أبيه موسومٌ بالوَجَل ،فاستجوبه الكبير .

- " ڤف من تكون ڤف؟ من ربك ڤف؟ كيف وصلت إلى هنا ڤڤف؟؟؟ "

- " أنا!..وصلتُ !!..أا .. اللّه ..اللّه خالقي ورازقي . "

- " أأنت من مخلوقاتِ اللّه ؟! ڤڤڤف.. حدّ علمي هراء . "

- " و لمـاذا هراء ؟! "

تزوبع الإعصار بشكلٍ دائريٍّ حركي ؛ ليفكر برهةً ، ثم هدأت زوبعته ؛ ليّوجّه أصبع الاتهام صارخاً في وجه كهنوف .

- " أنت جاسوسٌ لكوكب الديناصورات ..سآخذكَ إلى الملك " عفتروت " .. حتماً سيكافئني بسخاء . "

- " عف..! ، ديناص ..! "

- " ڤڤڤڤڤڤڤڤ "

-3-

مملكة الشيطان

وجد نفسه برمشة زمن على مشارف مملكةٍ ضخمة بُحتت بإتقان في قرن الشيطان .الباب شائكٌ كجلد قنفذةٍ تلبّستها قشرة التين الشوكي، يتخلّلهُ صديد ٌ ، نتنٌ يسلبُكَ حاسّة الشمّ خاصتك. وقف ليختم طوابيرَ مُدغمةٌ في بعضها تمتد مدّ ما فوق البصر لرُمُر مخلوقاتٍ تحوي أمماً جمّة من البشر.. يُفتح الباب بعد خوض كل منتظرٍ للولوج بوتقة الكبر والتمرد في حضرةِ الحراس . أجبر الإ عصار كهنوف على إعطاء ميثاق الشرف الشيطاني للحارس الضخم المخيف ، ثم نفخ في الباب الكبير؛ لينشقّ إلى قسمين: ..جزء امتصّته الأجواء ، و آخرَ سفليٌ غاص في الأعماق .

انتفضت استغاثاتٌ حادّةٌ و غليظةٌ من الداخل تكمّمها مزاميرٌ نشاز لا تسكن أبد الدهر .لم ينجز كهنوف رمشةً واحدة ، و فقد لجام فيه تعجّباً .. جرجرَه الإعصار إلى الداخل .. ظلّ لسبع سنينٍ يتأمّلُ حديقة المملكة .. تتنامى فيها أشجار الزقوم بأسمدةٍ لامتناهية ، تتسلقها جميلاتٌ مائلاتٌ مُميلات . أقطاب المغناطيس هناك تتباهى بالرقصات و تعيش عُراة ؛ فلا تتوقف عن اختراع الرذائل .. الجميعُ يقضم الجميعَ بفعلِ التعتيم ، و تناقض العلائق ، و تناسخ العلاقات ؛ فنقيضك اليوم سيغدو توأمك ؛ ليبلور شرُهُ بعد غدٍ عدواً لدوداً من جديد .

رمقت عينه شيطانةً تتحلزن كحيةٍ رقطاء ، تنفخ السموم من عشرين أذنٍ ، و تطبخ الحميم بعشرين ملعقة و بين إنجاز سدٍّ من غليل العذاب و آخر ترقص منتشيّةً بمجدِ " أباكردوس " نظرت إلى كهنوف بشهوة الملذوع :" اقتربَ مني .. لن أؤذيك ..أكثر .. أكثرر "

يقترب منها كهنوف زافراً كل خلايا الخوف

- " خذني بيدِك .. خذني أرجوك ؛ علّني أستعيد سيرتي الأولى " ، بصقت بـ السموم إلى الخلف

- " سيرتكِ الأولى ؟!! " ابتلع لعابَه دفعةً واحدة .

- " أسطورة السحر .. ملكةٌ جبّارةٌ قدّسها الفراعنة ، و الصوماليون على وجهٍ خاص مُذ زمنٍ بعيد .. كنت أنفث في أرواحهم من ضلالي ؛ لكنّ نبياً كلّمه الله ؛ لي.بعث إلى أرض مصر وبرفقته العصا التي تمخّضت عن زميلةٍ فاقت قدراتها كل توقعاتي ، استنفذتُ مخازن خبراتي كي أتغلّب عليها و أتفرعن من جديد فابتلعتني بقدرتها الربانية ، ثم عادت إلى رحم أمها العصا يمنعها من التمرّد أحد جنّ سليمان و إنقاذي كان رهين إلهائك لذلك الجني عن بوابة تلك العصا ، فكما تراني أصبحتُ شيطانةً بجسد حيّة رقطاء تخدم الأباليس في قعر الجحيم .

- " من البديهيات أن ينقلب كيد السحر على الساحر ..أمركِ مؤسف !. "

- " بشّرتني وصيفتي بأنك ستهوي لإنقاذي . "

- " وصيفتك؟! "

- " تلك المرأة التي اقتلعت لك عينيها في جوف الهرم ؛ لتستضيء بهنّ في عالم الظلام . "

- " كنت - آنذاك - في بُعدٍ آخر ..انظري ..عدتُ أعور بمجرد إفاقتي ! "

- " لا ضيرَ ..فالعين الظاهرة يجب أن تغور ؛ كانت منفذاً إلى روحك ؛ كي تفهم لغة الشياطين ، و تميّز أعدائك بقرنٍ متعرّجٍ تُطلقه مغارس الجماجم ؛ فتستنير - دوماً - في غدرة المكان ، و عتمة الإنسان، و الزمان . "

-" آه.. منقذ ! " فكّر برهة ، ثم نطق . " لكنني بشَرٌ من موبقات .. لستُ نبياً مرسلا ً ..أعتذر ؛ ليس بوسعي إنقاذك . "

تكسّرت أحلام الحيّة ؛ فانقضّت لاعنةً كهنوف .. طوّقت عنقه ثم نفثت في فمه سائلا ً لزج ًا ..

استعاد وعيه في جوف القصر .. ممرات عشوائيّة تتفتّل في الأرجاء و باحات ضيقة تنطلق إلى الغياب .. حيوانات محنّطة ترصد أنفاسه في كل رفوف القصر ، شياطين يضجّون في إنهم أضخم و أحدّ قرنًا من أباليس الحديقة . ظلّ يتجوّل منبهراً بما يراه في جوف الظلام ... إلى أن أوقفه سيفٌ مصقولٌ استلّه أحدهم من ظفره ؛ ليظفر بالغريب :

- " من أنت؟ .. و من سمح لك بالدخول؟ .. و كيف وصلت إلى هنا ؟! "

- " أنا! .. أحضرني الإعصار ..و غلغلني إلى هنا سائلٌ بصقتني به حيّة الحديقة . "

- " أسطورة السحر .. ألم تيأس من التخطيط ؟..تبّاً لها !! "

صوت الدفوف المتعارضة مع وقع المزامير جرّست سيمفونيات النقمة في أذنَي كهنوف .. نفخ به الجندي إلى عمودٍ أسطواني متحرك في أحد ممرات القصر ثم استدعى دودةً محنّطة تتمدد على مسافة ثلاثة أمتارٍ في الرّف .. انتفضت الدودة حية تسعى بانتظار الأوامر .

- " عليكِ باعتقال هذا حتى يأذن الملك بتقديمه للمحاكمة "

- " سمعاً و طاعةً سيدي " ، و انحن َت الدودة بإذعان ، ثم حلزنت نفسها حول كهنوف على ظهر العمود فانعقدت بشدة بالخُطاف الذي يعلوا رأسها و يحدّي أسفل ذيلها .. يتحرك العمود بين آونةٍ و أخرى بعد استسلام كهنوف للمزلق الواقع .. جرجرت عينه أذنيه إلى غرفةٍ مقابلة تجتمع فيها مخلوقاتٍ بشعة المنظر لا يكسوها اللحم ، يترأسهم ثعلبٌ بجسد إنسان .. يشكّلون هالةً مستطيلة ،

و يجلسون على رقاب فيلةٍ ضخمة فاقدة للوعي كمقاعد تعلو كل متكأٍ فيها ياقوتةٌ من سجّيل .

ظلّوا لعقودٍ يتناقشون أساسات مملكة الشيطان .. بعد استراق سمع كهنوف لمعظم النقاش ، أيقن أنهم مجلس الوزراء في القصر .. يتقاسمون المصالح ، و يتلاعبون بالقوانين و الأعراف بشكلٍ مثيرٍ للتقزز .. سمعَ وزير الطوائف والأديان يتحدث عن نجاحاته الوشيكة في زرع بذور التزمّت ، و جهود الوزارة الحثيثة في توزيع جراثيم التعصب على ذرات الأكسجين بالقسط ؛ بغية إدمانها لها .متوقعاً مزيداً من الصراعات الإنسانية بتكاتفٍ إبليسيٍ بشري .. صفق الحاضرون ، و تحوّلت الأنظار إلى وزير الأطماع ؛ ليطمئن المجلس بهوة النفوس الإنسانية قائلاً في خاصرة حديثه :

".. لقد أدرك الإنسان في الآونة الأخيرة أن القوة مصدر السيادة و النفوذ فتلاشى طموح الضعفاء ، و كُسرت شوكتهم في الحين الذي تمتد فيه ألسنة الكبار؛ لتلحس أوسع مساحةٍ على ظهر الكوكب ، فتبتلع ما يمكنها هضمه .. "

تحدث بقية الوزراء تباعاً و كهنوف يصغي بحذر ؛ فاكتشف مصدر الحروب و الدمار على كوكب الأرض و شعر بالمرارة تجاه غفلة العرب ، و تقزم عروبتهم و إنسانيتهم في ذبالات مصابيح الأفعال المرتدّة ؛ لتبتلعهم ألغام الغثائية في منزلقات الحلبة .

فقد كهنوف لجام لسانه حاقداً : " اللعنة عليكم أيها الشياطين .. أستعيذ بالله من شروركم . "

-4-

" آلييس "

تزلزلت أركان القصر باستعاذة كهنوف و كادت تحفر قاصمة انقراضهم وهم سامدون .. انطلقت صفارات الإنذار في زوايا القصر .. اندفن كهنوف على الفور بشياطينٍ طباقاً ..خيّطوا فمه بفتائل العجز ، و أطبقوا عليه أغلال الضياع .. تضعضعت الأرضية الصلبة حول العمود تشققا ؛ فجثم العمود على ركبتيه ، و بقي كهنوف أسير الدودة ، و رهين تكهّل العمود .

سقطوا جميعاً في هاويةٍ تتجدّرُ في أعماق القصر .. ظلّ كهنوف يهوي برفقة الدودة و العمود لخمسة آلاف عام .. تزداد حدة الصراخ و الارتطام المقززة مع انحداره ، و تتصاعد درجات الحرارة أكثر باقترابه من قعر الجحيم .

استقام العمود على حفرةٍ فضفاضةٍ تغط في سُباتٍ تليد ؛ نهضت بنشاط فور انغراسه في أوصالها ثم ما لبثت أن لملمت ردائها المبعثر هنا و هناك - متصنعة الرضوان - ليشكل حذاءً بمقاس الأساس .

عنابر موزعة بانتظام تتعالى منها استغاثاتٍ أزليّة لم تيأس تقطير نفحة عفوٍ تنتشلها من هطيع العذاب . العنابر متوارية في أرحام بعضها غلّفتها زنزانةٌ تكوّرت نخب المطففين .. كهنوف يوزع نظراته المقسطة على ما حوله .انطلقت من أقذلة رؤوس الجميع ، قرونٌ متعرّجة فتأكد كهنوف من أضرارهم حسب الحيّة الساحرة .

- " أيُعقل أن كل هؤلاء أعدائي؟ ..يا لغبائي ! "

تبخّر الصوت ذات الصدى من أغوار كيانه : " للأغبياء مائة عين ، بتسعٍ و تسعين منها يرون أحبابهم ، وبواحدةٍ يرون أعدائهم "

كاد أن يغشى عليه بؤسه ، " بحق الرب من أنت ؟ ..كيف تغلغلتني ؟ " يخاطب نفسه

.. " غادرني في الحال أرج.وو ... "

قاطعه الصوت قبل إتمام الرجاء : " حررني في الحال أرجووك . "

- " أحررك ؟ .. من أنت ،،، ، بل من أنا كي أحررك ؟! "

- " أنا ملكة بلاد العجائب .. وجب علي أن أتخفّى عن الطبيعة كي أتسيّح في فنتازيات الماوراء ؛ فتواريت في جسدك كي أحقق حلمي بحياةٍ لا تخضع لمقاييس العقول المكبّلة بالواقع البائس ..كنت آمل أن تتوحد وجهتينا ؛ فنعثر على ضالّتينا التوأم لكنني لم أتوقع تكبيلي بسلاسل آلامك.

- " آلييس؟! "

- " أجل كهنوف .. أنا " آليس " وليدة خيالات لويس "

- " قرأتُك كرواية ذات مرة " آليس في بلاد العجائب " ؛ لكنني لم أتوقع أنكِ حقيقة !

- " و هل تزعم بأنّك حقيقة ؟ " كان سؤالها بمثابة صفعةٍ ألغت صلاحياته في إدارة وعيه .

- " حسناً .. في الحقيقة .. لستُ متيقناً من ذلك . "

(شرد لحظة ليقترح عليها) :

- " هل أقرأ سورة البقرة كي تتحرري ؟ "

- " و هل تخالني شيطانةً أيها الأبله ؟! "

للمرة الأولى تغادره الدودة .. زحفت حول جسمه سبع لفّات ثم التفتت على بعد مترين إليه قائلةً : " كي تحرر أليس حرر نفسك أولاً . "

ابتلعت الدودة َ حفرةً ما .. تسلسلت صورٌ من تلك الحفرة في خيال كهنوف ..المفخوذة تلطم خدودها .. حبلٌ ملطخٌ بالوحل من ثياب الراهبة يطوق عنقها .. الراهبة في قلب الحفرة تحتضن جسدها عارية ، تبكي تائبة و ترثو احتضار زهور الطيبة و النقاء في زمنٍ تجبّلت فيه أتربة الإنسانية . الدودة تلوح للذهاب إلى عمق الحفرة ذاتها فاختفت الحفرة باختفائهم .

شعر بوخزٍ رقيق على كتفه مدّ يده إلى الموضع فعادت - يده - بقطة مطوقة العنق : " ميوووووو "

حرك يده بعيداً عن عنقها .. استعادت أنفاسها بعد أن أوشكت على الاختناق ، لا هثة : " مرحباً كهنوف .. أنا داينا قطة أليس .. سأدلّكما إلى طريق حريتكما . "

- " كيف ؟! "

- " بتلاوة ما نحفظ من مقدساتنا سنرتقي من هذا الجحيم .. "

- " لا ضير .. فأنا مسلم و أحفظ القرآن الكريم .. " استعاذ باللّه ثم بسمل ليرتّل ما تيسّر له من الآيات بصوتٍ شجي و معه القطة داينا تترقب ضوءًا قادماً في كل ارتفاع .

ظلوا يرتقون في عالم الظلام قروناً غير معدودة حتى تسلّل خيطٌ من الضوء إليهم ؛ فتهلّل الجميع و سجدت " آليس " في جوف كهنوف مسبّحةً بحمد اللّه .

وصل كهنوف إلى جوف المخروط فابتلعته فوهة بركانٍ كانت نخلةً قبل ملايين السنين في " أهناسيا " المصرية . برزختها مسيعة العَرَق المفرزة من ذاكرة التاريخ في مسامات كهنوف و المدغمة بمخاض العذراء مريم - حين ولدت السيد المسيح - إلى حفرةٍ سمهريّة سرعان ما تمخضت عن فوهةٍ بركانية .

انفجر البركان في أحد أدغال منطقة إيل شمال شرق الصومال .. صرخ صرخةً مدوية .. أغرقه جردل ماء .. تقيض مفزوعاً يتحسس القطة داينا .. يبحث عن آثار البركان فلم يجد هناك غير السكون .

ركله رجلٌ أسود البشرة ذو جبهةٍ مدورة ، وأنفٍ قوقازي مستقيم بقامته السامقة غاضباً : " أيها السجين .. ألم نأمرك بالنوم في تلك الدّيمة ؟. "

حدّق في القرصان محاولا ً استعادة شرائط الذّاكرةٍ تدريجياً . فرك فروة رأسه دون جدوى ؛ فكل محاولات العودة باءت بالفشل .نهض خائباً مبلول الناصية بـ

الماء و العرَق في آن ؛ ليدخل ديمته العتيقة زافراً كل ذرّة أملٍ بالنجاةِ و السّلام عينه تعدّ خطواته .. نهنهة أنثى .. رفع عينه لتتكحّل بفتاةٍ مراهقة تلاعب أناملها. و تتدلى رجليها على أريكته .. استبعد كهنوف كونها صوماليّة لسحنتها المغايرة لسحنة الفتيات الصوماليات ذوات السيماء الجافّة – غالباً - بضفائرهنّ المتجعدة ، و بشرتهن بنيّة اللون .. همّ بإلقاء التحيّة كي تكفّر ارتباكه ، و تشوّش على نبضات قلبه المتقاعدة .

سبقته الفتاة إلى فكِّ شفرة الصمت لتكتب على تحاياه البقاء سجينة التفكير : " شكراً كهنوف ؛ تحررتُ أخيراً بتحررك . "

- " آلييس؟! "

- " أجل آلييس "

حاول أن ينجز غمزة ؛ فأطبق عينه نصف التقاء : " سبحان الله ! .. كيف لهذا الجمال أن يتغلّفَ بقباحتي ؟! "

تصاعدت ضحكتها الفاتنة قلوباً إلى أطراس الرباب : " أود مكافأتك ؛ فاطلب ما تشاء . "

فكر برهة ً : " آمل أن تنتشلي جسدي إلى عالمكِ يا آلييس .."

شردت عيناها الواسعتان إلى ثلاثية أصابع كهنوف ؛ فتمتمت بشفتيها توبةً للتكفير عن خطيئتها بابتلاع أصبعيه .. تمايلت الغصون في الغابة مع الرياح الموسمية ، و تمايل معها كهنوف ؛ ليسقط أرضاً .. شعر بعضّتين أطلقتا فرقعتين أنبتتا - فوراً - أصبعين .

لم يندهش كثيراً لعودة أصبعيه متعافيتين ؛ ربما حصّنته غرابة الأحداث التي مرّ بها في رحلة بحثه ضد ميكروبات التعجب .. انحنت نحوه هامسةً في أذنه : " كهنوف .. وجهتنا واحدة .. يجب أن نهرب من هذا السجن الكبير ."

- " يُحرقُ حيّاً من يفشل في ذلك ؛ الهروب ليس حلا ً آلييس . "

- " سأساعدك على النجاة ردّاً لمعروفكَ بإعتاقي من مكبّلاتِ آلامك. "

- " ستأخذين بقاياي إلى عالمكِ إذاً ؟ "

- " مفاتيح بلاد العجائب مُدغمة بأوراق لويس "

- " أهذا يعني أن بلاد العجائب أوصدت أبوابها بوفاة مالكها ؟! "

- ربما .. تذكرت .. هناك نسخةٌ وحيدة لتلك المفاتيح ، ستجدها مع مفتاح صنعاء بميداليةٍ واحدة . "

- " صنعاء ؟؟.." لابد من صنعا وإن طال السفر ".. كيف سأجد مفتاحها ؟ "

إجابة فورية : بإيماءتين : " أقربهنّ لنا فيها شرٌ فحيح ؛ بما فاض منها من باطلٍ صفيق . ، و أبعدهنّ عنّا تمركز الكونُ حولها و لايزال ؛ يهفو إلى أشعة الضوء المنبعثة منها في أرجاء الأكوان .. " جملتها واسعة الدلالة .. جافة التفسير ؛ أجّل كهنوف فصفصة معانيها بقطع الحارس لحبل أفكاره . .. كهنوف طاف البلاد توّاقاً إلى الوفاق و الاتفاق ؛ و لم ترق لدواخله فكرة انتشاله - كليّاً - من الواقع فقر َ رت بقاءه سيريالي الروح ، مرئي الجسد في آن .

- " قع ..قع " ، يدخل الحارس و بين يديه صحنٌ مغطّى بجريدة قديمة ، بفج.اج.ة : " هاك الفطور ..كلهُ أو أطعمه الطيور ."

أومأ كهنوف إلى آليس لتختفي .. تمكنت - برشاقة - أن تتحرك خلف الحارس خطوة خطوة ، كاتمة ضحكاتها العابثة .. كهنوف يتصبب خوفاً مع كل لفّةٍ للحارس .. ذهب الحارس و لم يشعر بقرب آليس منه ..

باستغراب : " يا لكِ من مشاكسة ! "

- " و يا لك من جبان !! "

نظرت شزراً إليه متمتمة في نفسها : " بطلٌ أحمق ؛ لم يستنتج حتى اللحظة بأنني غير مرئية ! رفع الجريدة عن الصحن ؛ فدارت رحى معدته الضامرة ؛ لتبعثه على التقيؤ .. رمق في الصفحة الأولى أحرفاً مدفونة بالقاذورات ؛ لم تتّضح له سوى العناوين البارزة أعلى الصفحة ، أحدها كان تقريراً صحفياً حول أنشطة فرقة العمل المشتركة لمكافحة القرصنة البحرية يذيّلها مقالا ً فنياً حول الفن التجريدي و على كتفه ترتص صوراً للمهن الشعبية المغمورة كصناعة الفخار .. لم يقرأ منها سطراً ؛ فالمِعَد الجوفاء توصد خلايا العقول ثائرة على استعمارات الهواء لأراضيها .

لم يطق بقاءه في قبضة الأسر لحظة .. مرّت على ذاكرته تلك الأحداث التي تتكرر بين آونةٍ و أخرى - فترة اختطافه - فقصّ ل. آليس ظاهرة تكاثف الضبب في سماء المعسكر لتمتدّ منها المائة و الخمسون ذراعاً فتصفع القراصنة إلى أنياب الأسلاك الشائكة في حدود الدغل ثمّ تُدلي الرهائن إلى أمزان النجاة فتؤم ّ الرياح الموجّهة لتنداح سريعاً عن أجواء الصومال .

الموج الهائج من قلب البحار و الذي - قلّما - يمتدّ هيجانه إلى المعسكرات ؛ ليسترق الأسرى عُنوة .. لا ليغرقهم بل ليهبهم الحرية و الخلاص في حياةٍ فانية .

فرق الإنقاذ هذه الأيام ، تحمي مصالحها ، لا تركن إلى أي فرق عمل ؛ عقلك - فقط - هو الكفيل الوفي بنجاتك " . قالتها و هي ترشّح الرمال في الدغل لهواً

أزمع على استخدام عقله بمساعدة آليس ؛ فظلّ يبرش سيقان النخل - بلاشعور- غارقاً في التفكير بطريقة للخلاص .

-5-

" باركينا " و " ساركيز "

- " هيا أيها الرهائن .. "

من حيث لا يدري . جلس القرصان القرفصاء تحت ظلال كافورةٍ تاريخية عجوز ، ينظف أنفه بأصبعه ، و يتصيد البراغيث في غابة رأسه كل دقيقة .. صرخ في الحاضرين : " الفدية مقابل الحريّة .! "

تقدّم الحاضرون تِباعاً ؛ لينبؤوه بطرق التواصل مع حكومات بلدانهم ؛ كي يعتقوا رقابهم بالأموال الطائلة .. بقي كهنوف يستهين بأحجار القلوب ، و يدفنها برمال اللامبالاة ..

بعد دقائق ، اشتعل شُواظٌ مهيبٌ في الدّغل .. هذه الكرّة كانت النيران فتّاكة بحضور الوزغ النافخ في أروقة الأسقار .. كهنوف مستلقياً في العشّة و آليس نائمة في الزاويةِ المقابلة .. أوصد الحارس باب العُش ليلا ً على غير عادته . النار تستلقي في سويعات الضحى ؛ لتتكفّلَ بالمواجهةِ مع موج البحر ؛ فالتهمت كل قشّةٍ صادفتها في الطريق .. معمعةٌ غاضبة تسلّلت إلى آذانِ النائمين ؛ تيقّظوا بفزعٍ يطرقون الباب الخشبيّ الحصين ..استنجدوا بمدّخرات أحبالهم الصوتية فلم يستجب أحدٌ لصراخهم ؛ الجميع كان مشغولا ً بإنقاذ نفسه و حارسهم هرع َ ؛ لينقذ طفليه من الحريق ..

اقتربت آليس من كهنوف .. حاصرتهما النيران من كل الجهات ؛ لتقتربَ شبراً فشبراً من مركز الدائرة الذي يقفون عليه .. دشّنت وحشيتها بقضم أرجلهم انتقام ًا ، ثم انتفضت إلى العلياء .. بدت ألسنةُ اللّهب ترنو لابتكار هياكل متفحّمة في أرجاء الدّيمة .. لفظ كهنوف أنفاسه الأخيرة و هو يرقب جمال آليس التي تعلنُ استقالتها من بلاد العجائب .

حاول كهنوف أن يشوّه سحنته ؛ كي تنسجم مع سحنة أليس المتفحّمة ؛ فلطخّ وجهه ببعض السُخام الملتف حول خواصر القدور السوداء بجانب الموقد في قلب الدّيمة ..

استسلما للزوال ، و لفظا نَفَساً أخيراً موَحّدا ؛ استعدادًا للموت على شاكلةٍ واحدة .. انتقت الموجة أهدافها المدروسة - كالعـادة - ؛ لتنقذهم من قبضة الأسر ، و بقي الضعفاء رهائن أقدارهم .

بعد اطمئنانِ الحارس على سلامةِ أسرته ، تبادر إلى ذهنه بما يشبه التذك أنّه أوصد عشّة كهنوف ليلا ً تحت إمرَة الثّمالة ؛ فنادى الجميع ، ثم هرع ؛ ليفتح الدّيمة المحروقة .. سكع ناصيته بألم ؛ ليعيش بقايا العمر نادماً يؤنب انتباهه .. أعضاء الأسير متفحّمةٌ هنا و هناك لازالت أعضاء آليس المتفحّمة غير مرئية ..

ثلاثة أيّامٍ مرّت دفن خلالها القراصنة أعضاء الجسد المتيبّسة في مقبرة الدّغل ؛ ساد َ هدوءٌ نسبيٌ في المعسكر بعد إعلان وفاة كهنوف.

ارتمى كهنوف بجانب آليس مُتعبين على كومةٌ حشائشٍ في أطراف قرية " غندرشي" - اليمنية الأصل - بين مركا و مقديشو أمام المحيط الهندى .. آلييس تضحك ساخرة : " بديعةٌ هي أفكارُك ! " ركز كهنوف نظره بجدّية : " و كان عملكِ مُتقناً !! " .. تمددا ؛ ليصرفا ما في جعبتيهما من القهقهات .. استذكرَ الاثنان فرزدقة الرمل المتوّحلة على حوافِ النخيل القسب ، و المدهونة بالمواد الحارقة لتتفحّم في الأرجاء .. كانت أشبه ما تكون بأعضاءِ جسدٍ متفحّمٍ محروق .. اشتغ لا فيها بجهدٍ كي تقتنع الزمرة بهلاكهم ؛ فينجو ا من المطاردة .

توقف كهنوف عن التذكر - فجأة - ليصمد أمام النسيم العليل الذي لاعب لحيته الكثة .. أزال ما علِقَ فيها من التراب بعد جهده الجهيد المبذول في حفر النفقِ الخفيّ من أرضية الديمة إلى مخدع أحد مناديب الأمم خلال عشر ليالٍ كاملة ؛ فتكفّلت " داينا " بردم النفق سراً بعد رحيلهما عبره .. أنقذتهم الموجة مشتبهة بهم فتمكنا من الإفلات منها بطرق بهلوانية – لا تخطر على بال - قبل عودتها إلى قلبِ البحر بباع .

نهضا ليقتربا من سكان القرية المجاورة ؛ علّهم يجدون ما يسدّ رمقهم .. لاحظ كهنوف اصطداماتٍ بشريّة و كأنها معركة ما .. نساءٌ يرتطمن بالرجال في الشاطئِ بصورةٍ عارمة .. دخانٌ كثيفٌ يحجب الرؤى مما يدلٌ على بقايا نيرانٍ عظيمة .. رقصات مجنونة ليست لغرض اللّهو و المتعة ؛ يتمايلون بشدّة و يضربون أقدامهم المتقرّحة في الأرض المفروشة بالأشواك بلا أدنى إحساس متجاهلين دمائهم الجارية منها و كأنّهم يؤدون واجباً وطنيّ ًا .

تنهيدةٌ جبروتية تقدّ قميصه من دُبُر : " كهنوف .. أأنت مدعوٌ إلى حضور عيد فرعون ؟ " .. لم يستغرق كهنوف وقتاً لمعرفةِ الوثن : " " الزار" ؟ ..ألم يمحُك الإ سلام من ذاكرةِ التقاليد ؟! "

- " ليس بعد ..هؤلاء تخلّدُ جهلهم احتفالاتهم باسمي .. يؤمنون بأنني معبودهم الوثني القديم ، و يزعمون بأنني مسختُ إلى روحٍ شرّيرةٍ انتقاماً من أديان السماء .. هم يحتفلون بتكرار قتلي كل عام ؛ و أنا أتسلّى بتناسلِ خلافاتهم كلّ ساعة ! . "

- " اليوم هو يوم الزار ؟ "

- " كلا ّ .. فالأساطير و الخرافات بما لانهاية في شعبٍ كالصومال .. إنهم يقفون اليوم على أعتابِ عامٍ جديد فيحتفلون بعيد النيروز . "

- " النيروز! "

- " تسمية فارسية لعيد رأس السنة . و يسمى أيضاً عيد " دبشد " . توثيقاً للعلا قات التاريخية مع الفراعنة فقد أطلق عليه الأجداد عيد فرعون . "

- " هل جُلّ مقاطعات الصومال تمارس هذه الطقوس القاسية ؟ "

- " ليس جلّها .. أطلقت هذه الفعالية السنوية قبيلةٌ احتلّت قرية " أفجوي " مُذ زمنٍ بعيد تسمى " بربر و شيري " و بعد جلائها ظنّ السكان أن انتشار المجاعات و الوباءات لعنةٌ أصابت أرضهم بتوقف إحياء تلكَ الذكرى .. و منذ ذلك الحين هم متمسكون بتقاليد البربر ؛ ليعمّ الخير ، و تجود السماء عليهم بغيث الأرزاق . "

آليس ذهبت تجري .. " انتبه كهنوف " .. حاولت إيقاف الفتاة فلم تستطع لمسها ؛ لأنها مجرد روحٍ تخترق الأجساد الحقيقية ؛ فطلبت تدخّل كهنوف .. هرع كهنوف إلى تقييد الفتاة .. منعها من ضرب رأسها على الصخرةِ بلا إحساس .

- " دعني وشأني ..ما عاد لي حقٌ بالحياة .. دعني .. "

تصببت الدماء من ناصيتها السمراء .. صنع لها ضمادةً من ضفائر آليس البلسمية : " لن أؤذيك .. أأنتِ بوعيك ؟ .. ما هذا السلوك ؟! "

- " لا وعيًا يتقبّل الوعي في هذا البلد ؛ لن أعيش في جلابيبهم " حاولت الإفلات من قبضتهِ هاربة ؛ فتمسّك بها بقوة حتّى هدأت قليلا ً .

- " لن أتزوج غير حبيبي " المدغاني " .. لا أريد ابن عمي ؛ سأنتحر ؛ لعلي أسطر صفحةً في سجلات تعصباتهم الحمقى . "

أطلقت آليس سؤالا ً و لم تسمعها الفتاة ؛ فكرر كهنوف السؤال : " و لماذا لن تتزوجي ممن تحبين؟ "

- " لأنه " مدغاني " و أنا " أفجوية " و لا قبيلةٌ في الصومال تقبل مصاهرتهم .. "

- " لِمَه ؟ "

- " عيبٌ من صنعِ خرافات الجاهلين ضمن أساطير الأولين ؛ بأنهم أكلوا من المحرّمات ذات مجاعة .. أ ُقسم ُ بأنّهم ما فعلوها . "

- " أقنعي قبيلتك بوجهة نظرك يا .. "

- " " باركينا " ..اسمي باركينا ..لا أستطيع يا ..

- " كهنوف .. لماذا لا تستطيعين ؟ "

- " حاولتُ مراراً و لا يوجد نتائج ؛ عقليات متحجرة ، و افتراءاتٍ أزليّة على " المدغان " ، تتوارثها الأجيال بتبعيّة مفرطة .. أوضحتُ كثيرًا لأمي مدى نبل أخلاقهم ، و كيف أنقذني " ساركيز " من وحوشِ الغابة أثناء استعدادها للحرب الأهلية .. فلم أتلقّى تجاوبًا سوى تكميم فمي خوفًا من غضب القبيلة .. "

ثرثرت " باركينا " لـ كهنوف كل الخرافات العجيبة التي ترسّخت في ثقافة أبناء وطنها ؛ فظلّ ينصتُ لأكثر من نهار لأحاديثها الغريبة حتى تكوّنت الصورة البائسة في ذهنه عن أسباب تراجعِ دولةٍ متوافرة الموارد .. كانت تمدّه بالزاد سرّا ؛ فساعدها كثيراً .. و كان يعمل مرسالا ً بينها و بين " ساركيز " المُحتجز من قِبلِ قبيلته .. جسد آليس المتموّه ساعد العاشقين على الهرب معاً ؛ اشتعلت - تلقائياً - المزيد من نيرانِ الحربِ الأهليّة بين القبيلتين .. تشربت دماء أبنائها نخب العاشقين ؛ فقد كان هروبهما بمثابة القشّة التي قصمت ظهر البعير .. تقترب آليس من وراء الشفق لاهثة و كأن القمر يطاردها .: " كهنوف .. الاستراجونيين ينوون قتلك ؛ أنت عميلٌ و دخيلٌ في نظرهم " .. شعر َ بمحاصرته من قِبَل جميع رجال الدين هناك .. هرب برفقتها إلى " بندر مركا " على شاطئِ المحيط .. تخبّأ في قاربٍ مهجور بانتظار سفينة نجاةٍ يركب عليها .

غفى قليلا ً فسمع طقطقة فوق رأسه .. كتم أنفاسه هلعًا ..عينٌ واسعة تتجسس عليه من ثقبٍ في ظهر القارب .. قفز إلى أمامه رجلٌ خمسيني أفطس الأنف ، غليظ الشفتين .. تسمّر كهنوف محتضناً فخذيه إلى ظهر العمود .. رفع عينه لتتلأ لأ َ بلآلئ الاشتياق .. غمرت القارب المهترئ أنسام الحبور فنهض بخفّة ليحتضن القادم .

- " لا تخف .. سيكون كل شيءٍ على ما يُرام ..أنا رفيق " ساركيز" .. الصيّاد " شنقاط . "

- " فارح .. شنقاط !! "

- " انتحلتُ شخصية فارح ؛ كي أنجو من النشرة الحمراء التي أصدروها بشأني . سألهي الاستراجوني عنك لفترة ، و هذه رسالة " باركينا إليك " .. تسابقت كلماته متداخلة في بعضها ، نظر كهنوف إلى الرسالة ، ثم رفع رأسه إلى " شنقاط " بعد اختفائه بثلاث ثوان .. أهدته باركينا مقطعاً من قصائد " الجباي" للشاعر الصومالي : محمد نجده .

" إنك راحلٌ الآن في الطريق الذي يقودك عبر غاباتٍ كثيفة .. مقبضة بأشجارها المتشابكة .. حرارةٌ و جفافٌ مميت في كل مكانٍ تخطو فيه .. لا يصلها نسيمٌ عليلٌ ؛ و لذا أصبح التنفس شاقًا .. ""

طوى الورقة مغمومًا ، فأجّل الرحيل ؛ نظراً لشؤمِ محتواها ..

دعكَ الورقة و هو يتحسر حزنًا على المصير الذي ينتظره أيضًا ، وإذا ببقية الرسالة يتجلى أمامه ؛ بقية مقطع القصيد للشاعر التي جمعت أبياته بين قلبي " ساركيز " ، و " باركينا " : " سأمنحك الآن على كل حالٍ من حالاتك .. ابتهالاتٍ من القرآن الكريم .. فلا يصيبك الأذى ، و لا تنزل عليك المحن .. فبسلامةٍ من الله يمكنك السفر .. فقل يا صديقي بنفسك الآن : آمين "

رفع الرسالة إلى جبينه متهلّلا ً ، ثم سحبها إلى الأسفل بروحانية ليقبّلها مردداً : " آمين "

- " إنّـه هنـاك .. اقتلوه . "

كهنوف ينظرُ إلى الخلف بوَجَلٍ ؛ زطٌ مسلّحٌ يجري نحوه ..التفت إلى الأمام حيث السفينة ما زالت نقطة وجودٍ في أفق البحر ؛ الأمواج تفتح له ذراعيها منادية ً إيّاه .. الموت يلهث خلفه ؛ ليقبضَ جسده .

* * *

الفصل الثاني عشر

زفرة بحجم عالم

وجدت ُ نفسي أغوص في ظلمات متراتبة ، ظلمة تتلو ظلمة ، عمق يتلو عمقا ، بحور سماوية و ظلمات أرضية ، السماوات السبع هنا و النجوم ، رأيت الأرض تتدحرج في الأفق كليمونة وسط ظلمة امتدت خلال فراغ لانهائي . رمال ثقيلة تـ لامس قدمي ، و طين دبق يسحبني نحو العمق كآلة شفط عملاقة ، فأخذت أتساقط كنتف أو كريش متطاير لأستقر أخير ً ا بكل ثقلي كقتيل أعيته المسافات . لهذا البحر لغة و نداءات ، كنعاق ممض أو كعويل مرعب ، و للعتمة فيه صلوات ، وزن و ملمس ، حجم و كتلة ، و ثمة جسد يحاصرني ، يطبق على أنفاسي ليمتص عبر كل ثقوبي فقاعات الهواء التي تتخللني ، تهبط رئتاي لتعودا ككيسين خلِقا خاويين إلا من الفراغ ، كأنما الأرض و الجبال قد ألقتا بأمانتهما فوق صدري ، تحوم حولي و تلهو موقعة رقصتها حول أنفي المتهدل كخرقة بـ الية .. عوالق كثيرة ، تتلذذ باستنشاق ما بقي من ركام أنفاسي الكريهة ، التي أخذ صدري يقذف بها بعيد ً ا و يقذفني معها إلى عمق أبعد ، تتعالى أصوات البحر كهول غابة تتشظى بارتطامات متناثرة ، كأنما تعد لاحتفال جنائزي مهيب ..

فهمت الآن ما يحدث ، كل هذه الضجة تبتهج بي كوجبة دسمة . يا لجسدي المسكين ! و بينما كنت أربض باستسلام و همود تام رأيت ضوء ًا خافت ًا شق لمعانه بين مقلتي ، اعتراني خوف شديد : " يا الله إنها روحي قد شرعت في تجربة الخلاص " هكذا حدثني يقيني . و سرعان ما تكشف لي خداعي حين وجدت ذلك الضوء يتسع و ينتشر و يقترب ، و كلما ازداد اقترابه ازداد سطوعه و بريقه. نعم ، أراه الآن يتصاعد من أقصى ال. هناك ، كشمس فجر ناعسة ، شمس تشبه شمسنا . تتكشف الأعماق أمامي جبال ًا و وديانا و شروق ًا متسارع ًا من خلف جبل عملاق و مشع . ما عدت أدرك أكنت قد حظيت برؤية شمس الظلمات ، أم أن بصري قد برق قبل مغادرتي ، يا لها من قدسية يحتفي بها جثماني النطع ! انتظرت طويلا اكتمال البزوغ ، و الوقت ظل يمضي كسلحفاة عجوز ، و يهرم و أهرم ...

استمر صدري ينعم بلذة التحلل البطيء ..ع َن َت لناظري ألسنة لهب طويلة ، أخذت تهوي من أعلى ذلك الجبل - الذي يوغل في الانسحاب - بقوة بركان هائج ، غير أن قروش البحر و عرائسه لم تفزع لهذا الذي يحدث ، و ظلت تسبح في قلب الألسنة بسلام لامتناه ، و هو ما أثار دهشتي و أشعل بركان أسئلتي المبتورة ..

- " ما هذا ؟ أهو بركان حقيقي ؟ أنور أم نار ؟ " .

رددت بصوت مفزوع : " يا نار كوني برد ًا وسلاما " فسمعت صدى رجائي يرن و يتردد في طبقات متفاوتة ، فآنسني ذاك التردد و أزال وحشتي ، أعليت صوتي ثانية : " الله نور السموات و الأرض " .. ضج دوي الفراغ من حولي : " الله نور السموات والأرض " جثوت على طيف ركبتي أبكي ، فاشتعل الاحتفال .. ارتصت الحيتان في المقدمة و أخذت تتهدل يمنة و يسرة لتتلو و بصوت مهيب أذكار الصباح . تلتها صفوف و صفوف حفت بمخلوقات لم أشهد مثلها قبل الآن ، كانت تتقاذفني نحو الأعلى ؛ لأهوي من جديد فتتلقفني بأيديها المبسوطة كأغصان الموز ، شعرت و كأني ألهو في بهجة أرجوحة طفولية ، لولا ذلك اللحن الجنائزي الذي كان يثير رهبتي .. بينما تدثرت الحيتان و الدلافين بسحب بيضاء بلون الحليب ، انفض الجمع ، فنظرت جسدي ملقى في محيط من الضياء على قارعة الرمال و تحت سماوات البحر عند أبعد نقطة من الأعماق حيث لا يكون إنس و لا جان تساءلت : " أني يكون نور بلا نار ؟ ! أهو إبليس طاووس الملائكة و ملك الشياطين يلهو معي ؟ أهنا تقبع مملكته السفلية ؟ " قطع تساؤلي مرأى طيف بشري ، أخذ يقترب محمول ًا على أجنحة عنقاء مرجانية ، و من حوله كانت تحوم تلك المخلوقات التي شاهدتها عند احتشاد بهجتي الأولى ، كانت تزفه كما تزف العروس ، و تحمل عرشه هابطة بجسده النحيل لتجلسه بالقرب مني . حدق بي طويلا ً ، برق نوره في مقلتي ، شعرت بإغماءة خفيفة ، و من بعدها غادرت جسدي ؛ لأشرع في موتي ، أراني الآن من فوقي ، لقد طالت

لحيتي كثير ًا عنها منذ رأيتني آخر مرة . اقترب مني ذلك القادم من عمق النور ، شعرت بأنفاسه تلفح جبهتي المتصلبة ، قبل ناصيتي و وضع كفه على رأس جسدي المسجى ، فاجتاحتني رعشة كتيار مغناطيسي شق طريقه من رأسي حتى أخمص قدمي ، ثم انثنى يهمس في أذني ، كأنما كان ينفث في جسدي سر ًا خفي ًا ليس لطيفي الحائم فوقي - وإن حاول استراق السمع - أدنى حق في معرفته . أشار إلي بكلتا يديه أن ارتفع ، ثم نادى : " عد فلا تزال هناك بقية " . تبرمت ُ : " كيف أعود و قد ذقت خفة الانسلاخ ، واستطعمت حلاوة الانعتاق ؟! "كرر بحزم : " لاتزال هناك بقية . " انطلقت مبتعد ًا . أطلقت رجلي لهوجاء المحيط ، غير إن سقف ًا ما حال دون ارتقائي .تسجت دلافين و انتحرت حيتان ، تجمعت و تمددت ، فتكونت بأجسادها العظيمة أسقف أندلسية مقوسة ، أدركت حينها أن لامجال أمام الفرار . جثوت مستسلم ًا ، فاقتادتني كلاب البحر نحو سيد الأعماق ، فانطويت مكبلا ً ، حينها أمسك بي من أذني فدفقني من جديد في جسدي المقيت كطفل مذنب . و لكي أعود إلى ما كنت عليه قبل لحظات فكرت في الانتحار ، فتحت فمي بأوسع ما أستطيع فأبى ماء البحر أن يلج إلى جوفي ، و استحال أنفاس ًا فردوسية تغريني بالرضوخ ، فرضخت دونما اختيار ، كنت حزين ًا لحظتها ، و كنت أمشي مطأطئ الرأس كفارس مهزوم ، و كانت دموع غزيرة تنهمر مني فيرتفع فيض البحر ويشتد الهيجان . أمسك رجل النور بذراعي ، وتأبطني قائلا : " يا بني ردد بعدي : الله محبة "

رددت بعده : " الله محبة "

قال ردد أخرى : " الله حق "

رددت أخرى : " الله حق "

وعند ملتقى السماء البحرية الثالثة أطلقني و انسل بهدوء ، لكنه استمر يحثني " ردد يا ولدي :

الله رحمة "

رددت ُ : " الله رحمة "

و بينما لاحظت أنني كنت أرتقي مع كل مرددة ، و سمعت صوته ينسحب عني ، ظللت أردد بعده :

" الله عدل ... الله سلام ... الله سلام ...الله سلام .

ارتطم جسدي المنهك بصلابة سطح الماء حتى شعرت و كأن عظامي قد تحطمت ، فاسترخيت على وجه الأمواج التي أخذت تتلوى كأفعى أمزونية ، تهصرني فترتفع بي و تنخفض . و في ذات ارتفاع رمقتني عيون شجنة ، و كمولود من رحم ميتة انتشلوني ، و وضعوني على أرضية مركبهم ، ثم تحلقوا

حولي كذباب أفريقي ، و من ثقب أعلى وجهي نظرت بريق نجوم فتذكرت حمامة نوح .. لمعت من حولي نواص و جباه ، و أسنان بارزة مصفوفة في فكوك أشبه ما تكون بقوارب صيد عمانية ، و وجوه متماهية بالكاد ترى في خضم العتمة المتكاثفة .. شعرت بأنفاسهم تلفحني ، سمعت نبض قلوبهم كما أسمع نبضي .. كفوفهم الباردة تتحسس وجهي و تتسلل إلى مواطن محرجة مني ، و رشفة ماء عذبة تسلسبت إلى جوفي ، و رشات متتالية أطفأت حريق جبيني و اتقاد عنقي .. الآن يمكنني أن أميز .. أحاول التدقيق .. أتفحص ، و عن شمالي ارتفع صوت : "هل جننت يا هذا ؟! "

- " ماذا ؟ " و أنا أستجمع أنفاسي

اقترب ً أكثر و قد تجلت عيناه عن جحوظ مخيف : " ماذا تحفظ من المرثيات ؟ "

- .....!!

- " تيقنت ً من جهلك؟!؛ فلا يغرق في هذا المكان إلا الجاهلون .

ثم استدار ملتفت ًا إلى الجمع خلفه ، و تبعته باستدارة فنظرت ، و إذا الوجوه التي تماهت لناظري عند العتمة المتكاثفة قد تجلت عن رؤوس كمحابر يونانية مطموسة ، و أجساد كأنما ظلت سابحة في بحر من مداد أسود لمئات السنين ، و أما الوجوه فمفلطحة بشكل مثير للريبة مما أذكى صقيع دهشتي !عندها أربكني صوته الآمر :" ادبغوه بما يستر وجهه ويواري كفيه " وبسرعة مذهلة انهمرت الأ كف تتلمس تضاريس وجهي و تعد أصابعي ، ثم أخذت تدرسني بحذر المزور الدقيق ، و تدعكني برفق كما يدعك رسام لوحته بريشته الأنيقة . أثار ما يفعلونه بي حيرتي ، فحاولت أن أستفهم عن الأمر ، و عندما شققت فمي عن نية سؤال خجول مختنق سارعوا على تقييدي بأذرعهم المديدة كخراطيم الفيلة ، ثم صبوا في فمي جرعة هائلة من حبرهم الأسود شديد المرارة ، و أجبروني على ابتلاعه .انتفضت عروقي و اشتعلت أحماض أحشائي ، فدفعتهم عني و وثبت مهروا ً إلى حافة المركب أتقيأ بقعة نفطية عملاقة أخذت تتفسخ إلى بلورات دمعية ، تقاربت لتشكل حروفا براقة ، لم يمض الكثير حتى رأيتها كلمات تتجمع و تتشابك و تصطف في إيقاع بحري أخاذ . اقترب كبيرهم لاكز ً ا رأسي بعكازه السودانية ذات القبضة الرأسثعبانية : " اقرأ . "

فقرأت :

" موت الكرام حياة في مواطنهم ★ ★ فإن هم اغتربوا ماتوا وماتوا

ما نمـت إلا لكي ألقى خيالهم ★ ★ أين من نازح الأوطان

و بمجرد أن سمع البحر نشيدي تحلقت القطرات ، فتقافزت تجر في ذيولها حروفا نورية أخذ كل حرف منها يعوي بأبجدية النواح ، بينما علا من عمق الماء صوت آخر أخذ يصّعد كعويل الثكالى ، و شيئا فشيئا احتواني النواح و غمرني العويل حتى أرديت صريعا و ارتميت في قلب المركب فاردا أجنحتي المبللة كنسر خائر . تحلق الجمع حولي فرأيت شفاههم الغليظة تتمتم بكلمات لم أفهمها ، عندها اضطرب المركب و تحولت التمتمات إلى صرخات عالية فازددت اضرابا ، تشبثت بألواحه و تمسكت بدسره حتى تلقفتني حباله العنكبوتية الطويلة ؛ لتتخبطني وسط الهياج .. تصاعد الموج فتراقصت القطرات ، و انتظمت كحبات لؤلؤ في مهرجان الزبد عند حافة الموجة المتكسرة ، ثم فجأة همد الهياج و عاودت القطرات رحلة هبوطها في اتجاه السطح . بينما انحرفت بضعة قطرات مشاغبة لتخترق شدقي كبير البحارة الذي وقف على ناصية المركب فاغرا فمه ، فامتصها ببلاهة مستطعما مذاق ملوحتها . أوقدت السماء بدرها ، فتحركت حياة غامضة ؛ إذ تهادت من العمق أجساد كثيرة لنساء حوامل أخذن يتمددن لتطفو بطونهن المنتفخة و تنسدل شعورهن الطويلة مسترسلة مع أمواج البحر ، و ماهي إلا لحظة حتى تصخرت السيقان المحجلة ؛ لتنشق البطون المنتفخة عن مئات من القطرات العملاقة التي ظلت مشدودة إلى تلك الأجساد بأربطة سرية . انشقت القطرة الأولى تلتها أخرى فأخرى .. مئات من الأجنة الطائرة تغطي صفحة السماء ، ارتقت الأجساد المددة واحد تلو الآخر ، انفض الأول عن سمراء دمشقية أخذت تنشر فراش أجنتها العشبي ، و انفض الآخر عن خلاسية أفريقية ، فقمحية ، فينيقية ...

ازدحمت السماء بأمهات و أجنة تحلق بألوان الأديم . و بينما كنت مشدودا إلى مهرجان الأديم ، شرعت الأجنة تلاطفني و تلهو محلقة حولي ، ثم هبطت على سطح الماء و شرعت تنظم القطرات الهامدة و تنسجها عقودا لؤلؤية تلفها حول أجسادها الصغيرة و تعاود طوافها حول مركبنا المتجمد في مكانه . ارتفع صوت الصمت بأزيز مخيف ، تلفت ، نظرت خلفي ، فإذا بلفيف من الغرباء يشهرون سيوفهم في وجهي ، اعتراني خوف شديد فالتزمت الصمت ، ثم شعرت بسائل لزج يتماوج مغرقا قدمي .. أرخيت جفني لأنظر نحو الأسفل .. يا لهول ما رأيت ، دماء لزجة تتماوج مترددة بين قدمي و مساحات سطح المركب ، و جثث ملقاة قد نصبت رؤوسها على بطونها ، تصلبت كخشبة مسندة أنظر مصيري تحت حمرة هذه الليلة البرزخية الثقيلة . علت موجة شامخة ، قذفت بالمركب و حمولته ، كنت أحد المقذوفين و ربما كنت المقذوف الوحيد ، فما من أحد هنا سواي و بعض ألواح هي ما تبقى من مركبنا ، صرخت : " أما من أحد هنا ؟ " و حينما لم أتلق أية إجابة شرعت في الدعاء ، مكثت وحدي أرقب و أدعو و أنتظر ، و في غمرة الدعاء شعرت بجسم ناعم يتمسد قدمي تحت الماء، تكاثرت الأجسام الناعمة من تحتي و تراصت من حول جسدي الممطوط ، رفعت و رفعت

ُ ، رأيت أمهات البحر و قد تراصت ذارفة دموعها الساخنة ، و رأيت مواليدهن ترفرف بوجوهها الباكية و تقترب مني لتشدني إلى أقرب لوح . كانت المياه حنون و دافئة ، فلم أدر ِ أكان سبب دفئها أجساد المواليد التي لم تزل ترفل بدفء الأرحام التي غادرتها للتو ، أم هو وجع الدمعة الأخيرة لبحارة كانت هذه المياه قبور ًا لأجسادهم ، أم أنه حرقة دموع النادبات الثكالى و المنهمرة عبر رمال الشاطئ الممتد إلى عمق مياه لم تعرف يوم ًا سلام ًا .. اقتربت مني إحداهن ، مددت يدي حتى كدت ألامس كفيها ، ابتعدت هامسة : " كن قريبا " اقتربت أكثر حتى استطعت تأمل خطوطها ، شقوق ظهرها المنحوت أنهار ًا وأغصان ًا ، تحسست ذلك الكروان الرابض أعلى عنقها معانق ًا عطرها الدافئ ، حررت ضفائر شعرها الملفوف حول جسدها المتلوي ، و بين فينة و أخرى كنت أرى وجهي منعكسا على صدرها المرمري فأتنرجس هامس ًا : " كم أنا وسيم ! " و أتطاول مغازلا :

" ما أغرب التاريخ كيف أعادني

لحفيدة سمراء من أحفادي

وجه دمشقي رأيت خلاله

أجفان بلقيس و جيد سعاد "

و أستمر مغازل ًا و مترنجس ًا حتى جفت حروفي و انحسرت القصائد فانكمشت إلى الحد الذي يصعب معه قراءتها ، حينها أدركت أنني قد عبرت . حاولت استراق النظر في اتجاه الوراء لأشاهد رفاق البحر ، فرأيتهم راحلين و قد تركوا خلفهم سارية مركبهم ، حينها عاد الصقيع إلى المياه و برز القمر متشحا سحبا ثلجية ، غير إن إحداهن أصرت على البقاء بقربي ، استدارت تتفحص وجهي ، قبلتني وتراجعت مسرعة ، لحقت بها ، شقت جذعها وجذبتني بقوة إليه ، وها أنا ذا أغوص في ظلمة جذعها المشقوق ربما إلى الأبد كما أخبرني هدهد عتيق مرتعش .

* * *

الفصل الثالث عشر

-1-

بين موتين

نحو شاطئ بائس ، استعرضت الرياح عضلاتها والأمواجُ مهارتيها القتالية على كهنوف .

هكذا الطبيعة، لا ترحم الفرائس السهلة؛ ربما تشبع كمية الفراغ التي عجز الأ كسجين عن تغطيتها في الأيام الأخيرة . هنا فيح الحر شديداً و الرمال الساخنة تكفلت بشواء جسد كهنوف العالق في منزلة بين المنزلتين ..

فتح كهنوف عينيه، و هاله منظر عريه، فطفق ينظر تساقط أوراق النخيل و يداه تجاهد في الاتساع ؛ لتغطية سوءته ريثما تتعرى نخلة أخرى فيكرر العملية مرة أخرى . ثلاث ورقات، احتاجت عشر دقائق من التربص رغم وجود الرياح؛ ف النخيل في هذه البقعة حييّة إلى درجة كبيرة.

الآن باستطاعة " كهنوف " أن يخرق في نفسه ليسمح لكل الأسئلة في داخله بـ الخروج .

- " ما هذا المكان ! وإلى أي بقعة نائية قذف بي البحر ؟! " . تساءل " كهنوف " الضائع في دهاليز عمر الكرة الأرضية ، بحقبها الزمنية ..

سار كهنوف بمحاذاة الشاطئ أملًا بلقاء كائن بشري يحدد موقعه في خارطة هذا العالم ؛ الذي سلم نفسه لدوران كرته في ملعب الحياة ، تتقاذفها الأقدام المخضبة بالدماء .

الدم، لا شيء سوى الدم ؛ هكذا امتد البحر الأحمر أمام عين كهنوف التي أتسع بؤبوها حين تبين لها منظر بحر الدم الأحمر . أسرع يحشر يديه في الماء؛ ليتبين الأمر و صعقه الدم الذي خضب يديه .

عند قدميه، رأى الأسماك تسبح في الرمال، لم تكن أسماكًا عادية ؛ كانت رؤوسها بحجم بطيخة، زعانفها أيادٍ بشرية قصيرة؛ يتفرع من الذيل قدمان ملتصقتان بدت و كأنها مسخ من مخلوقات شتى ..!!

منظرٌ كهذا، يتطلب منه - على الأقل أن يكون مشدوهًا و فزعًا في آن . السماء تمطر طيورًا سوداء، كل طائر بحجم خيمة كانت كثيرة لدرجة أن حجبت الأفق و راحت تلتقط تلك المُسُوخ . في لحظة انخطاف ، وجد " كهنوف " نفسه بين

مخالب إحداها على ارتفاع شاهق بين السماء و الأرض .

" كهنوف " الآن معلق بين موتين؛ إما البقاء، فيصبح وجبة تأتي مرة في العام لطائر آكل للحوم ، و إما السقوط ...إذن هو الموت في كلا الحالين

عيار ناري انطلق من بقعة قصية في بلد ميت جعل ذلك الطائر يعاني في الحفاظ على " كهنوف " كآخر وليمة يضعها في عشه؛ لكنه مات و الأمنية لا تزال في طور النمو مما كتبَ النجاة ل. كهنوف .

كئيب، أن تفرّ من موت إلى موت. الأمر أشبه بأن تقسم ذاتك بين لحظات لن تنتمي يومًا إليك ..

-2-

صلوات لا تغني و لا تسمنُ من جوع

في حفرة عميقة هوى غائبًا عن الوعي ؛ كأنما يهوي داخل ذاته .. !! و عندما أفاق وجد نفسه وسط أقوام متباينة ؛ فيهم السُمر و الشقر وحتى السود ، كانت ألسنتهم كألوانهم أيضًا . الشيء الوحيد الذي يجمعهم هو ذلك البؤس، وتلك البقعة القصية من الأرض التي احتضنتهم حفاة عراة . أظافرهم طويلة ، شعرهم منكوش ، أعينهم غائرة، أنفاسهم متقطعة، و أجسادهم أقرب للهياكل العظمية، و مجموعة صغيرة من ورق النخل تستر عورة الرجال، يختبئ وراءها ما يشبه الخناجر، الهزل والجوع بادٍ على أجسادهم النحيلة، نساء شبه عاريات - إلا أن عُرْيَهن لا يدعو لممارسة رذيلةٍ ما - يتظاهرن بإرضاع صغارهن حيث لا يتوقع أن تمتلئ ضروعهن باللبن مع كل ذلك الخوار والهزال والجوع البادئ عليهن ...و الصغار هم أيضا تظهر عليهم علامات الضعف بجلاء ، وحدهم الآباء يحاولون فعل شيء يقتاتون على كبرياء جنسهم الذكوري ويقاومون الجوع والمرض بنسبة تليق برجولتهم .

حلقت تلك الهياكل حول جسد كهنوف الممزق، و راحوا يعبّرون عن فرحهم بطقوس معينة بعد أن تولى شاب أسود ، القرعَ على الطبول ؛ فِيْمَ انتزع الرجال خناجرهم المعكوفة و شرعوا يلوحون بها في الهواء تارة، و بين أقدامهم تارة أخرى . خُيّلَ ل. " كهنوف " أن ثمة حفل عرس أو ربما هي طبول الحرب و الا قتتال تقرع منذرة بالويل والثبور.

لم يمض وقت طويل حتى حُمل " كهنوف " على أكتاف رجالٍ تتدلى من أمام وجوههم نواصيهم ، و ختم على شكل نجمة كانوا يرددون آيات تتحدث عن جنس تميز عن بني البشر ، يستحثهم على إبادة ما عدا شعب اللّه المختار بأيدي بني إسماعيل ..!!

وصل أولئك الرهبان إلى حيث نصبت المحرقة ..

" ديفد " الذي توشح الطاليت ذو الأهداب الزرقاء و البيضاء ابتهل إلى الرب بدعاء عريض و راح يذرع ذلك الرواق جيئة وذهابًا و ما إن انتهى من تأدية صلا ته حتى أمر بتقريب الذبيح .

هنا في وعاء النحاس هذا ، يجمع الدم الناتج عن جزّ الرؤوس لإعداد فطيرة العيد..!! و أيوب، التلميذ الفتيّ توكل إليه تبعات الاهتمام بالوافد الجديد ..

" كهنوف " العالق برأس الشمعدان كذرة صغيرة لا يدري ماذا سيفعل، دمه الذي عجز عن تغذية جسمه و بث الصحة في بدنه الهزيل، ماذا سيفعل لهذه الفطيرة الكبيرة التي تلتهم كل الطرق - رأسه - المؤدية للخلاص .

في وقت حرج كهذا، عرف " كهنوف " أن الصلوات لن تغني و لن تسمن من جوع؛ و رغم ذلك شاهَد أيوب مسجًى على قاعدة نحاسية و فجأة !

وقع حد قاطع من السماء ؛ و جُزّت رقبة أيوب . كان هذا بمثابة إذن للدم أن يسيل إلى الوعاء النحاسي وسط صرخات الابتهال ..

لولا أعجوبة كهذه، ما نجى كهنوف المتقزّم من الموت و استقبلَت الآلهة أيوبَ قربانًا لأنه تعاون مع العربي لتخليصه؛ ربما لاسمه العربي هو أيضًا قصةٌ أخرى أهّلته كسبب للإقدام على ذنبٍ كهذا ..

-3-

كن بردًا و سلامًا

بالكاد استطاع " كهنوف " أن ينجو منهم، كان منهكا جدا ؛ لدرجة أن غط في نوم عميق؛ هي هكذا الأجساد المنهكة، لا تفكر إلا بجوهر الأشياء ؛ كجوهر النوم مثلًا، و ليس مكانه أو كيفيته ..

عندما أفاق وجد نفسه في مكان ضيق و موحش؛ شاهد نارا مشتعلة تلهب أحشاء موقد ضخم. كأنه بدأ باستيعاب الموقف تدريجيًا؛ لكنه عندما حاول النهوض أدرك أنه مقيد إلى الأرض ، مرصودٌ بأغلال صدئة . صراخه يرتطم بـ الوحش البشري الذي توشح سكينًا ذات أسنان مدببة .. !!

- " ما الذي تنوون فعله بي ؟! " ؛ يواصلُ الصراخ.

- " ستكون طعامنا الليلة ، منذ زمن لم نذق اللحم ؛ طعامنا أوراق الأشجار ، لا شيء أقسى من الجوع والحرمان " بصوتٍ خشن و لعاب يسيل من بين شدقي و قد مُزجَ بجوع و خوار . بدا أمر فضفضته لفريسته أنه أعتاد محادثة ظله، و

يُكمِل " يا صديقي أطفالنا يموتون كل يوم بالمئات بسبب الجوع والمرض، لم تجرب أن يموت فلذة كبدك أمام عينيك، بين يديك دون أن تستطيع له سببًا، بل و تكون أنت أداة موته ..!! " .

يناديه يا صديقي و هو سيلتهمه بعد لحظات ..!!

جلبة و حرارة موقد فار تنورها أصدرت الأوامر " ألقوه في القدر " ..

أغمض كهنوف عينيه و راح يتمتم " يا ماء القدر المغلي كن بردًا وسلامًا على رجل تقذافته الهموم و الظنون " .

و بُعَيدَ قذفه بالمنجنيق، تلقفته كوة صغيرة ؛ فتحت في جوف صخور صماء لذلك الجرف السحيق ..

-4-

شاهدة .. !!

لم تكن الكوة سوى فتحة بحجم سَمّ إبرة .. - - " كيف لجسدي أن يحشر فيها " تاه فكره و زاغ عقله وراح غيبوبة جديدة ، فقد كان مرهقا بما يكفي ، وكان الأ مر غريبا إلى حد جعله يستسلم لميتة سريرة جديدة .

على الرمال الساخنة تبخرت آخر قطرة دم لرجل تاه في المجهول . أصبح الا صفرار يتلبّسُ جسده، ها هو ذا يعارك الزمن، و يتحدى الموت ؛ فثمة ما يجب عليه فعله، و رحلته لما تصل إلى نهايتها ..

بالتدريج كما يفعلُ المرضى في المسلسلات، فتح عينيه . هناك من يستحق الحمد في هذا الكون ..

لا زال باستطاعته مادام على قيد الحياة أن يشعر بالحزن من أجل الخراف و الجواميس التي يحشرها البشر في أمعائهم ..

" كهنوف " الشريد غارقٌ تمامًا في بؤسه ..

- " من أنت؟! " صوت ناعم داعب أذنيه

- " أنا إن شئتِ كهنوف، و إن شئتِ المعمود ، لك أن تناديننى بالهباء ، أو المتشظي .

ليس مهما من أكون ؛ إنما لماذا أنا هنا؟! "

- " حسنا أيها النبوءة ، لقد جئت إذًا، كنت أنتظرك؛ بحسب ما هو مكتوب عنك،

أنا أدعى شاهدة و مهمتي مرافقتك " ببساطة عرّفت بنفسها و اختصرت الكثير من الطرق التي يتذرّع بها معظم الرجال، حين يقابلون فتاة جديدة.

لكن الفتاة لم تبدو غريبة على كهنوف كان وكأنه قد شاهدها في مكان ما خلال أسفاره التي ابتلعت نصف الكرة الأرضية ..

أسرع بسؤالها عن من تكون ...نسي تماما أنها قد عرفت بنفسها بما يكفي في بداية اللقاء ...

تبسمت قائلة : لعلك تشبهني بفتاة ما يقولون يخلق من الشبه أربعين ..

أسرع مجيبا : نعم تشبهينها " فيرونيا " ...

. آآآه كم كان ذلك الملاك رقيقا وكم أنا عاجز عن الوفاء لها فأنا مدين لها بحياتي ...

. آآآه لقد قابلتها إذن في الدير لعلك التقيتها في سانت كاترينا هي شقيقتي التؤم ...

. يبدو أننا جميعا في مهمة خاصة غرضها مساعدتك ...

لم يفهم كهنوف علاقة تلك الفتاة العربية " شاهدة " ب. " فيرينا " المسيحية ...لوهلة اعتقد أنه الشبه المجرد ..لكن اعترافات شاهدة بقرابة فيرينا أمر يصعب تصديقه وفهم مغزاه

لكن ربما تسميتها لي بالنبوءة هو ما يجيز حدوث هكذا معجزات أو ربما كرامات ..ما يهم في الأمر أن الفتاتان كانتا على موعد مع كهنوف و مهمتهما المحضة مساعدته للوصول إلى بغيته

-5-

كما تفعلُ يوم ً ا .

في أزقة باب الكبير تجوّل " كهنوف " بصحبة " شاهدة " ؛ الفتاة الجذابة ابنة جبل صبر بقميصها الملون و باقات المشاقر والورد الأحمر و الأصفر التي تمنطقت على يمين رأسها المعصوب بمقرمة ملونة . تلك الفتاة الخضراء النحيلة، تتقدم بخطى واثقة يتبعها كهنوف الذي شده شيء ما ؛ فراحَ يمخر عبابَ باب الكبير و باب موسى .

دخل السوق القديم و شرع يفتش عن بغيته قميص و «جنبيه " وعمامة .

- " تبدو رائعًا..!! " قالت شاهدة و هي تجيل نظرها في " كهنوف " ، الذي صار

يمنيًا بلحظة ارتدائه .

أخذَت " معوزًا " و " قائشًا " ، وعرضت على كهنوف أن يرتديها، أسرعَت باتجاه المدينة المكتظة بالناس ؛ الباعة الصغار و الكبار، والنساء . كان السوق يموج بأطنان البشر، يمارسون حياتهم اليومية برغبة عارمة بالحياة ، متجاهلين الوضع الأمني السيء الذي جثم على مدينتهم الجميلة منذ تسلط السيف على رقاب الخلق، و سجن العقل داخل زجاجة أودعت بطن البحر السابعة ؛ بفعل سحر هاروت و ماروت ..!!

كان النهار جميلًا و الشمس تخضب وجنتَي السماء بحمرة الشفق .

" كهنوف " الذي شدته المدينة و أبهره رقي و تحضر أبنائها ؛ تسامحهم، و لطفهم ، وحبهم للناس؛ من عرفوا و من لم يألفوا . كاد يكتملُ سحر ذلك النهار لولا تلك القذائف التي تقاطرت على المدينة ؛ لتزرع الخوف و تنشر الموت . سالت الدماء أنهارًا . الرعب والهول سيدا الموقف . أناس يتدافعون، صراخ ، وعويل . كان المشهد مروعا ..! ثمة أروح تزهق، وأشلاء تتطاير .! سجى الظلام الحالمة الحزينة و اتشحت بالسواد، و ستصبح تلُمُّ أشلاء الضحايا من الشوارع؛ كي تحظى بنور جديد كما تفعل كل يوم .

-6-

عَبْرَ " سينما بلقيس " .

في الأثناء الحرجة - من عمر المدينة - تكوّر " كهنوف " على نفسه و راح يصرخ، و كفّاه تنهشان رأسه كالمجنون . بدأ يندد بعشاق الظلام، و يلعن أنصار الشيطان، و يتوعد أصحاب الرايات السود . يرعد، و يزبد؛ و كأنه يملك من القوة و المال ما يكفي لاكتساح العالم، و استعباد البشرية ؛ غير أن كهنوف يريد توحيد الكرة الأ رضية، و تحرير بني البشر من العبودية .

- ارتفعت قهقهات " شاهدة " التي بادرت بسؤال كهنوف و قد قرأت ما يدور في خلده وما يتمناه في هذه اللحظات :

" لو أنك أُعطِيت ملك سليمان ، هل كنت ستجري العدل و تحكِم العقل و تنشر الحب؟ " .

- " كهنوف " بتردد :" إن للسلطة سلطان، و إن للمال افتتان، و إن العقل ليحكم بـ السلطان، و إنه خادمٌ له ، وليس بحاكم له،

و إني لأجد القلب أصدق من العقل ، و إن العقل لا يغلب القلب و بذلك هلكنا "

يستمر الاثنان بالسير في أزقة المدينة المحاصرة ؛ يتخطفهم الموت و يشاهدون سُسَخ الموت المتربصة بالجميع من كل حدب و صوب .

في الجحملية تصِرُّ " شاهدة " أن ترافق " كهنوف " إلى " سينما بلقيس " سوف أريك شيئا يجعلك تفهم سبب الدمار الذي حل بهذه المدينة هو بمثابة السر الذي ستكتشفه بعد هذه المشاهدة وهو من صميم الهدف الذي جاء بك إلى هنا ...هيا قبل أن تعطي الإشارة الربانية إذنًا بمواصلة مسيرة البحث و الطلب . تهمس " شاهدة " في أذن " كهنوف " . لم يكن " كهنوف " وقتها قد تبادر لذهنه شيئًا سوى أن هذه الفتاة مهوسة بالأفلام الكلاسيكية، و تبعاتها، و ذلك لم يحرك الكثير داخل رجل شرقي غليظ لا يرى سوى هدفٍ وحيد ..لكن بعد أن فسرت شيء من سر هذه الدعوة دخل بوعي جديد هادفا لفك الطلسم وابطال السحر .

ابتدأ العرض؛ بوصول سفينة تحمل علمًا " دانماركيًّا " أقلّت على متنها طاقمًا مكونًا من ستة شبان ، كانت ملابسهم تدل على أنهم " أرستقراطيون " من القرن الثامن عشر ." كهنوف " الذي اضطرب جسده فجأة ، انتقل " كهنوف " عبر الزمن ؛ وخلع جسد القرن الحادي و العشرين خاصته، تاركًا إيّاه عالقًا في متاهات آلة الزمن " كهنوف " اللحظة؛ روح تلبست جسد جد عاش قبل مائتين وخمسين سنة في أرض دعاها الإغريق بالعربية السعيدة . جاءتها البعثة عبر البحار، حاملة " إكسير " الحياة ، بواسطة مصل لعلاج داءٍ تفشى و مضَت أنيابه تنهش أجساد الصغار ، مبتلعةً أحلامهم ، مزهقة أرواحهم .هنا، الجميع مطلوب للمثول أمام شبح الموت، والنطق بالحكم لا يحتاج لكثير من الجلسات و لا المرافعات و لا المداولات ؛ فالموت حكم نافذ ولا مجال للاستئناف .

-7-

هروب من عزرائيل.

على خشبة الميناء يقف أقدامٌ كثيرة بملابس تقليدية، ثمة نصلٌ يتوسط أجسادهم، و ما يشبه العمامة يتربع فوق رؤوسهم الفارغة . وصلت السفينة .ترجّل الفريق حاملًا الأمل . صدَر المرسوم الإمامي بإهراق اللقاح في جوف البحر المسجور، و قتل الأجيال عنوة مع سبق الإصرار و الترصد . فار البحر الذي ما احتمل أن يكون أمينًا على تلك النطفة التي قذفها عضو أبتر ٌفي أحشائه التي هاجَت مبايضه و ما عادت تفرز غير الدم ؛ قاذفة بأولئك الأبناء غير الشرعيين ، سقوطًا تلو سقوط . ما زال البحر الأحمر يجهض نفسه كلما بدأ جنين ممسوخ يتكون في أحشائه

" نيبور " الناجي الوحيد متقلدٌ سيفه، يخاطب النبوءة :" في كل مائة عام

تزهق روحٌ عوضًا عن أولئك الذين قتلهم جشع العمال، و جهل مملكة الموتى . يزعمون أن ثمة حياة في البرزخ . لم أكن أتخيل العيش في هذا القبر الشاسع الوعر لسبع سنوات مظلمة ؛ لذلك وجب قتلك ونهب جسدك و إرسال روحك لتسافر عبر الأفلاك و ترصد هناك في قلب طفل على قرن ثور في مجرة الدرب و قد وقع الاختيار عليك "

على ما يبدو أن " نيبور " ثرثر كثيرًا ؛ لكنهم الغاضبون، ينفجرون كالسيل .

" كهنوف " في هذه اللحظة ، مجموعة من الشهقات ! أيقظت الطيور النائمة، و الخلائق الهاجعة و جاءه النذير : " قد جئتك من سبأ بنبأ عظيم ، اذهب فإن القوم هنا يأتمرون بك ليقتلوك، أو يرسلوك إلى عالم ثالث؛ فتموت كل يوم ألف مرة " .

عزرائيل الواقف على الباب يحدق في كهنوف يضرب أخماسا في أسداس ما الذي تفعله هنا؟ صاح في وجهه

كهنوف لست سوى روحا تلبست جسدا جاءت عبر الزمن لتشهد على جريمة ارتكبها الآباء في حق الأبناء وحكموا عليهم بالموت مرضا . هذه اللعنة التي ظلت تلاحق الأجيال... حتى القرن الحادي والعشرين لم يستطع أن يفك الرصد ويبعثر اللعنة لا التمائم ولا الشعوذات ولا حتى الدعوات استطاعت أن تنقذهم منها .

- عزرائيل مجيبًا: " ستموت أنت أيضًا بالملاريا؟! كنت أظن أني سأقبض روحك في مكة المحرمة ..!! " .

أظافر طويلة نشبت في جسد كهنوف؛ كماشة تحاول اقتلاع روحه من أخمص قدمية، شلت حركته، تصاعدت أنفاسه، شقهاتٌ شهقاتٌ ..

أخيرًا، بساطُ ريحٍ حمل ذلك الجسد المسجى و طار به بعيدًا

هناك حيث توقفت " شاهدة " سابقًا

فُتِحَ مجال في جوف السماء " اذهب فقد حان الوقت لأن تعود ..!! " .

-8-

بعيدًا عن أرض واق الواق

وفاءً لها ، أنتظرها حتى تلاشت " شاهدة " مع الريح ، ثم قذف " كهنوف " بنفسه في فتحةٍ يبغي النجاة ؛ فالجميع يتربص به " نبيور " و " عزرائيل " و جيش البعوض الذي بدأ يلعب بنسبة اتزان الدم في جسده .

هنا ، أسراب طيور متوحشة، تقذف حمم نار تحرق الأخضر و اليابس ، أعمدة الدخان تتصاعد، أشلاء تتبعثر، ورؤوس تتطاير ، مبانٍ تتكوم ؛ تضرم النار فيها حقدها تحيلها رمادا. أطفال و نساء حفاة عراة يُحشرون في مضيق بين جبلين، أفواج تتدافع ؛ تقتحم نفقًا يمضي بعمقٍ في جوف الأرض . رجال ملثمين يعتلون مدرعات لها خراطيم تقذف كرات نارٍ أيضًا . على التباب تمركزت مصفحات متعطشة للدم ، فتحت حلقومها و راحت تطلق مخلوقات عجيبة لها رأسين بعين واحدة، و ذيل مشتعل تتساقط كنيازك على المدينة، و أمسَت نهرًا من دماء..!!

لا شيء سوى الجثث، و الدمار، و رائحة الموت، و قانون غابٍ؛ القوي يقتل الضعيف و المسلح يرمي الأعزل . الجميع تحت رحمة المدفعية، و الرصاصة سيدة الموقف ؛ النساء و الصغار الكبار والشيب والشبان لا أحد مستثنًى في معركة الموت .

أيدٍ تتطاول ، تمزق جسدًا شبه عارٍ، سيل الأسئلة يقذف ب." كهنوف " في شلا ل من التهم ؛ من أنت ، و إلى أي فصيل تنتمي ، عرف بنفسك ، أشهر أوراقك الثبوتية؟!!

- جلس كبيرهم و قد عقد حاجبيه و حجب ثلثي وجهه : " إن لم تكن معنا فأنت ضدنا، ستحمل السلاح وتمضي لتقاتل في الجبهة ؟ " .

- " أقاتل من ؟!، أنا لا أحترف القتل و لا أنتمي لأي جهة، فعلامَ توردونني موردًا كهذا؟ أكون فيه الخاسر في كل الأحوال؟! " .

- " إذا ستموت حتف أنفك .. !! " قال كبيرهم و قد تحول وجهه إلى قطعة من نار .

" ضعوه حيث تتمركز آليات مقاتلينا المتروكة ، سوف تتكفل الطائرات بإرساله إلى العالم الآخر. " .

صوت شج مغالق أسداف أذنَي " كهنوف " ، أكان ذلك صوت السماء؟! تعلن ميلا د غيمة و تفتُح زهرة؟!

- " يا للهول ! ما هذه النار يا للسماء ! أيعقل أن تتحول إلى تنين " تابو طوطم " كبير؟!!،

ما ذلك المخلوق الذي يقذف بألسنة النار ؟! ، لم أشاهده من قبل ..! "

الموت ، لا شيء سوى رائحة دمٍ جرى أنهارًا، و جثثٌ تطايرت أشلاءً .. !!

كهنوف الناجي الوحيد من معركة الأمس المجنونة ..

- " ألم تمسسك النار ؟!ألم تكن ضمن القتلى؟! " . يتساءل ذلك المسخ ذو الأ

نياب الطويلة

- " من أنت ؟! " . يصرخ " كهنوف " في وجهه و عيناه جاحضان ..

- " أنا الموت القادم من الغرب، أنا دراكولا، ألم تشاهد من قبل فيلم مصاص الدماء؟! لعلك ظننته خدعة انتاجية كالتي تشتهر بها " هوليوود " ..!! لن أتعبك ، لن تجد من يترفق بك مثلي؛ بمجرد أن أغرس أنيابي في رقبتك، سوف تستسلم لنوم أبدي ..!! ما حاجتك للبقاء في هذا العالم؟! ألم تسمع برصاصة الرحمة؟! هبني هي و فكر مليًا في الأمر؛ أن العيش في هكذا عالم، يقتات أشلاء الصغار، يتعطش لدماء الشباب، يقتل فيه الأخ أخيه، و يسلب الابن حرية أبيه ..!! في هكذا عالم لا يؤمن إلا بقوة السلاح، غيّبَ العقل، و نسفَت قوانين القلب و العواطف، و حكم شيطان ملذاته، حريّ أن تغادره طائعًا، غير مكره؛ إنما أخشى عليك سوء الخاتمة؛ فلست تدري أي منزلق تزلّ قدمك، فتجرّ حتفك إلى الهاوية، و تتحول مثلي إلى مسخ، إلى دراكولا جديد، متعطش لشرب الدماء، تستهويه رائحة الجثث العفنة، وتبهره الأعضاء المبتورة، حيث قتلت الإنسانية و ماتت الضمائر لا مكان لك هنا وليس أمامك إلا أن تختار طريقة تناولك كأس المنون؛ إما بيدي، و إما بولوجك هذا البحر المنداح أمامك . اختر طريقة و دعنا ننهي هذا الهراء الآن!! " .

كهنوف الذي أبتلع لسانه من شدة الخوف و زاغ بصره في تلك السماء الملبدة بغيوم الموت، و أدخنة الحرائق، و الأجساد التي تحولت إلى شواء، دونَ أن يلمس كهنوف ببنت شفه، أسلم نفسه لتلك الموجة التي حملته بعيدا عن أرض واق الواق ..!!

* * *

الفصل الأخير

-1-

الحقيقة المُرّة

بقعة ضوء تتركز كنقطة هائمة في الفضاء صوب فكر كهنوف المنشغل بالبحث عن ذاته .. تتحرك بقعة الضوء مسقطة مع حركتها عدة أقمار صوب محاولاته إ يجاد موقع ًا لذاته بين ظهراني جموع القطيع ، و عن هدوء أمة لا يتمثل في واقع الحال إلا بإدراك حقيقي أن الولادة الحقيقة لا تكون إلا من داخل ٍ مفعم

بالبياض ، و الإيمان ، و الدعة ، و الإنسانية .. جال كهنوف الأصقاع ليرسم لوحته التي كلما مر بجزء من مساحتها تشظت الألوان فيها إلا الأحمر فاتكأ على ذراع البسيطة مؤمنا بأن الأرض ؛ إما أن تجعلك حافيًا على ظهرها أو تُمكنكَ سيدًا . كثيرٌ ما يبطش بضعفك ليرميك تحت الثرى ، يحثو في حنجرتك فحيح الموت . فإن شئت كنت ملاكًا و إن أردت كنت متطرفًا ، أو خانعًا ، منكسرًا ، أو مشردًا ، و إن شئت رسمت جدارية حياتك كلوحات (بيكاسو) على حائط أروقة الحياة .

خلال عام أو ألف ، لن يتغير المسرح ؛ فماتزال المدن أسيرة ، و أحلام رجال القبيلة وليمة حزن ، يمتطون جدائل الحرائر المنسوجة بالبكاء ، و ينكسون الرايات في سجن داخل ضفاف الجزيرة ، يقاسمون الصقور المبرقعة محاولة الا نعتاق في فضاء غير مسيج ، تضحك فيه الريح من دهاء الراعي و كمون الرعية ، و الراكض مكبل تحت الغيوم الملبدة ؛ محرمة ثورة الأيدي ، محرمة ثورة الرؤوس ، محرمة ثورة الألسن ..

كهنوف ما زال يخطو على جثته يبحث لها عن قبر يستوعب هامته التي تضخمت و جسده الذي احتوى جثث الحالمين و النائمين السائرين بلا رؤوس في بسيطة يتناسل فيها مصاصو دماء الأحرار و الأبرياء .

الجالس إلى جوار كهنوف في المركبة التي تقلهم الى الأرض المباركة ، تنهد بعمق و وجه حديثه لـ كهنوف استكمالا ً لحديث يدور بينهما : " ادًا تقاسمني يا رفيق الطريق غربة الذات و سفر الروح في مساحات وجه الزمان ، في الأزقة الرطبة و الأبواب المنخفضة تحت سطح الأرض . فلا وطن إلا يغتال أمانك فيه ، و تُمزق قافيتك ، و تتبدد لغتك ، فتعاقر زمهرير شتاء في أرض لا تعرف إلا فصل واحد فصل الشتاء ، فعلى ماذا تبحث في رحلتك الطويلة القادمة..؟ .أتبحث عن حفنة مال ؟! "

- " بل أبحث عن من أكون ؟ عن من يكونوا ؟ عن روح لجسدي و أجساد تتمزق بفعل الجهالة و الضالون ، عن عقول نورانية ، عن أجساد امتلأت بالبياض ، عن وطن يرسم ملامح إنسانيتنا و حدودها ، أبحث عن كيان ، و أرض تدثر ضلوعي المكشوفة بلا رداء ، عن مكان لا تنهر مياهه دماءً و لا تلبس الوجوه فيه الأقنعة . "

- " اها .. تبحث عن المدينة الفاضلة إذا ؟! لبحثك شواهده معلومة النتائج ؛ إنه إلى متاهة ؛ فأنت واهم ٌ و تهذي ، مقالع الأعين لن تدعك تجد أرضًا توطنك ، أنت تسير على حد مسنون ؛ كحد سيف الحجاج ، و يزيد ، و هولاكو، و هتلر و من انساق على أثرهم ؛ بل و كل نصال السيوف التي صنعتها يدٌ ذات خمس أصابع لا تتشابه أطوالها . البشر كلهم يا رجل من أب واحد و أم واحدة ؛ آدم و حواء ، بينما القسوة شعوب و قبائل ، و الأرض منقًى ربانيٍ مؤقت .. و التوجيه ا لإلاهي؛ السعي في مناكبها ، و الأكل من رزقها ، و إليه النشور

- " أنت تختصر الحياة في أضيق طرقها (مشي ، أكل ، نشور) "

- " نعم اختصرها في ثلاث كلمات عمقها لا يقاس.. ! خوض عسير المشي في مناكب الأرض ، ها نحن نمشي في مناكبها .. أنت تبحث عن مجهول و مأمول و أنا أركض بحثًا عن المال ، عن رزق انعدم ، و شح في أرضي ، في موطني ، أعدمَه الشرهون من لصوص ؛ الضعفاء حين آمنوا بمقولة (جوع كلبك يتبعك) فتبعناهم و جوعونا، و سلبونا حتى رؤوسنا التي تفكر في النشور، قطعوا السنتنا ، ملئنا رعبًا فأصبحنا نخاف من الخوف و نفر إليه ، قسمونا نصفين ؛ نصف يحد النصال و الآخر يحنى الرؤوس استعدادًا للذبح "

- " يا رفيقي بيت الله محضن لتبييض القلوب و النفوس و سمو الأرواح؛ لذا أنا ذاهب للتبتل في رحاب الله؛ أبحث عن ضالتي .. "

- " قد تجدهـا يا كهنوف ....! و قد يجدونك ..! "

- " قد يجدوني !؟ نعم و قد أجده...! ذلك المصير المحتوم . "

ساد صمت بينهما ، لا يقطعه إلا صوت نهب عجلات السيارة للطريق .. استحضر كهنوف حديث الشيخ الذي قابله في مطعم العبارة المتجهة الى ميناء مصوع و سأله عن أهل الخطوة .. قال له الشيخ المعمم قبل أن يغادر الطاولة التي اقتسماها لتناول القوت : اخلع نعليك و تقدم راكعًا صامتًا و اذرف جفنيك و أنت في حضرته طائعًا .. سيبدو لك كقوس النهار و عيناك المسبِلة يهمي ماؤها و قلبك في تجلٍ ؛ فالمدائن العتيقة ، و الإلاهية لا تضم رؤوسًا بلا عمائم الكرامة ، و قلوب الرحمة ، و روح التبتل و التجلي؛ فلا بقعة تحتضن العالم كأرضها .. كل المسارات حول القامة السوداء مجللة بالبهاء و النور و الأمان ، سينغرس جذعك ليثمر عن المنشود في أرض لا تغرق و لا تنهر دماءً أو أشلاءً .. بقعة تقع تحت بيت السماء ، و في السماء آلاف الملائكة تتبتل كل يوم و لا تعود ، و في الأرض مئات الآلاف من بني آدم يتبتلون ؛ قد يعودون ؛ فكن من أوليائه الأخيار .. سنلتقي هناك ننهل من جمال الروحانية و مشاربها .ها هو يسقط كل أوراق المدن و كذلك هدفه غير المعلن (أوروبا) عدا المدينة التي يولي وجهه صوبها .

.. تداعت الأحداث بدءًا من كهف أرض الرافدين إلى جلوسه في المركبة المتجهة الى الشمال الغربي لجزيرة العرب بمحاذاة ساحل البحر الأحمر مستكملا حلقة تنتهي عند مقامٍ محمود ؛ لينغرس جذعه و يشرب من مائها المبارك بعدما أنهكته رحلة صداها الموجع ، و أنينها يُزلزل حدقته المتبقية التي التقطت همجية البشر و تعطشهم لإفراغ الأجساد من ماءها الأحمر و كأن كثير من النفوس البشرية بها لوثة داعشية ، تزهر بأنهر الدماء ، و تفجير الرؤس ، و جز الأعناق ، و تقطيع الأطراف ، و شوائها على أنغام التوحـــيد ، أو صوت هدير أمواج البحر و هي تبتلع فريستها الموضوعة في شباك الظلم و القسوة .. ما تزال المركبة تنهب الأرض تنثر عبر الطريق صدى أغنية الفنان إبراهيم الماس الشهيرة " من عامل الله

لا يخشى و لا يندم " ، و السائق كلما انتهت الأغنية أعاد لف الشريط من جديد حتى بلغ عدد مرات اعادة سماع الأغنية كعدد المدن و المرافئ و المعابر التي طرقها كهنوف ؛ ليخرج منها كخروج الوليد من بطن أمه و يبلغ المراد ، و الزجاجة تأبى خروجه قبل الانحشار في عنقها ؛ ليشاهد كل ما مر به من فجائع .. يراقب السائق و هو يتمايل على جنبيه و يحشو تجويف خده الأيمن بورق القات كآخر" تخزينة " .له قبل ولوجهم إلى خط الممنوع ، إلى حدود بدء الأرض المحتضنة للبقعة المباركة و التحامها بأرض بلقيس .. ركن السائق المركبة و خرج الجميع يفردون جذوعهم و أطرافهم في الهواء و سوق "الخوبة "يضج بمرتاديه و عربات الباعة الخشبية و المحملة بالبهارات ، و البن ، و القشر ، و الحب ، و الزبيب اليماني ، و مشغولات يدوية من الخوص ، و " مغشات " الحجر ، و مطاحن مصنوعة من الحجر البركاني ، و بضائع عديدة ، و أناس تشرق من بين أيديهم شموس الماضي ، و التراث .

-2-

ملامح باهتة

أمعن كهنوف في وضع البائعين و البائعات و رواد السوق من رجال و نساء ؛ ففي سوق " الخوبة " الشعبي الذي يقصده أهل القرى الحدودية تسقط أوراق الهوية و الحدود الفاصلة ؛ سوق تبعث فيه أصوات النساء روح ً ا و جسد ً ا ؛ و هن يتعاملن بسجية و سمو خلق ، لا فرق بين بائعة و بائع في موقع الرزق .. و يظل التلاحم الجميل كتلاحم الأرض بالأرض .. عادت به دوامة الزمن لتأخذه الى أربعة عشر قرنَ مضت .. ابتسم و هو يصلى على نبي الله و آله .

لمح كهنوف فتاة شابة يلتحف نصفها الأسفل فوق حجابها الأسود ، مصنفٌ مخطط بخطوط حمراء و صفراء و زرقاء من رداء أهل المنطقة ؛ تعرف ب. (الوزرة) و تضع خمارها على رأسها ؛ ليبرز منه وجه ملائكي رقيق يزين جبهتها طوق من أزهار النرجس الصفراء و تضع قبعة مصنوعة من خسف (جريد) النخل ؛ فزادتها بهاءً .. يتدلى على صدرها عقد فل محلى بأزهار الليلك ؛ فبدت ملفتة لكل من يشاهدها . أخذ يُراقبها و هي تحاور بائعة ترتدي فستان مشجر بالأ حمر و تحته وزرة زرقاء و تربط رأسها بمِصَرٍّ أصفر و تلتحف بمشملة سوداء رقيقة تشف ما تحتها و تشرح للفتاة عن " المغشات " ، و القدور ، و مشغولات الجريد المتنوعة من الزنابيل ، و القفاف ، و القبعات ، و " المفتات " .. تتكلم المرأة إلى الفتاة بسعادة عن تفاصيل بضاعتها و كل ما يحتويه متجرها من صنع يدوي محلي . الفتاة معجبة و كثيرة السؤال عن التفاصيل . في تلك الأثناء تنهض امرأة ستينية ، كانت تجلس داخل المحل بين الأواني الحجرية و الفخارية بعدما فرغت من شرب قهوتها المصنوعة من القشر المحلى بالزبيب من ، تنهض

حاملة في يدها طبلًا إطاره أحمر و تبدأ الدق عليه إلى أن تستقر خارج حجرة المتجر المصنوعة من الزنك في مواجهة ساحة فيها غاديين و رائحين، ثم تصدح بالغناء بنغم جنوبي جميل ؛ فتحمل عنها البائعة الطبل لتواصل الضرب عليه بينما المرأة تواصل الغناء و الرقص و إصدار أصوات النغم بصوتها " دم ددم دم ددم يااه ياااه . "

تجمع حولها اناس كثر و هي تتثني و تغني ثم فجأة تتوقف وهي تقول (فتو و لا مكملش) فيضع بعض الواقفين ممن يرغبون في الترويح بضع ريالات في زبديتها التي وضعتها أمامها .

مسرح ترفيهي على الهواء مباشرة ، المتسوقون جمهوره ، و المرأة بطلته ؛ امرأة أرملة عرف أنها امتهنت الغناء ، و الرقص الشعبي لمن يدفع لتربي أيتام تعولهم بعد وفاة ابنها الوحيد و زوجته في حادث سيارة . كان عرضًا حيًا جميلًا و محزنًا لامرأة في عمرها ؛ بينما الفتاة تلتقط لها الصور و تقف بجانبها للتصوير معها و تدس في يدها مبلغًا . ثم تغادر الفتاة مع مرافيقيها الذي عرف كهنوف منهم أن الفتاة من مدينة " جدة " بضيافة المنطقة الجنوبية في مهمة إعلامية .
.

... واصلوا السير مرورًا ب. " صبيا " فهناك صبيا العتيقة ؛ التي تنام خلف صبيا الجديدة و فيها يرقد الرجل الصالح الذي تنبت شجرة سدر قريبة من قبره و كلما اجتزوها من جذورها نبتت غيرها . إنه المراد الإلاهي . يؤمن كهنوف أن الصالحين يتولاهم الله و لا تقطع جذورهم دواعش الأزمنة و لا نار يمارس طقوسها الوهم و الواهمون في أزقة المحال ممن لا يملكون ماء ً للحياة ، بل لهب و نار . رغم شواهد الحزن الذي يولد المدن الخرساء و الأفواه الملقمة حجرا مازال يحلم ، و يحلم يملأ الليل ، و النهار بالألوان التي تملأ قلب ً ا مسه الحزن ؛ عله يجد ضالته حيث ، يولي مليار و نصف وجوههم صوب بيت الله فيشكلون دوائر تؤكد أن نقطة البداية هي نقطة النهاية فمن حيث يبتدئ سيعود . و كهنوف ابتدأ من كهف العراق و سينتهي عند آخر الحلقة الدائرية ، عند البيت المجلل بالروحانية و سيكسر قاعدة فهمها له ذات زمن " إنه من حيث ابتدأت تنتهي " سيجد الضالة في غير كهفه الذي غادره .. يحلم على ضفاف الأمل يخضب فكره بما قد يتحقق .

عاد المنير الوضاء من حيث أتى الى حيث فظاظة أهله و عشيرته و تكذيبهم ، عاد الى المقام المجلل بالسواد الى حيث دعا إبراهيم ربه " ربي أجعل هذا البلد آمناً و اجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم " عاد الى حيث أطاع الابن والده في رؤيته بالمنام قائل ًا لأبيه ابراهيم " افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين " . سيكون كمثل الابن البار بوالده المطيع لربه ، صابر ًا يفعل ما يأمر به من الأمر الإلاهي .. تداعِي أفكار " كهنوف " حول المدينة الطارد أهلها للنور أشعره بالضيق ، أراد أن يطوي الزمن ساعاته في لحظات لينتقل بعيد ًا عنها

بأي من وسائل " أهل الخطوة " . لن يبقَ ثانية على أرض رَمىَ من فيها حجر ً ا في اتجاه مبشرها و منذرها .

قال سائق المركبة : " كم ارتوت هذه الأرض من دماء ؛ إنها حكايات بقر بطون الحوامل و قتل الشيوخ و الأطفال على أنهم كفار يعبدون القبور ، و الأصنام في القرن الثالث عشر .. سميت مواقع قتل الناس بالشهداء لالتقاء الجيوش ؛ جيش المدينة ، و جيش إخوان ٌ من طاع اللّه . و جرت معارك أريق َ فيها ماء الحياة على تلا ّتين . كأن التاريخ يعيد نفسه في تفريخ الدواعش لكل حقبة من حقب تاريخ أمتنا باسم التوحيد ؛ توحيد العقيدة ، و توحيد البلاد ، و توحيد المصالح بينما جسور من الجثث ممرات و معابر من أجل الكراسي في حقيقة الأ مر .. إنها حكايات لا يعرفها إلا جيلنا . اندثرت مع كبارها المغادرين ؛ الذين تركوا الحياة مرغمين و طويت الحقائق معهم . اليوم أصحاب الرايات السوداء يزلزلون الأرض بسلاحهم الأبيض المطعم بأساليب التفنن المقيتة إنساني ً ا ؛ ليقدموا القرابين لسيدهم الأكبر حاملين رايتهم السود كسواد قلوبهم . "

نظر كهنوف الى وجه الجالس الى جواره يستشرف وقع الحديث عليه فوجد ابتسامته تكاد تشق خديه و تدلى ذقنه لينغرس في صدره بينما حاجباه تقوسا حتى كادت تقف شعراتهما الطويلة .. و هز رأسه و شد شفتيه . أبعد كهنوف كتفه عنه يتحقق مما رآه فأشاح الرجل بوجهه منشغلا بالطريق .. فهم كهنوف من تصرفات رفيق الرحلة أن الولوج إلى دهاليز التاريخ المعتمة ممنوع . و أن الحديث في التاريخ الأسود سيسقطهم في بئر ليس له جدران و لا دلو و لا ساقية . حبس لسانه داخل فكيه ؛ بينما السائق الستيني يسرد رواياته التاريخية بسلاسة و كأنه عاشها و الجميع صامت يصغي و قد فقدوا القدرة على النطق من مفاجآت سرديات السائق الذي ظنوه لا يفقه إلا في طرق إدارة مقود سيارته ؛ فوجدوا أنهم أمام موسوعة للتاريخ الغابر المُغير على أيدٍ خُضِبتْ أكفها بدماء كرامة الأبرياء .

كهنوف مثقل ، تنصب ارتجاعات مشاهداته إلى العمق ، صور الدماء الأشلاء ، و الجثث تتخذ من جسده مسكن ً ا يقاوم تشكيلاتها .. ينافح عن نفسه الوجع الضارب في روحه فيزهر عن أنهار دماء تارة ، وأخرى عن أيدٍ تحمل أحذيتها سلا ح للتقاذف لم يعد يملك الأحرار الصادقين أمام الملوثين بالهمجية إلا سلاح أحذيتهم ؛ ليسبروا بها أغوار الضلال المخيم في أمخاخ و أنفس النمنم الذي يبدأ وليمته من الأجساد الآدمية باسم اللّه ، و باسم الدين ، و بالتكبير ، و تحت لواء دولة إسلامية ؛ رمزها السواد كسواد عقائدهم و تسوس رؤوسهم و تحجر تفكيرهم ، ثم باسم الحرية و اسم الديمقراطية التي دعا إليها رأس الشيطان ، فقتل و هدم و اقتحم هدوء أمة ؛ ليحول الشرق الى مرجل لا تـ ُط فـ أ ناره . بينما النورانية مطفأة في أرجاء الأرض المسلوبة القدسية ، و تحول القيادات إلى فعل هزوٍ بمعارك لأوطان ألبسوها الحلل الحمراء استعداد ً ا للشنق و وقفوا

يتباهون بحللهم و راياتهم السوداء ..

كل الوجوه كالحة ، الجنون ، والجهل يربض فيهم و في يد كل جاهل ، يحمل س لاح يستبيح به عذرية الأوطان و طهارتها ، يتلونون بألوان الإنسانية ليخفوا به الوحوش الراتعة في ساحات و أدغال نفوسهم الملوثة .

يتمنى كهنوف لو يفرك مصباح علاء الدين ؛ ليفر من الأرض الى عالم لا يستخدم فيها قدمه و لايري فيها قطعان منحنية الرؤوس تسير في اتجاه واحد ، طريق واحد تحمل أيديها سيوفًا ، أو أحذية . سيقول لجنى المصباح الذي سيخرج إليه هذه المرة و لن يدخل هو الى داخل المصباح كما حدث قبلا . سيقول له مطلبي أ ن تغسلني في حضن الأرض المباركة بالماء المبارك لأوقف المقاصل و أجمع أشلا ء الشعوب و أصنع منها تمثال . أزينه بقدمي وعيني التي ما زالت في عراء أ رض المحشر تنتظر القيامة لتعود لي إلى مواقعها التي اقتلعت منها بفعل الجبروت .

يقبلون على طريق ملتوٍ يبدو كالأفعى حول خاصرة جبال شاهقة ينحدر في سلا سة يختصر المسافات و الزمن ليربط المدن المتربعة على قمم الجبال الشاهقة بمدينة تنام في الوادي تهفو إليها الأفئدة .

الطريق الأفعواني في جبال " الهدا " يفتح في ذاكرة كهنوف كهوف الذكريات و يخلق رونق ًا متسق ًا مع حكايات الطفولة التي فتحت ؛ عليه استحضار حكايات الكبار التي تجعل من خيالات الطفولة واقع ًا ، فكأنه يرى في قمة أعلى جبال الهدى "مسكة " و في قاع الجبال أخيها " رشيد " و بينهما مسافة للموت ، ذلك الذي يأتي لينهي كل شيء في الخفاء لا ترى من آثار معركته مع المستهدف إلا جثة هامدة منتزع منها القدرة على شد أوتار الجسد و أطرافه . الموت عشق الأرض للأجساد ؛ فتحتويها إلى حد الاستخلاص و الذوبان فيها . " مسكة " و أخيها تتالت فجائعهما في لحد والديهما و هما برعمين في العقد الأ ول للعمر بلا أقرباء و لا معين ؛ فالتفت أذرعهما ؛ ليجتازا قسوة الأرض ، إلى عشق الأجساد ، إلى استخراج الحياة منها ؛ بزرعها فاستمرا ببذر الحياة في مزرعة والديهما تحت الجبل الأحمر الكبير و قمته العالية و الذي كانت تحذرهما والدتهما من تسلقه و الصعود لقمته ؛ فالجبل ملك المارد الجبار الذي يحرسه و يحلق حوله بجناحيه الطويلة و ذراعيه القوية ، و يحمل كل ما يريد من الوادي الى قمة الجبل ، لا فرق بين إنسان أو حيوان ؛ فالغول المارد هذا ، يعشق أكل اللحوم و لا يقوى على ردعه أحد و أهل الوادي صامتون و هو يستولى على خرافهم و تعلموا أن لا يصعدون الجبل ؛ لأن كل من تحداه ، إما أن يكون وليمة أو عبد ًا .

كبرت مسكة و أخيها و هم يبذرون الحياة في الأرض ، و ذات مساء انتشر ب الوادي صوت عويل مرعب ، و أنين مكلوم يشبه عواء الذئب .. خرج أهل الوادي

و هم قلة يقتفون الأخبار ؛ فضحك عجوز يجلس بجوار بيته الطيني يحتسي قهوته و يلتقط حبات التمر اليابس ، قال لهم : " هذا نعي المارد ؛ أصيب في أحد من خاصته إن لم تعودوا إلى بيوتكم سيُولِم في فجيعته بكم .. !

عودوا إلى بيوتكم ؛ ليُولِم بخرافكم فقط .. انصرف الجميع مذعورين كل ٌ إلى بيته .. ذات صباح مشرق خرجت " مسكة " ؛ تزرع أرض مزرعتها بالبرسيم ؛ علف َ خرافها و كان المارد الغول مار ّ ًا فوق المزرعة .. شاهدها و وقعت في نفسه موقع الزوجة التي افتقدها في ذلك اليوم حين ملأ صراخه الوادي فقرر ا ختطافها ؛ لتكون سيدة قصره على الجبل الشامخ ، حملها وطار بها و هي تستنجد ، تصرخ تنادي على أخيها و لا أحد يقوى على نجدتها ...

عاد أخوها و لم يجدها . خرج للبحث عنها و الرجل العجوز يلتقط حبات التمر و يحتسي القهوة و يقول له " لا تبرح موقعك تحت جبل المارد ، ستنادي عليك مسكة ذات يوم لتنقذها. "

ظل ينتظر تحت الجبل و ينظم لها الأشعار بعدما طالت غيبتها سبع سنوات و هو لم ييأس .. المارد سعيد بزوجته مسكة الإنسية التي انجبت له ثلاث أولاد و " مسكة "حزينة على فراق أخيها و رعبها اليومي من أن يول ِم بها الغول و أبنائه الذين أنجبتهم منه ...

ذات يوم غادر المارد الى بلد مجاور ملبي ًا دعوة المارد الأكبر . فخرج مع البكور و قال ل. " مسكة " " سأعود آخر النهار."

فرحت مسكة و خرجت إلى أطراف الجبل و سمعت صوت أخيها يرد على ندائها ؛ هي في قمة الجبل ، و هو في قاع الوادي يلوح لها ، يقفز من الفرح يود الوصول لها .. حاول تسلق الجبل و لم يستطع ؛ فدلت شعرها فأخذ شعرها يزداد طولا حتى وصل إليه فتسلق على جديلتها حتى وصل لها و عانقها طويلا ثم قصت عليه القصص . اتفق كلاهما على التخلص من الغول المارد و ابنائه الثلاثة الذين كانوا يراقبون خالهم في حذر ؛ يودون لو انقضوا عليه و التهموه فنهرتم أ مهم قائلة " هذا اخي خالكم لحمه محرم عليكم " وعندما قرب موعد عودة زوجها خبأت أخوها تحت المنخل الكبير و في يده سكين لذبح الغول المارد .

دخل الى بيته فقال لمسكة اشم رائحة إنس ..!

- " إنها رائحتي ، أنسيت أني إنسية .. بينما عيون صغاره تقدح شررًا .. ويغنون لوالدهم (خالي خليخلي تحت المنخيلي ..غطته أمنا بزبديه و يده قابضة على جنبية) . لم يفهم الغول المارد قصد صغاره و دخل لينام فأنقض عليه رشيد و ذبحه ، ثم ذبح أولاده و أخذ أخته و هربا .

ارتفع صوت كهنوف و هو يحدث نفسه " ما أبشع تاريخنا .. ما أ بشعه .. السكين ،

السيف ، الجنبية ، أدوات لا يخلوا منها تاريخ موروثاتنا حتى في أدبه التراثي ، و أخذ يدندن (خالي خليخلي تحت المنيخلي) كم خال تحت المنيخل بأوطاننا " ، ضحك بصوت عالي .. نظر إليه رفيق دربه الجالس بجواره في المركبة باستغراب و تابع صمته و المركبة تتابع سيرها في الطريق الأفعواني من أعلى الجبال في منحدرات تتجه إلى قاع الجبل ؛ ليصلوا إلى وادي النعمان الموصل للبلد الآمن . وأي فرح ذاك الذي سيفيض من عينيه دموعاً حينما يواجه القبلة ؛ كعبة اللّه في الأرض ، بيت اللّه المعمور سيجد ضالته التي بحث عنها في كل الأوطان فلم يجد إلا مارداً كغول مسكة .

و خوف من مجهول ... !

-3-

في سبيل السلام

صدق " نيتشه " ب. " إن الغريزة السببية يثيرها فينا الشعور بالخوف " و خاصة الشعور بالخوف نحو كل جديد . و كهنوف مقبل على موقف جديد لم يمارس طقوسه من قبل و لم يزره ، تدفعه غريزته الفطرية التي وضحت معالمها في أنه نشأ في محضن إيماني الى أن يتقبل كل جديد من الطقوس بقليل من الخوف و كثير من الإيمان و الطاعة . تجرد من لباس المخيط كلحظة الميلاد التي لا تختلف في التجرد كساعة الموت تدخل إلى الدنيا عارياً صارخاً ؛ يقطعون حبلك السري المتصل برحم أمك و يغسلونك ، لتكون قابلا للنمو. و تخرج من الدنيا عارياً صامتاً يغسلونك و يقطع حبل اتصالك السري بالدنيا لمجرد دفنك في رحم الأرض ، و تكون قابلاً ليأكل جسدك دود الأرض .

التحف إزاره و رداءه الأبيض و بدأ بالتلبية ؛ " لبيك اللّهم لبيك .. لبيك اللّهم عمرة لبيك اللّهم حج أول جملة نطق بها ، ضج صدره بصوت من أعماقه يتطرز بحنين مشوب بشوق لأن يرتمي في قلب البيت المعمور و لسانه يلهج داعياً ربه ؛ ها أنا قادم يا ربي إلى بيتك ؛ الذي تنال فيه النفس كل ما تتمناه ..

كل مدينة مر بها كهنوف وكل مدن العالم يوجد قلب للمدن بعمر زمن انشائها على البسيطة لا تمس بنيانها و لا تهدم آثارها ؛ تحكي للزوار تاريخها و حضارتها منذ و لادتها .. كل المدن تتباهي بعراقة ماضيها و عدد القرون التي صمدت فيها أمام عوامل الزمن و متغيراته ، صامدة جدرانها و أحجارها في بهاء و شموخ . و تحيط بها المباني الأسمنتية الحضارية الحديثة ، و لم تسرق بهاء جمالها ، و لا عمر حضارتها .. و كهنوف في لهفة المتشوق ينتظر لحظة أن تتسع عيناه على مكة القديمة مكة ؛ زمن المصطفى حيث نشأ و حيث تم اختيار رسولاً نبياً ، و حيث نزل عليه الوحي و هو في كهفه يتعبد و يتفكر ، يتلهف الى رؤية القامة

المجللة بالسواد ؛ أقدم بناء لم يتغير موقعه في بلاد الإسلام ، كيف سيكون قلب مكة التي امتد عمرها منذ زمن سيدنا إبراهيم حينما ترك زوجته هاجر و ابنه إ سماعيل في وادي مكة .. وادٍ غير ذي زرع و دعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليه .. لم يبقَ ل. كهنوف إلا زمن ٌ يسير في رحلته ليكون بالبيت المعمور يشتاق لرؤية مكة العتيقة ، أقدم المدن المقدسة ، سيسترجع زمن الحبيب المصطفى و صحابته عندما يسير في شوارعها يلتقط أنفاس التاريخ من صدر الجدر الصامدة و الجبال الشامخة و جبل أبي قبيس المُقدس .. سيرى في مكة م الم يره في حجارة بيت المقدس و قبة الصخرة .. و قصر بلقيس . ومعابد الكون وأهرامات مصر.

- " هل للفكرة قدرة على تغيير واقع الحال ؟ " يسأل كهنوف نفسه ..

حينما بُعث من عمق كهف الفرات و تحول المدفن الى مبعثْ ، وانبثاق ، مع فكرة البحث عن أرض لا تشرب دم ابنائها ، و عن أبناء لا يملئون كؤوسهم بخمر عقائدهم ، و لا مذابح تكفيرهم ، و معابد أموالهم . ارتدى كهنوف فكرته و تلبسته حتى كاد يصدق أن السلام يأتي من خارج النفوس ، و ينعكس داخل البشر ؛ بينما قناعاته توحي بأن السلام الخارجي انعكاس للداخل الإنساني .

انطلق يجوب الغبراء بحث ًا عن عوالم أمم تلتقي عند مظلة ٍ و تصنيف ٍ إنساني واحد لا تنصهر في بوتقة الاستعار و مشارب و تمزقات المذاهب . انطلق من مكامن الفزع يبحث في آفاق الليالي الدهماء عن كوة ينبثق منها الى مسارات الأمان الى السلام الداخلي . يبحث عن موقع يوازن فيه طاقة السلام بداخله مع طاقة الكون ليعم السلام ذلك التوازن الذي افتقده كل من حمل سكينا أو بندقية و أراق مياه الجسد منتزع ًا السلام و الحياة لأنه لا يملكه ، و مكة تلك الكوة النورانية التي سينطلق منها إلى عالم روحاني بهي . و إلى سلام متوازن بينه و بين سلام أرض مكة ، مبعث السلام للعالم حيث مركز النور و إشعاعه .

العقارب تشير إلى اقتراب موعد صلاة العشاء .. تتوقف المركبة عند نهاية شارع " أجياد " على يمينه جبل أبو قبيس المقدس .. لم يعد جبل ًا بعدما أحاطت به الجدر المرتفعة و الحرس و انغرست في جسده المباني الإسمنتية الخاصة المطلة في علو على الحرم .. لم يعد جبل ًا معلم ًا مقدس ًا ؛ بل نزل ًا تحرسه الجند و المصفحات .

بدت منارات الحرم في بهاء ؛ تحثه على المضي و الدخول الى بيت الله .. وقف على بوابة شاهقة للمسجد الحرام ((اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس)) أول ما حدثت به نفسه ، فخلع َ نعليه ، و خلع خوفه من البشر ، خلع الدنيا من قلبه ، توحد مع صوته المردد للتلبية .. لم يعد يشاهد الجموع حوله .. تلبسته هيبة الموقف انسكب في جوفه فيض من الأمان ، دلق كوب من ماء سقيا زمزم المبرد في حافظات .. اتجه بوجهه للقبلة و جلس القرفصاء و هو يشرب بعد أن ردد "

بسم اللّه اللّهم .. اجعله شفاءً من كل داء " .. ينزل ماء زمزم بارد ًا في جوفه ؛ ليطفئ لهيب حمم فجائع ما مر به من أحداث مفزعة .. قلبه لا يتوقف عن الخفقان كلما اجتاز رواق ًا ؛ ليصل إلى المواجهة مع بيت اللّه ، وقف أمام المجللة بالسواد .. اتحد مع طاقتها الروحانية التي بعثت في جسده رعشة الحلول و التوحد فسقط ساجد ًا . لم يعد يشعر .. إنه اثنين ؛ عقل و جسد .. أ مام الكعبة يعني اتصاله بالطاقة الأرضية التي سيدفن يوم ًا ما فيها ؛ ليرحل إ لى اللّه ؛ اذ الأرض باب إلى اللّه كما أن السماء باب إليه .

ارتفع صوت المؤذن ، تذكر الشيخ المعمم و هو يتحدث عن الآذان ؛ فيه كيان حيوي له علاقة بمركز القلب القريب من اللّه ؛ فالمؤذن عندما يؤذن من مركز قلبه القريب من اللّه ، و المتوازن الطاقة ، يصل صوت أذانه إلى قلوب السامعين فتس معها و إلى أرواحهم فترتقي به .

.. فجأة ارتفعت أيدي الطائفيين إلى جهة واحده و هي تحمل هواتفها ، سارع الخطى إلى صحن الطواف ، و ارتفع راسه الى حيث الأعناق المشرئبة فإذا بساعة تسبح في الفضاء القريب العالي ، و تطل على صحن الطواف .. تتبادل الأ ضواء فيها مع صوت المؤذن و الناس بخشوع مُثّل ..

طال مكوثه بالمسجد و عندما داهمه التعب ، اتخذ مكان ًا في أحد الأروقة ، و وضع حقيبته الصغيرة تحت رأسه و نام كهنوف كما لم ينم طوال حياته ؛ نام نوم المجاهدين في حضن البيت الآمن .

مكة البلد الذي لا ينام ؛ ليله كنهاره .. عندما أفاق من نومه في منتصف الليل ، و من الأضواء و الهالات و تغيرات جسده الملائمة لزمن جديد كهذا ، صار يلاحظ أن المباني ترتص أمام المسجد الحرام .. البنايات الإسمنتية الشاهقة و التي تضج محلاتها بالحياة ، ارتفع رأسه في الفضاء بحث ًا عن مبنى الساعة و سعى للولوج إلى عالمه .. حين دخل من بوابة المبنى تحولت الصورة و انسلخت المواقف فإذا به في إحدى دول العالم الأول .شتان بين أن تكون في حضن اللّه في البلد الآمن ، و أن تكون في حضن الدنيا بكل تفاصيلها الغربية الباذخة ..

لم يعد لمكة تاريخ مبانٍ ، هدمت المدينة التاريخية .. لم يبقى فيه إلا تاريخ الكعبة المشرفة ، و مقام إبراهيم ، و حجر اسماعيل ، وبئر زمزم ، و المسعى . المدن بغير مبانيها القديمة تصبح بلا هوية بلا تاريخ ..

قرر كهنوف أن يقضي أيامه في الحرم إلى حلول أيام الحج القريبة ؛ ينهل من آيات الكتاب المبين ما يغذي به روحه العطشى للأمان .. غفت عينه لبضع دقائق من الساعة .. أفاق مفزوع ًا وجلا ً على صوت ارتطام جسم معدني أحدث دوي ًا كبير ً ا، و تعالت الأصوات .. عويل و صراخ و تكبير يجلجل أرجاء الحرم ، و أشلاء مبعثرة ، و دماء ، و موتى ، و جرحى ، و أنين ٌ ارتفع صوته مع الجموع " اللّه أكبر .. اللّه أكبر " .. تحسس رأسه فإذا دمه يسيل حار ّ ًا .. تقدم

إليه احد الناجين ، و ربط رأسه بغطاء رأسه ؛ فتوقف النزف . وقف يُشاهد منظر ًا مريع ًا من الدماء ، و الجثث ، و جسم الرافعة يخترق سطح الدور الثاني بـ الحرم و تحت َه أكوام ُ الموتى ، و الجرحى ، و جزء ٌ اقتحم َ الساحة و سحق الأجساد " دماء ، دماء ، دماء ، أشلاء " , ركض إلى الكعبة .. أمسك بأستارها ، يبكي ، و كل من حوله في حالة هلع و فزع و ذهول . استغرق كهنوف في شهود روحانيات الرب المعبود ، و توجه ثابت ًا ، مؤمنا ، موقناً أنه لن يختل هذا النظام الإلاهي مهما كان .. تعلق بأستار الكعبة و هو يجأر الى ربه : " ربي أ تعبني الركض في الغبراء ، فمُنَ علينا بسلام يعم دواخل البشر فلا يؤذي منهم طير ً ا و لا بشر ً ا ، و لا يتناثر غبار الأرض ، و لا تتحول المساجد الإلاهية من معابد الى مشانق للدمار و الموت .. البيت بيتك الآمن . أنت القادر على أن ترمي من انتزع الأمان الداخلي ليحل محله الشر ، و أنت القادر على إذابتهم في جبروتك أو أن تردهم إلى الصراط المستقيم . "

التفت َ حيث حفلة السحق ، و الأشلاء ، و الدماء .. صرخ متأوه ًا ، ثم الصق وجهه بالكعبة و الكون حوله يموج في صراخ و عويل ؛ نفس الأصوات و التأوهات التي سمعها في أرض الحجاج و أرض المعاد و المنبعثة من بين جبال و وديان و سواحل اليمن السعيد ؛ الجريح .. جميعها تنهر دماء على أرصفتها الهزيلة أمام النصال المسنونة و الأحزمة المفخخة ...

سجد والوجع ينثال مرسلا ً تشظيات صوته و زفراته و دموعه إلى عمق الأرض ؛ لترتد إلى عنان السماء مجتازة أبوابها . و لأنه لا يخشَ الحقيقة ، صرخ بأعلى صوته " السلام القادم من خارج النفوس أكذوبة ، السلام ها هنا من داخلنا من فـ عِلنا .. م َن فعل بك يا بيت اللّه و بكل المدن العظيمة هذا ؟ و من دمر الأمن و سحق الأمان ؟ أهو من لا يملك السلام الداخلي .. من المتأزمين في عقائدهم و نفوسهم إلى درجة مفزعة لا يملكون إلا تقمص (هولاكو) .. لا عرش إلا عرش الرحمن استوى عليه ، بينما عباده المغرورين ، يتحلقون حول الكراسي و جلاسها و يمجدونهم و يسفكون الدماء من أجلها ، لا يعتبرون و لا يرتدعون بمن أسقط من كرسيه ، و قطع عنقه ، و لا من سحل ، و مثل بجسده ، و لا بمن لف في كفن و غطوه بعباءة ملكه .. "

تقاطر الناس خارجين من بيت اللّه .. كل يجر مصيبته بحث ًا عن ملجأ يستوعب ما كان . بينما سقط كهنوف في شرك الخوف ، و- أنت ُز ِع أماذ ُه ..

تذكر ذات مرة ، في يوم الحج الأكبر صعد كهنوف على جبل النور حيث غار ِ حراء ؛ إنه كمثل الكهف الذي انطلق منه ؛ موقع بعث . النبي بعثه اللّه نبي ًا و رسولا ً لهداية الأمة من كهف يعبد فيه اللّه فعم نور الهداية الأمة في اصقاع الأ رض. و كهنوف خرج من كهف الرافدين ليكون َ شاهد ًا على ظلم الأمة و جبروت الطغاة .. وقفة عرفات مهيبة .. حشد عظيم فر ّ َ الى اللّه ؛ لغسل أ وجاعه و ملء النفوس نور ًا .. يتجردون باطن ًا و ظاهر ًا من الدنيا .. تموج

جموعهم كموج البحر في يوم هادئ و زخات المطر ترسل نفحات نسائم من هواء بارد يخفف قيض مكة في صيف حارق .. جمع ٌ مهيب ليوم عظيم ، يوم الحشر الدنيوي ..!!

التقط كهنوف الجمرات (بمزدلفة) ، داهمته صور أطفال الحجارة الفلسطينيين ، وعرف أنه لا يُرمى بحجر ٍ إلا شيطان .. في طرقات (م ِنى) ؛ الوجوه تكتسي وهج ًا من فيض النور في يوم عيدها المجلل بالتكبير .. حشود غادية إلى حيث حبس الشيطان لرجمه .. يتجول كهنوف في طرقات و كباري (منى) ؛ ليصل إلى موقع رجم الشيطان . أمواج بشرية تتواجه في تيارات متصادمة ، كل ٌ يدفع في اتجاهه للانفلات من الدوامة البشرية .. يجد كهنوف جسده وسط بؤرة الدوامة ، لا سبيل الى انفكاك أو التحرك .. تلتحم الأجساد .. تتساقط كخرق مبلولة .. يقاوم كهنوف ؛ ليظل فوق الموج البشري ، قدمه لا تساعده .. حشرجات الموت في أعناق الجثث المتراكمة .. تؤلمه تشتت حشرجة صوته . بعض الأ جساد تسكن ، بعضها يقاوم يحاول الفكاك من معقل المذبح . و تظل وليمة التحام الأجساد أقوى من الطفو أو الفكاك من عشق الجذب الأرضي .. يصعد كهنوف مع سرب الحمام الأبيض في تجمع مبهر .. يودعون وليمة التحام الأجساد متجهين إلى باب الخلاص ؛ باب السلام و الأمن ، متجهين إلى السماء ؛ إلى باب اللّه .

هذه المرة لن يمارس كهنوف طقوسه التعبدية مثل آخر مرة فعلها ؛ ففي ساحة الوليمة يقومون بعدِّهم ، كخراف الأضاحي " واحد اثنان .... سبع مئة... ألف .... !!! " نساء و رجال .. لا فرق ؛ التحمت الأجساد في حفلة الاختناق ؛ بعيدا عن عين رجال الحسبة.. وسيلة أخرى للموت بلا دماء .. بحثوا الأجزاء المفقودة في جسد كهنوف وسط أكوام بقايا الوليمة .. يأسوا من العثور عليها ، و لم يسأل عنه أحد في (المعلاة)

من باب الأرض الى اللّه ، أدخلوا نصفه - الذي عثروا عليه - إلى رحم الأرض ، و تركوا مهمة لقائه النصف الآخرَ من جسده على السماء ..

السلام على السلام الذي جاب الغبراء من أجله " كهنوف "

انتهى .

قائمة الكتّاب :

- الفصل الأول :
  1. الجزء الأول : سامي الشاطبي (اليمن)
  2. الجزء الثاني : نجاح الشامي (اليمن)
- الفصل الثاني : نجاة باحكيم (اليمن)
- الفصل الثالث : محمود عبدالواحد (اليمن)
- الفصل الرابع :
  1. الجزء الأول : جمال الجهلاني (المغرب)
  2. الجزء الثاني : أمينة يحيى (الأردن)
- الفصل الخامس : مسيرة سنان (اليمن)
- الفصل السادس :
  1. الجزء الأول : الشيباني محمد (اليمن)
  2. الجزء الثاني : نبيلة الشيخ (اليمن)
- الفصل السابع :
  1. الجزء الأول : سيرين حسن (اليمن)
  2. الجزء الثاني : فاطمة وهيدي (مصر)
- الفصل الثامن : ياقوت العواضي (اليمن)
- الفصل التاسع : محمد السقاف (اليمن)
- الفصل العاشر :
  1. الجزء الأول : علي العيدروس (اليمن)

2. الجزء الثاني : رستم عبدالله (اليمن)

- الفصل الحادي عشر : سماح عملاق (اليمن)
- الفصل الثاني عشر : أيمن الشرجبي (اليمن)
- الفصل الثالث عشر : أحلام العزب (اليمن)
- الفصل الأخير : طيبة الشريف الإدريسي (السعودية)